الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

معهد أصول الدين
قسم الدعوة والإعلام

موضوع البحث

الشيخ إبراهيم بيوض ومنهجه في الإصلاح

(1899م - 1981م)

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب
نور الدين سكحال

تحت إشراف
د. بشير بوجنانة

السنة الجامعية 1994 / 1995

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهـــداء

إلى والدي الذين تعبا كثيرا لتعليمي وتربيتي...

إلى مشائخي وأساتذتي أصحاب الفضل الكبير علي...

إلى إخواني وأخواتي ...

إلى زوجتي التي كانت أكبر مشجع لي على إنجاز هذا البحث...

إلى كل العاملين من أجل عودة الاسلام إلى قيادة حياة

الإنسانية إلى سعادة الدنيا والآخرة ...

أهدي هذه الرسالة مع أصدق وأنبل المشاعر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

بعد أن اكتملت فصول هذه الرسالة، أجد من الواجب علي – من باب الاعتراف بالجميل لأهله – أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور بشير بوجنانة . إذ تكرم بالموافقة على موضوع الرسالة، وتحمّل أعباء الإشراف عليها، في ظل الظروف الصعبة التي تمر بها بلادنا، فرعاني رعاية الوالد لولده، وكان لي نعم المشجع للتغلب على صعوبات البحث، وكان ينفث في روح الأمل كلما أحس بشبح اليأس يطوف بساحتي.

كما أتوجه بشكري إلى الشيخ محمد بيوض والأستاذ عامي بيوض الذين أحسنا استقبالي في مدينة القرارة، وقدما لي يد المساعدة رغم أشغالهما الكثيرة.

ولا أنسى أن أشكر المشرفين على معهد الحياة : أساتذة و إداريين على ما بذلوه من جهد لتسهيل مهمتي . وأذكر على رأسهم الشيخ سعيد شريفي مدير معهد الحياة، والأستاذ صالح حدبون مدير داخلية الحياة.

كما أوجه خالص شكري إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد في إنجاز هذا البحث.

و أسأل الله الغفور الشكور أن يثيب الجميع بالأجر العظيم، إنه سميع مجيب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فإن العمل على تنزيل أحكام الدين على الواقع في كل دوائره الثقافية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية، لينضبط بها في سيره، ومقاومة مايطرأ على هذا الواقع من نكوص عن هذه الأحكام، يعدّ من أعظم الواجبات التي كلفت بها الأمة الإسلامية، حيث أوجب الله عليها إعداد كفاءات يكون في مقدورها القيام بهذا الواجب، الذي يسميه القرآن الكريم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال الله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون**﴾ [آل عمران : 104].

وقد عدّ الإمام أبو حامد الغزالي هذا الواجب الغاية من ارسال الرسل، القيام به هو الضمان للمحافظة على ميراث الأنبياء، فقال : "إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولوطوي بساطه، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد". (1)

وآداء لهذا الواجب ظهرت في التاريخ الإسلامي حركات إصلاحية، في حلقات متعاقبة، امتدت عبر الزمان، هدفت إلى تنزيل أحكام الدين في واقع الناس، وعملت على إزالة مظاهر الفساد الطارئة على ذلك الواقع.

وقد ترددت هذه الحركات في محاولاتها الإصلاحية بين النجاح والفشل، بقدر فهمها للواقع الذي أرادت تغييره، وحسن اختيارها للمناهج والأساليب الناجعة في تغييره.

---

(1) – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، [دتا]، ج2، ص309.

ومهما كانت النتائج التي حققتها هذه الحركات الإصلاحية من نجاح أو فشل، جزئي أو كلي، في معالجة الواقع، فإنها تركت لنا تراثا ثريا، سجّل لنا مدى فهم تلك الحركات لواقعها بعناصره المختلفة، وفهمها للإسلام الذي يمثل المشروع البديل الذي أرادت تنزيله على الواقع، والمناهج التي سلكتها لإزالة مظاهر الفساد، وإحلال مظاهر الحق محلّها.

ويعتبر هذا التراث مرجعا مهمّا للأمة الإسلامية اليوم، وهي تتوق إلى تغيير ما حلّ بها من فساد.

ودارسة هذا التراث الثري بالتجارب، يعدّ من أوكد الواجبات على الذين يحملون همّ إصلاح أوضاع هذه الأمة، وذلك للإستفادة من إيجابياته وتطويرها، والتنبيه إلى سلبياته لتجنبها في الحاضر والمستقبل.

ورغم أهمية دراسة هذا التراث في ترشيد العمل التغييري في العالم الإسلامي فإننا لا نلحظ اهتماما كافيا بها، إذا استثنينا بعض المحاولات التي قام بها بعض المفكرين والدراسين.

وبسبب قلة الإهتمام بهذا النوع من الدراسات بقيت حركات إصلاحية خطت بمجتمعاتها خطوات معتبرة في مجال التغيير الثقافي والإجتماعي دون دراسة وتحليل وتقويم لجهودها، ومنها حركة الإصلاح في منطقة ميزاب.

والأهداف التي يرمي هذا البحث إلى تحقيقها يمكن تلخيصها في هدفين اثنين، أولهما التعريف بشخصية الشيخ بيوض الإصلاحية التي مازالت مجهولة في أوساط الدارسين رغم ماتميزت به من عبقرية في ميدان الإصلاح.

وثانيهما عرض التجربة الإصلاحية التي قام بها الشيخ بيوض عرضا تحليليا نقديا، يبرز إيجابياتها ولايتغاضى عن سلبياتها، لتستفيد منها الحركات التغييرية في العالم الإسلامي، وذلك لاختصار الخطى، وتجنب الوقوع في نفس الأخطاء.

وأهم الدوافع التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع طموحي في أن تعود الأمة إلى إسلامها لتتمكن من القيام بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لتظفر بالخيرية التى أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله** ﴾[آل عمران:110].

ويدفعني هذا الطموح إلى دراسة المحاولات الإصلاحية والتغييرية التى عملت لتمكين الأمة من القيام بهذا الواجب العظيم.

ومن البواعث كذلك ما نلاحظه في المحيط الذي تحركت فيه حركة الإصلاح بقيادة الشيخ بيوض، من سمو أخلاقي وترابط إجتماعي، الأمر الذي لفت إليه الانتباه الأستاذ مالك بن نبي في مقال كتبه بعد زيارته لمنطقة ميزاب عام 1968، حيث أكد أنه لم يلحظ في هذا المحيط انحلالا أخلاقيا، كما لم يلحظ فيه انحلالا اجتماعيا.(1)

وتدفعنا هذه الملاحظة إلى البحث عن الأسباب الكامنة وراء مثل هذه السلوكات التى تميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات المجاورة له.

ويفترض البحث أن يكون للحركة الإصلاحية بقيادة الشيخ بيوض دور في ترقية هذا المجتمع إلى هذا المستوى في أخلاقه، وفي شبكة علاقاته الإجتماعية، وسنتبين ذلك من خلال فصوله ومباحثه.

ومن الدوافع كذلك رغبتي أن أكون من الملبين لدعوة الأستاذ مالك بن نبي، الذي حثّ الشباب الجزائري على الإهتمام بدراسة التنظيمات التى تؤطر هذا المجتمع.

ولم يكن إنجاز هذا البحث بالأمر الهين، فقد اعترضتني صعوبات كثيرة، أذكر منها:

– أن تراث الشيخ بيوض لم يجمع بعد، ليتمكن الباحث من دراسته وتحليله، ولا تزال المحاولات التى قام بعض الأساتذة من تلاميذ الشيخ في بداية الطريق.

ثم إن أكثر تراث الشيخ بيوض عبارة عن دروس مسجلة على أشرطة، ورغم أنه وضعت لها فهارس إلا أن الاستفادة منها تبقى محدودة بسبب التسجيل الرديئ لبعضها.

– قلة الدراسات التى تناولت مناهج الحركات الاصلاحية بالدراسة المنهجية، لأن الاهتمام بهذا المجال مازال في خطواته الأولى، مما يضطر الباحث إلى الاعتماد على نفسه في وضع منهجية خاصة لدراسة هذه المواضيع، وهذا ليس أمرا سهلا بالنسبة لطالب

(1) - MALEK BENNABI L'invitation du M'Zab ,Revolution Africaine, N°274, 20 au 26-05-1968, p p : 23-24

تخطو الخطوات الأولى في مجال البحث العلمي، وهذا على خلاف الدراسات التي تكون في مجالات أخرى، كالفقه وأصوله، أو التفسير ومناهجه، حيث يجد الباحث أرضية ينطلق منها.

الجو العام الذي تمر به بلادنا في هذه الفترة، والذي لايمكن أن نعيش بمعزل عن تأثيراته، وهو جو يسوده القلق والتوتر، مما يصعب على الباحث التركيز في بحثه، وضمان الاستمرارية فيه.

وقد بذلت ما استطعت من جهد لتجاوز هذه الصعوبات، فعملت على إنجاز هذا البحث الذي قسمته إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

فالفصل الأول جعلته بعنوان : "الشيخ إبراهيم بيوض حياته وموقفه من واقع المجتمع الجزائري"، وعرفت فيه بشخصية الشيخ بيوض، وركزت بصفة خاصة على العوامل التي ساهمت في تشكيل رؤاه الإصلاحية، وعلى أهم المعالم التي تميزت بها شخصيته، ثم تحدثت عن تحديد الشيخ بيوض لمظاهر الفساد وأسبابها في واقع المجتمع الجزائري إبان الإحتلال الفرنسي وبعد الإستقلال.

أما الفصل الثاني فعنونته "منهج الإصلاح التعليمي التربوي"، وتحدثت فيه عن المبررات التي دفعت الشيخ بيوض إلى سلوك هذا المنهج، ثم عن الأهداف التي كان يرمي إلى تحقيقها من خلاله، ثم عن بعض المؤسسات التي تحرّك في إطارها لتحقيق هذه الأهداف، مركّزا بصفة خاصة على مؤسسة المسجد والمؤسسة التعليمية، وجهود الشيخ بيوض فيهما تجديدا وتطويرا.

أما الفصل الثالث "منهج الإصلاح الإجتماعي" فتحدثت فيه عن المبررات التي دفعت الشيخ بيوض إلى سلوك هذا المنهج، ثمّ عن الأهداف التي كان ينشد تحقيقها من خلاله، ثم عن الأطر التي عمل فيها أو أرشد إلى استغلالها للوصول إلى تلك الأهداف، مركّزا على جهود الشيخ بيوض في المحافظة عليها وتجديدها وتطويرها، ثم ختمت الفصل بعرض آرائه في بعض القضايا الاجتماعية.

أما الخاتمة فقد استخلصت فيها أهم نتائج البحث.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن أسلك عدة مناهج لإنجاز هذا البحث، حيث استخدمت المنهج التاريخي للإلمام بأطوار حياة الشيخ بيوض وأخذ صورة عامة عن أعماله في المجال التعليمي والمجال الاجتماعي، وبيان أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل شخصية الشيخ بيوض، وفي تحديد نظرته إلى واقع مجتمعه ومنهجه في الإصلاح.

واستخدمت المنهج المقارن لعقد مقارنة بين بعض آراء الشيخ بيوض وأعماله، وآراء وأعمال بعض المعاصرين له، من زعماء حركة الإصلاح كالشيخ عبد الحميد بن باديس، أو الدارسين لمسار حركة الإصلاح كالأستاذ مالك بن نبي.

أما المصادر و المراجع التي استعنت بها لإنجاز هذا البحث فيمكن تصنيفها كمايلي :

- آثار الشيخ بيوض : ومنها ماهو مخطوط ومنها ماهو مسجل على أشرطة، ومنها ماطبع، ومنها مقالات للشيخ نشرت له في صحافة أبي اليقظان وفي مجلة الشباب لمعهد الحياة، وسنفصل الحديث عنها عند ذكرنا لأعمال الشيخ بيوض وآثاره في الفصل الأول من هذه الدراسة.

- ماكتب عن الشيخ بيوض وأعماله :

ويأتي في مقدمة المصادر التي اهتمت بهذا الجانب، ماكتبه الأستاذ محمد علي دبوز في كتابيه "أعلام الإصلاح في الجزائر" بأجزائه الخمسة، و"نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة" بأجزائه الثلاثة، ويعتبر هذان الكتابان أهم مصدر عن حياة الشيخ بيوض وأعماله لأن أغلب ماسجل فيهما عن الشيخ بيوض وحركة الإصلاح في منطقة ميزاب مأخوذ من حوارات أجراها مؤلّفهما مع الشيخ، بالإضافة إلى أن مؤلفهما تلميذ للشيخ وقد واكب حركته الإصلاحية في مراحلها المختلفة.

– المقابلات الشخصية التي كانت لي مع بعض أقرباء الشيخ بيوض وتلاميذه، ويأتي في مقدمتهم الشيخ سعيد شريفي، الساعد الأيمن للشيخ بيوض في عمله الإصلاحي.

واستفدت من هذه المقابلات في التعرّف على حياة الشيخ وأعماله بعد الاستقلال، لأن الأستاذ محمد علي دبوز في تأريخه لحياة الشيخ بيوض لم يتحدث عن هذه المرحلة من حياته ربما لظروف سياسية كانت تمنعه من ذلك، أو لأن الأجل لم يمهله حتى يفعل ذلك.

– بعض الدراسات التي اهتمت بتحليل جهود حركة الإصلاح في الجزائر، مثل كتابات الدكتور تركي رابح، والأستاذ أبوالقاسم سعد الله، والدكتور أحمد الخطيب.

واستفدت بصفة خاصة من كتب الأستاذ مالك بن نبي الذي يعتبر أهم دارس لحركة الإصلاح وشاهد عليها، وقد اتسمت دراستها بملاحظات دقيقة وعميقة.

ولا أحسبني بهذا البحث المتواضع –رغم ما بذلت فيه من جهد– قد وفّيت الموضوع حقّه من الدراسة والتحليل، وربما تتاح الفرصة لي ولغيري في المستقبل –إن شاء الله– لتعميق البحث فيه، وتوسيع مجال الدراسة ليشمل حركة الإصلاح في منطقة ميزاب بمراحلها المختلفة، والتي لايعدّ العمل الذي قام به الشيخ بيوض إلاّ حلقة ضمن حلقاتها المتتابعة والمترابطة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول :

الشيخ إبراهيم بيوض

حياته، وموقفه من واقع المجتمع الجزائري

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــد :

قبل الحديث عن حياة الشيخ إبراهيم بيوض، وعن موقفه من واقع المجتمع الجزائري، من المهم أن نشير في البداية إلى الإطار الجغرافي والتاريخي الذي تحركت فيه حركته الإصلاحية .

أما الإطار الجغرافي، فقد شملت حركة الشيخ بيوض الإصلاحية الجزائر عامة، والمدن التي أقام بها الميزابيون في الشمال والجنوب خاصة، وركّزت جهودها بصفة أخص في منطقة وادى ميزاب حيث موطن الإباضية ومستقرهم.

وتتكون منطقة وادى ميزاب من مدن سبع هي: العطف، مليكة، غرداية، بني يزقن، بنورة، القرارة، وبريان.

وأقدم هذه المدن السبع نشأة هي مدينة العطف، حيث يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة 402هـ / 1012 م.(1)

وأحدثها نشأة وعمرانا مدينتا القرارة وبريان، حيث يرجع عمرانهما إلى القرن الحادي عشر الهجري، فالقرارة عمّرت في سنة 1040هـ، وبريان 1060هـ.(2)

والمدن الخمس الأولى (العطف، مليكة، غرداية، بني يزقن، بنورة) متقاربة في النشأة والموقع، فالعطف مثلا لا تبعد عن غرداية -عاصمة الوادى- إلا بـ 7 كلم، ومع التزايد السكاني واتساع العمران أصبحت هذه المدن تقريبا مدينة واحدة.

أما القرارة فتبعد عن غرداية بـ 100 كلم، وبريان بـ 48 كلم.

وقد بلغ عدد سكان وادي ميزاب سنة 1926: 29977، 22400 منهم إباضيون، و6263 مالكية، 1274 من اليهود،(3) وبلغ عددهم سنة 1960م، 58319 (4)

---

(1)- (2) - ابراهيم محمد طلاي، مزاب بلد كفاح، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1970، ص19.
وبكير بن سعيد أعوشت، وادي ميزاب في ظل الحضارة الاسلامية، ط2، المطبعة العربية، غرداية الجزائر، 1991، ص66-69.

(3) - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1992، ص152.

(4) - المصدر نفسه ،ص 204.

أما الإطار التاريخي الذي تحركت فيه حركة الشيخ بيوض فهو الفترة الممتدة بين 1889م و 1981م .

وقد مرت الجزائر في هذه الفترة بمرحلتين، مرحلة كانت فيها تحت سلطات الإحتلال الفرنسي، وامتدت من 1830 إلى 1962م، ومرحلة ثانية استعادت فيها سيادتها الوطنية، وتبدأ من عام 1962م.

وعايش الشيخ بيوض في المرحلة الأولى محاولات سلطات الاحتلال تحطيم المجتمع الجزائري ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا، لتتمكن من فصله عن امتداده الحضاري العربي الإسلامي، وإلحاقه بالحضارة الغربية.

وعايش في هذه المرحلة الحركات السياسية والثقافية التي ظهرت للتصدي لهذه المحاولات، والتي آل عملها في نهاية المطاف إلى ثورة مسلحة في نوفمبر 1954 بقيادة جبهة التحرير الوطني لتحرر هذا المجتمع من قيود الاحتلال، وهو ما تحقق فعلا في 5 جويلية 1962م.(1)

أما في المرحلة الثانية، فقد عاصر الشيخ بيوض أربع حكومات، الحكومة الجزائرية المؤقتة التي ترأسها السيد ابن يوسف بن خدة (1961م-1962م)، وحكومة الرئيس أحمد بن بلة (1962م-1965م)، ثم حكومة الرئيس هواري بومدين(1965م-1978م)، وجزءا من فترة حكومة الشادلي بن جديد حيث توفي الشيخ بيوض في جانفي1981م.(2)

---

(1) – انظر تفاصيل عن هذه المرحلة: ابو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، ج2، ج3، وتركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، وابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر.

(2) – انظر تفاصيل عن هذه الحكومات في : الأمين شريط، نشوء وتطور النظام السياسي والدستوري الجزائري.

I- حياة الشيخ إبراهيم بيوض ومعالم شخصيته :

لقد كانت حياة الشيخ بيوض ثرية بالأحداث و المواقف، فقد عاش حياته بعمق، سواء في المجال العلمي أو الاجتماعي أو السياسي .

وقد كان لهذه الأحداث التي عاشها، والظروف التي مرّت به، أثر في بناء شخصيته، كما أنها أسهمت إلى حدّ بعيد في تحديد نظرته إلى المنهج الذي ينبغي أن تسلكه حركة الإصلاح لتغيير ما حلّ بمجتمعها من خلل وفساد.

ولإدراك هذه العلاقة بين الأحداث التي تمرّ بالشخصية وبين المنهج الذي تسلكه في الإصلاح، كان من اللازم أن نبدأ بحثنا بالحديث عن حياة الشيخ بيوض وعن معالم شخصيته.

1- أطوار حياة الشيخ بيوض :

أولا : مولده ونشأته :

هو إبراهيم بن عمر بيوض، وبيوض لقب أسرته، وذكر الشيخ بيوض أن أول من لقب به من عائلته جده الثاني إبراهيم بن حمو الأول، وذلك لبياض وجهه وجمال هيئته.(1)

ونزل الشيخ بيوض من أسرة عرفت بخصالها الحسنة، لكنّ حظها من العلم كان قليلا، إذ لم يتجاوز مستوى أفرادها حدّ معرفة القراءة والكتابة والضرورى من علوم الدين.(2)

أما والده فهو السيد عمر بن بابة بن إبراهيم بيوض من عشيرة أولاد علاهم، وقد ولد في مدينة القرارة عام 1284هـ او 1285هـ، 1868م.(3)

---

(1) - محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ط1، مطبعة البعث قسنطينة، 1974م، ج1،ص:83.

(2) - المصدر نفسه ، ج1،ص:86.

(3) - المصدر نفسه ، ج1،ص:116.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كان السيد عمر مولعا بخدمة العلماء، يتكفّل بقضاء حوائجهم من السوق، ولا يزور القرارة أحد من أهل العلم إلا سارع إلى حضور دروسه ومجالس سمره، ويسأله أن يدعوا الله أن يرزقه ولدا صالحا يهبه للعلم.(1)

وأما أمه فهي السيدة عائشة بنت كاسي بن بهون بن الناصر بن بهون، ولقب أسرتها (أولاد بهون).

نشأت في أسرة جمعت بين الثروة والتمسك بالدين، وكان أبوها السيد كاسي بن بهون قائد مدينة القرارة، رجلا محنكا داهية، قال في شأنه الأستاذ بكير العنق(2) : "إنه لدهائه، واقتداره على الرئاسة، وتصريف الأمور، لايليق أن يكون حاكما لمدينة صغيرة، ولكن لدولة كبيرة".(3)

وكان الشيخ بيوض يشهد مجالس الحكم التي يعقدها خاله بين المتخاصمين والمتضاربين، فأخذ نظرة –وهولايزال في مرحلة الطفولة– عن مشاكل مجتمعه، واستفاد من خاله طرق حلّها.(4)

وكان ميلاد الشيخ بيوض يوم الإثنين الثاني عشر من ذي الحجة 1326هـ، الموافق لـ26 أفريل 1899م.(5)

وقد كان لوالده دور كبير في تنشئته تنشئة سليمة، وتربيته تربية حسنة، وحدثنا الشيخ بيوض عن حزم والده في التربية فقال: "كان أبي حازما، صارما، حريصا كل الحرص

---

(1) – محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج1،ص: 124-127

(2) – الشيخ الحاج بكير بن الحاج ابراهيم العنق، ولد في القرارة سنة 1868م، أخذ العلم عن الشيخ الحاج عمر بن يحي، وبفضل جهوده ظهرت أول مدرسة قرآنية عصرية في الجزائر بمدينة تبسة، توفي في 17 ديسمبر 1934/ الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ص: 181.

(3) – دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج1،ص:132.

(4) – محمد علي دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، ط1، مطبعة البعث قسنطينة ، 1978، ج3،ص:177.

(5) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج1،ص:153.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

على تربيتنا، فإذا وجبت العصا لايرحمنا".(1)

وقد حدث أن تغيب الشيخ بيوض مرة عن المحضرة (الكتّاب)، فاغتاظ والده لذلك، وضربه ضربا موجعا.(2)

وكان السيد عمر يبعد عن ابنه كل ما من شأنه أن يصرفه عن طلب العلم والإقبال عليه، فانتقل من مسكنه إلى مسكن آخر بجوار المسجد ليبعد ابنه عن بعض الملاهي ويقربه من بيت الله.(3)

وكان لجدته "زعمومة" أثر كبير في تربيته، فقد كانت تغرس في قلبه مبادىء العقيدة الإسلامية، وتسأله كلّما عاد من المحضرة عمّا حفظ من القرآن.(4)

وقد حدثت في هذه المرحلة من حياة الشيخ بيوض أحداث أليمة في القرارة، وذلك سنة 1905م، حيث اعتقل أحد أعيان الإصلاح، ووضع في اصطبل إهانة له، وقد ترك هذاالحدث آثارا بليغة في نفس الشيخ بيوض، وبقي هذا المنظر حاضرا في ذاكرته إلى أيام شيخوخته.(5)

ثانيا : دراسته ومشايخه.

كعادة أهل ميزاب، كانت أول مرحلة في دراسة الشيخ بيوض دخوله المحضرة أو الكتّاب لحفظ القرآن الكريم، فدرس القرآن عند الشيخ محمد بن الحاج يوسف العطفي،وقد جمع شيخه هذا في شخصيته بين الفضائل الأخلاقية، والحفظ الجيّد للقرآن، يقول الشيخ بيوض في وصفه : "كان ورعا كلّ الورع، لطيفا كلّ اللطف، حازما في تعليمه، ضابطا كلّ الضبط ".(6)

---

(1)-(2) - محمد علي دبوز ، أعلام الأصلاح في الجزائر ، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1976، ج2،ص:93

(3) - المصدر نفسه، ج2،ص:128-129.

(4) - المصدر نفسه، ج2،ص:90

(5) - دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ،ج1،ص:178 179.

(6) - دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص:85.

وكان عمر الشيخ بيوض لما دخل الكتّاب ست سنوات ونصف، وبقي يتعلم في هذا الكتاب قريبا من عامين ونصف، فوصل في حفظه للقرآن إلى سورة القصص، ولم يتجاوز عمره تسع سنين.(1)

ثم انتقل الشيخ بيوض إلى معهد الشيخ الإبريكي(2)، وفي هذا المعهد تلقى المبادئ، والقواعد في علوم العربية والشريعة، فدرس علم العقيدة، والفقه، والنحو والصرف، والحديث، والتاريخ.

يحدثنا الشيخ بيوض عن الكتب التي كان يعتمدها المعهد في تدريس هذه العلوم فيقول: " أما الحديث فندرسه في جامع الشمل في حديث خير الرسل، للشيخ الحاج أحمد اطفيش، والعقيدة ندرسها في كتب الفقه، ونحفظ فيها عقيدة الشيخ اسماعيل الجيطالي مع القرآن،أما الفقه ففيه طبقات، فالمبتدئون يدرسون كتاب تلقين الصبيان للشيخ عبد الله بن حميد السالمي، والمتوسطون يدرسون كتاب الوضع والحاشية للشيخ الحاج أحمد اطفيش، والكبار كتاب النيل للشيخ عبد العزيز الشميني، أما النحو فالأجرومية للصغار، وشرح الشيخ خالد لها، وكتاب القطر لابن هشام، وشذور الذهب له أيضا، والألفية لابن مالك بشرح ابن عقيل" (3).كما درس تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، في كتاب فتوح الشام للواقدي، وفي كتاب المعجزات اللامعة في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ الحاج أحمد اطفيش. (4)

وكان الشيخ الإبريكي يحرص على ربط تلاميذه بأصول الإسلام : كتابا وسنة، فكان له بالليل درس في تفسير القرآن، ويخصص يوم الخميس لختم القرآن جماعة، فيحضر هذه الختمة الطلبة وغيرهم من الكبار رجالا ونساء، كما كان يوجه تلاميذه إلى القراءة في كتب

---

(1) ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2،ص 85

(2) هو الشيخ الحاج ابراهيم بن عيسى الإبريكي، درس في القرارة، ثم في سبخ بوقين على قطاب الأئمة الشيخ المقشط، ثم رجع إلى القرارة، وفتح بها معهدا، تخرج منه تلاميذ أصبحوا أعمدة الحركة العلمية والإصلاحية، من أبرزهم : الشيخ أبو اليقظان، والشيخ عبد الله بن ابراهيم أبو العلاء، والشيخ بيوض.

الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ص:144

(3)،(4) ينظر : أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج2،ص 98

السنّة، ويلزمهم بحفظ أحاديث يترك لهم الحرية في اختيارها، يقول الشيخ بيوض متحدثا عن فوائد هذه الطريقة: "وكانت هذه الطريقة أجدى من الكتابة في اللّوح، إنّها تعلّمنا الإعتماد على النفس في الإختيار، وتجعلنا نقرأ أحاديث كثيرة فنعرفها ".(1)

وهذا المنهج الذي كان يعتمده المعهد في ربط التلاميذ بالقرآن والسنة، كان الخطوة الأولى التي حررت الشيخ بيوض من الجمود والتعصب وضيق الأفق الذي كان يميّز فقهاء عصر الإنحطاط، هذا بالإضافة إلى التأثير الذي تحدثه هذه الصلة المباشرة بالقرآن والسنة في النفس، حيث تدفعها إلى إصلاح أحوالها، وهو أمر لايمكن تحققه بدراسة الأقوال الفقهية جافة دون أدلتها من القرآن والسنة.

و لم يقتصر هذا المعهد على التكوين النظري، بل جمع إليه التربية الخلقية والتربية البدنية، فكانت التربية فيه متكاملة تجمع بين العقل والروح والجسد، قال الشيخ بيوض: "كان الشيخ الإبريكي مربّيا عظيما، يقصد في دروسه تهذيب النفس، وتهذيب العقل، فدروسه ممزوجة بعلم الأخلاق، سيما في التاريخ".(2)

وعمّق المعهد الجانب الأخلاقي في نفوس التلاميذ من خلال الدروس التي كان يلقيها الشيخ بابا يوسف، ويذكر الشيخ بيوض بعض الآثار التي تركتها هذه الدروس في التلاميذ فيقول:"كان درسه مؤثرا، فملأ قلوبنا بالإيمان بالله والبعث والحساب والجنة والنار، وملأها بالشوق إلى لقاء الله".(3)

كما كان المعهد يلزم التلاميذ بأداء صلاتي المغرب والعشاء في المسجد، وحضور درس الشيخ الإبريكي بعد صلاة العشاء.(4)

وكان للمعهد اهتمام بتنمية القدرات العقلية لدى التلاميذ من خلال تلقين بعض العلوم التي تحتاج إلى إعمال العقل، يقول الشيخ بيوض : "كنا نتنافس في عمليات الميراث

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص: 101 - 102.

(2) - دبوز : أعلام الاصلاح في الجزائر ، ج1،ص: 100.

(3) المصدر نفسه ، ج2،ص: 144.

(4) - المصدر نفسه ، ج2،ص: 98.

والحساب، كان هذان العلمان يملآني بالنشوة، لاستعمالهما للعقل".(1)

كما كان للمعهد اهتمام بالتربية البدنية فقد كان -كما يؤكد الشيخ بيوض " يغرس فينا النشاط، والشجاعة والصبر، وخفة الحركة، وكان يعلمنا الجري، والوثب والرماية".(2)

وتعتبر هذه الفترة التي أمضاها الشيخ بيوض في معهد الإبريكي أهم مرحلة في تكوينه العلمي، والخلقي، بشهادته هو حين يقول: "إن هذه الفترة، هي التي كونتني من حيث الضمير، وغرست في الروح الدينية المتأصلة، وتقدير النبي صلى الله عليه وسلم وحبّه، وحبّ الصحابة رضي الله عنهم"، و"هي التي زودتني بالعلم وكونتني في كل شيء، وأستطيع أن أقول أنني لم أزدد شيئا من جهة القواعد، قواعد اللغة والنحو والفقه،[...]، إلا توسعا فيما درسته".(3)

وكان للشيخ الإبريكي دور كبير في غرس الشغف بالمطالعة في نفس الشيخ بيوض في هذه المرحلة، ويعتبر الشيخ بيوض هذا الشغف أعظم ما اكتسبه في هذا المعهد، فيقول: "أرى الفضل الأكبر علي في حياتي لهذه الفترة، ولهذا المربي العظيم، شيخي الإبريكي -رحمه الله ، فهو الذي فتح ذهني، وخلق فيّ فهما وشغفا بالمطالعة، والإعتماد على نفسي في الدرس، فبدأت مطالعاتي في الكتب".(4)

ودامت دراسة الشيخ بيوض في هذا المعهد ثلاث سنين، فاستظهر القرآن و لم يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة، ثم دخل دار التلاميذ (5) فدرس فيها على الشيخ عبد الله بن ابراهيم سنتين.(6)

---

(1) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2،ص:100.

(2) – المصدر نفسه، ج2،ص:101.

(3) – المصدر نفسه، ج2،ص:119 120.

(4) – المصدر نفسه ، ج2،ص:119.

(5) - هي دار تابعة للمسجد، لايدخلها إلا من حفظ القرآن، لدراسة بعض علوم الفقه والشريعة .

(6) - المصدر نفسه ، ج2،ص:125 و 138.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم انتقل إلى معهد الشيخ الحاج عمر بن يحي(1) سنة 1913م، وكان نظامه شبيها بنظام معهد الإبريكي، فدرس الشيخ بيوض به نحوا من سنتين، فازداد رسوخا في علوم العربية والشريعة.(2)

ولم يستفد الشيخ بيوض من أستاذه كثيرا من الناحية العلمية، لأن تكوين أستاذه كان متواضعا، كما يشهد هو نفسه، حيث كان يقول لتلاميذه: "إنني أعرف أنني قليل العلم، لم أقض زمنا طويلا في التعلم، وقد وجدت الناس جهلة لايعرفون للعلم قيمة، فأردت أن أشعرهم بقيمته وحلاوته وضرورته ليطلبوه".(3)

لكنه أفاد منه إفادة كبيرة في تكوينه الإجتماعي والسياسي والثقافي العام، فقد كان الشيخ عمر بن يحيى يحرص على حضور تلميذه المجالس التي تناقش فيها قضايا الإصلاح، فاستفاد الشيخ بيوض منها أمورا كثيرة، يقول الشيخ: "هذه المجالس التي كانت تناقش فيها كل مشاكل البلد، وتشرح فيها كل سياسته، فعرفت مالم أكن أعرف من أسرار المجتمع والإصلاح، فثقف عقلي ما أسمع وما أرى، وعلمني أساليب النضال، وأرهف حسّي، وربائي تربية إجتماعية ممتازة".(4)

وإلى جانب هذه المجالس كان الشيخ بيوض يحضر مع شيخه المآدب التي تقام على شرف المصلحين، فيحضرها أعيان الإصلاح من القرارة ووادي ميزاب، وفي هذه الولائم يقول الشيخ بيوض : "تعرفت بكثير من أعيان الاصلاح في وادي ميزاب، وعرفت كثيرا من أعيان المدن والصحراء المجاورة للقرارة".(5)

---

(1) - هو الشيخ الحاج عمر بن يحي المنيكي، درس على الشيخ أطفيش في بني يزقن، ثم عاد الى القرارة عام 1896م فأسس بها معهده، كان رجل سياسة، فضايقه الإستعمار، وسجنه شهرين في سجن "تاغظمت" وفرض عليه الأشغال الشاقة، لأنه كان أحد رجال الجمعية السرية عمرلب، من فروع الجامعة الإسلامية باستنبول، توفي عام 1921 إثر إصابته بوباء التيفوس الذي اجتاح القرارة.

(2) - إبراهيم بيوض، فتاوى الإمام الشيخ بيوض، جمع بكير محمد الشيخ بالحاج، ط ؟، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1988، ج1،ص: 8 .

(3) - ينظر : أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2،ص: 148

(4) - المصدر نفسه ، ج2،ص: 154

(5) - المصدر نفسه ، ج2،ص: 161

ولما فتح الشيخ عمر بن يحي والشيخ بكير العنق ناديا يلتقي فيه المصلحون لقراءة مايصلهم من كتب ومجلات وجرائد، كان الشيخ بيوض من الملازمين لهذا النادي.

ومن الكتب التي درست في هذا النادي -كما يذكر الشيخ بيوض- تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده للشيخ رشيد رضا، وكتاب العروة الوثقى، وطبائع الإستبداد وأم القرى للكواكبي، وتاريخ مصطفى كامل، ومؤلفات الشيخ طنطاوي جوهري: نهضة الأمة وحياتها، ونظام العالم والأمم، وجواهر العلوم، وميزان الجواهر، فهذه -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "هي أهم الكتب التي قرأتها في الإجتماع والسياسة من سن البلوغ إلى العشرين".(1)

ومن الجرائد والمجلات التي كانت تقرأ في هذه الندوة، جرائد جزائرية كجريدة الفاروق الصحفي عمر بن قدور، ومجلات مصرية، مثل: المنار للشيخ رشيد رضا، والهلال، وجرائد تونسية مثل الصواب، ومرشد الأمة، ولسان الشعب والمنير، والسياسة، والزهرة، وبعض الصحف الفرنسية التي تأتي من باريس.(2)

يقول الشيخ بيوض -موضحا آثار هذه القراءات في تكوينه-: "لقد زادت في ثقافتي العقلية، وتربيتي الإجتماعية، وعرفتني بأحوال العالم الإسلامي، ومقاصد المستعمرين الصليبية فيه".(3)

ومما لاشك فيه أن هذه القراءات جعلت ثقافة الشيخ بيوض ثقافة مواكبة للعصر وتغيراته السريعة، ولولاها لكان يطغى على ثقافته الجانب التراثي التاريخي، مما يصعّب عليه فهم مشكلات عصره بله إيجاد الحلول لها.

وقد أعجب الشيخ عمر بن يحي بشخصية تلميذه وذكائه، فرفض أن يخرج في بعثة علمية إلى تونس للدارسة بالزيتونة وقال : "إذا خرج إبراهيم من المدرسة أغلق بابي حتى ألقى الله".(4)

---

(1) - ديوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص:160.

(2) - المصدر نفسه ، ج2،ص:161 - 162.

(3) - المصدر نفسه ، ج2،ص:158.

(4) - ابراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، دار الزيتونة للنشر، باتنة، الجزائر، 1990، ص:14

وفي هذه المرحلة – أي بعد الحرب العالمية الثانية– أخذ الشيخ بيوض غصبا للخدمة العسكرية الإجبارية، فأنقذ بعد مساعي مضنيه، فبدأ صراعه ضد الاستعمار بعد هذا الحادث مباشرة.(1)

ثالثا : أسفاره الأولى :

لاشك أن الأسفار تصقل تجارب الإنسان، وتفيده بتجارب الغير، أفرادا ومجتمعات، فإذا كان المعهد يزوّد الطالب بثقافة نظرية، فإن الأسفار تريه كيف توجه الثقافة سلوكات الأفراد والمجتمعات.

وبالنسبة للشيخ بيوض كانت أغلب أسفاره في هذه المرحلة من حياته أسفارا علمية، زار فيها بعض العلماء، وبعض المعاهد العلمية.

فقد سافر مع والده إلى بني يزقن عام 1911م، لزيارة الشيخ اطفيش،(2) وعمره حينئذ أحد عشر عاما، وقد حضر في الأيام الخمس التي مكثها في بني يزقن كل دروس الشيخ أطفيش.(3)

وبعد وفاة الشيخ أطفيش سافر الشيخ بيوض إلى بني يزقن لزيارة الشيخ الحاج صالح بن عمر،(4) الذي خلف الشيخ أطفيش في العلم والتحقيق.

وكان الشيخ بيوض يسافر مع شيخه الحاج عمر بن يحيى إلى وارجلان كل خريف،

---

(1) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص: 187 - 188.

(2) – هو الشيخ محمد بن الحاج يوسف طفيش، ولد ببني يزقن عام 1236هـ/1821م. تخرج على يديه عشرات التلاميذ، وله مؤلفات كثيرة منها : في التفسير هميان الزاد إلى دار المعاد، وفي الحديث جامع الشمل في حديث خير الرسل ، دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ،ج1،ص: 287.

(3) – دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص: 167.

(4) - ولد في بني يزقن عام 1284هـ/1867م، درس على شيخ اطفيش، له مؤلفات منها: مرافئ العوام إلى معرفة مبادئ الإسلام، والبراهين القاصفة لتمويهات متبعي الفلاسفة، توفي عام 1347هـ/1928م. الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب ،ص: 177 178.

بداية من سنة 1913 إلى سنة 1920م، قال الشيخ بيوض عن هذا السفر : "وكانت لي فيه فوائد عظيمة". (1)

وفي عام 1918م سافر مع الشيخ بكير العنق إلى بلاد الشمال، وحاولا الخروج إلى تونس لكن سلطات الإحتلال منعتهما، بحجة أنهما مسجلان في قائمة الممنوعين من السفر إلى تونس.(2)

وعاود الشيخ بيوض المحاولة عام 1920م، فخرج إلى تونس، وأقام بها شهرين بين إخوانه في دار البعثة، فتعرف على معاهد تونس العلمية، وحضر دروسا كثيرة في جامع الزيتونة، قال الشيخ بيوض -تعليقا على هذه السفرة- : "تعرفت على علمائها [أي تونس] البارزين في حلق دروسهم، وفي مجالسنا خارج الزيتونة، وشاهدت تونس في عنفوان جهادها السياسي، واجتمعت بكثير من قادتها السياسيين أركان حزب الدستور، وسمعت خطبهم".(3)

وفي هذه الفترة سافر الشيخ بيوض إلى مدينة "العلمة" لإنقاذ تجارة والده من الإفلاس، ولم يكن هذا السفر سفرا علميا، لكنه أفاده في نواح أخرى، ذكرها لنا بقوله: "وقد أفادتني هذه الشهور التي قضيتها في العلمة، فازددت علما بنفوس الناس في مختلف الطبقات واتصلت بالكثير من المثقفين من أهل الشمال والجنوب في هذا البلد".(4)

وفي سنة 1347هـ/1929م سافر الشيخ بيوض في رفقة الشيخ بكير العنق إلى الحجاز، فاجتمع بكثير من زعماء العالم الإسلامي، وممن اجتمع بهم شكيب أرسلان.(5)

---

(1) - بيوض : أعلام الاصلاح، ج2،ص:167.

(2) - المصدر نفسه ، ج2،ص:171.

(3) - بيوض ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص:188.

(4) - المصدر نفسه ، ج2،ص:186 - 187.

(5) - محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1971، ج2،ص:214.

رابعا : شخصيات تأثر بها :

إذا كان الشيخ بيوض يردّ الفضل في تكوينه العلمي إلى أستاذه الشيخ إبراهيم الإبريكي، والفضل في تنمية البعد الإصلاحي والإجتماعي في شخصيته إلى أستاذه الشيخ الحاج عمر بن يحي، والفضل في تكوينه الروحي العاطفي إلى الشيخ بابا يوسف، فإنه يقر أن أستاذه في السياسة والوطنية هو الأستاذ بكير العنق، الذي قال في حفل تأبينه عام 1934م: "كل من يدافع عن مصلحة وطنية في هذه البقاع، أو يطالب بحقه فبنوره [أي بنور بكير العنق] اهتدى، وبتعاليمه تشبّع، فكل الناس مدينون له، فهو أستاذ جميع الوطنيين، وهو أستاذي بالخصوص فأنا مدين له في كل شيء، هو أول من سلك بنا هذا الطريق، وأول من علمنا السير فيه".(1)

وممن تأثر بهم الشيخ بيوض، الشيخ أطفيش، وذلك من خلال كتبه التي كما لاحظنا أخذت حيزا لابأس به في مقررات معهد الشيخ الإبريكي، وكذلك من خلال زيارته لمعهده في بني يرقن وحضوره لدروسه.

وكان الشيخ بيوض يعدّه آية في العلم والتحقيق، ويعتبر العمل الذي قام به بعد ذلك في التعليم والإصلاح حلقه مكملة لأعماله.(2)

ومن الشخصيات التي تركت أثرا بارزا في فكر الشيخ بيوض شخصية الإمام محمد عبده، فقد كان الشيخ بيوض ينصح بدراسة كتبه، ودرّس كتابه "رسالة التوحيد" لطلبته في المعهد، كما درّس سيرته كما كتبها الشيخ رشيد رضا في كتابه تاريخ الشيخ الإمام محمد عبدة، وكان الشيخ بيوض يتمثّل في كثير من المقامات بأقواله، كما التزم منهجه في درسه في التفسير، فكان يردّد على مسامع طلبته في هذا الدرس قوله: " إن مقصدي من هذه الدروس [أي دروس التفسير] وغيرها هو مقصد الشيخ محمد عبده، أن أخلق عقولا تتذوق بلاغة القرآن، ونفوسا فيها طهر القرآن، وتلاميذ مصلحين يكونون جند القرآن".(3)

---

(1) – ديوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص: 215.

(2) – ديوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، ج4،ص: 141.

(3) – ديوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج2،ص: 30

وهناك شخصيات أخرى كان لها تأثير في حياة الشيخ بيوض الفكرية والإجتماعية، مثل عبد الرحمان الكواكبي من خلال كتابيه " أم القرى" و "طبائع الإستبداد"، والشيخ مصطفى الغلابيني بكتبه الإجتماعية المفيدة، والشيخ طنطاوي جوهري بكتابه : نهضة الأمة وحياتها، والأمير شكيب أرسلان بمقالاته في الصحف، وكتابيه " لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم"، و"حاضر العالم الإسلامي.(1)

خامسا: مذهبه العقدي والفقهي :

كان المذهب الذي التزمه الشيخ بيوض في حياته هو المذهب الإباضي، وذلك بحكم نشأته في منطقة وادي ميزاب التي ساد فيها هذا المذهب منذ قرون، وبحكم دراسته في معاهد كانت تلقن العقيدة والفقه على هذا المذهب.

ومؤسس المذهب الإباضي هو الإمام جابر بن زيد(2) لكن المذهب نسب إلى تلميذه عبد الله بن إباض.(3)

وللمذهب الإباضي مصادر في التشريع، وأصول في العقيدة، وأصول في السياسة.

أما مصادره في التشريع فهي نفس المصادر التي يعتمدها غيره من المذاهب الإسلامية من كتاب وسنة وإجماع وقياس واستدلال يشمل: الاستصحاب والإستحسان والمصالح المرسلة.(4)

---

(1) – دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، ج2ص:31 - 32.

(2)– ولد بين 18 و 22 للهجرة في مدينة الفرق العمانية، أخذ العلم عن الصحابة رضي الله عنهم في البصرة والكوفة والمدينة ومكة. أعوشت، وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص: 51 - 52.

(3) – ولد في زمن معاوية بن سفيان (40 60هـ)، أما وفاته فقد كانت في أواخر أيام عبد الملك بن مروان المتوفي سنة 86هـ. المرجع السابق، ص: 59. عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية ، جمعية التراث، القرارة، الجزائر،[دتا]، ص: 34.

(4) – علي يحي معمر، الإباضية، ط ؟، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1985م، ص: 60.

أما أصوله في العقيدة فيمكن التعرف عليها من خلال تتبع آراء علماء المذهب في بعض المسائل العقدية، ويمكن أن نلخصها في النقاط التالية:

- الصفات الإلهية : يرى الإباضية أن الصفات هي عين الذات ويرفضون أي نوع من أنواع الفصل بين صفات الله وذاته.

- رؤية الله عز وجل : يجزم الإباضية بإمتناع رؤية الله في الدنيا والآخرة.

- الوعد والوعيد : يرون أن الله عادل كل العدل في وعده ووعيده، لذلك فهم يذهبون إلى أن الكافرين والمنافقين وفجار المسلمين الذين ارتكبوا الكبائر، ثم لم يتوبوا توبة نصوحا مخلّدون في النار، أما المؤمنون فهم في الجنة.

- الشفاعة : يرون أن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لاتكون لمن مات مصرا على كبيرة، وإنما تكون لعامة المسلمين، لتخفيف الحساب عنهم، والتعجيل بدخولهم الجنة.

- خلق القرآن : يرون أن القرآن مخلوق، محدث، إلا ماقام الدليل على قدم معناه فقط، كلفظ الجلالة والرحمن الرحيم.

- لامنزلة بين المنزلتين : فلا منزلة عندهم بين الإيمان والكفر، أما المنافق فهو بين الإيمان والشرك، أما المسلم الذي ضيّع الفرائض وارتكب الكبائر فيطلقون عليه الموحد العاصي، وأنه كافر نعمة، ولايخرجونه من دائرة الإسلام، ولايستحلّون دمه.

- الولاية والبراءة : فالإباضية يقولون بولاية الأشخاص والبراءة منهم على خلاف المذاهب الإسلامية الأخرى.

والمقصود بالولاية الحب والمناصرة للمسلم المطيع، والمقصود بالبراءة هجرة من جاهر بالبغى والعدوان أو ارتكب كبائر جهرا وأصرّ عليها، وهي تنطبق على الكافرين جملة وعصاة المسلمين الذين خرجوا عن الإسلام، فإذا تابوا فإن حقوقهم كمسلمين تعود إليهم.

واستطاع الإباضية أن يحفظوا بهذا الأصل مجتمعهم من كثير من الآفات الإجتماعية.(1)

أما أصولهم السياسية فنذكر منها الأصول التالية :

- عقد الإمامة فريضة بفرض الله الأمر والنهى.

---

(1) - أعوشت ، وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص: 74 - 87.

- الخلافة لاتقتصر على قريش أو العرب، وإنما تراعي فيها الكفاءة، فإن تساوت الكفايات كانت القرشية أو العروبة مرجّحا.

- لايحلّ الخروج على الإمام العادل.

- الخروج على الإمام الجائر جائز إذا غلب على الظن نجاحه، ويستحسن البقاء تحت حكمه إذا غلب على الظن عدم نجاح الخروج أو خيف أن يؤدي إلى مضرة تلحق المسلمين أو تضعف قوتهم أمام أعدائهم.

- الإمام يختار عن طريق الشورى، وباتفاق أغلبية أهل الحل والعقد.

- يجوز تعدّد الإمامات في الأمة إذا اتسعت رقعتها، وبعدت أطراف البلاد منها.(1)

سادسا : أعماله وآثاره :

لقد حدّد الشيخ بيوض الوظيفة التي ينبغي أن يُسخّر لها كل إمكاناته، ولم ينصرف عنها قيد أنملة، وقد حاول بعض التجار الميزابيين في مدينة العلمة أن يدخلوه ميدان التجارة، فأقترحوا عليه أن يجهّزوا له محلا، فرفض إقتراحهم، وقال : "لم أخلق لهذا، إنني لاأخرج من ميدان العلم، إن مسؤولية البلد قد وقعت علي".(2)

وقد بدأ الشيخ بيوض التعليم في معهد شيخه الحاج عمر بن يحي، وعمره لايتجاوز السبع عشرة سنة، وبقي مدرّسا في هذا المعهد إلى سنة 1925م، حيث فتح معهده الخاص الذي سمّاه معهد "الشباب"،ثم سمي بعد ذلك "معهد الحياة"، فتولى التدريس فيه، فأقبل إليه الطلبة من كل حدب وصوب لما سمعوا عن طرقه المشوّقة في التدريس وتمكنه العلمي.(3)

ولم ينقطع عن التدريس في هذا المعهد حتى عام 1947، حيث دخل ميدان العمل

---

(1) - معمر، الإباضية، ص : 52-57

(2) - دبوز، أعلام الإصلاح ...، ج2، ص : 79 و 193.

(3) - دبوز نهضة الجزائر الحديثة...، ج2، ص : 106.

السياسي، وتفرغ للعمل الإصلاحي العام، وترك الإشراف على المعهد لتلاميذه الكبار، وعلى رأسهم الشيخ عدون سعيد شريفي.(1)

وقد أنشأ هؤلاء التلاميذ تحت إشراف الشيخ بيوض جمعية قدماء التلاميذ لتشرف على سير معهد الحياة، وعلى المدارس الميزابية الحرة في الجنوب والشمال.

وقد لعب الشيخ بيوض دورا كبيرا في المحافظة على هذه المدارس الحرة، فكان يداري الفرنسيين بشتى الأساليب ليدفع أذاهم عنها،(2) وكذلك فعل مع المعارضين لتيار الاصلاح بعد الاستقلال .

وكان للشيخ بيوض وإخوانه في الإصلاح طموح في إنشاء كلية للعلوم العربية والدينية، واستقدام الشيخ البشير الإبراهيمي للتدريس بها، لكن هذا المطمح لم يتحقق.(3)

وفي سنة 1922م أصبح الشيخ بيوض عضوا في مجلس العزابة، وهو الهيئة العليا المشرفة على الأمور الدينية والإجتماعية في القرارة، ثم عيّن للتدريس والوعظ بالمسجد لكفاءته وعلمه،(4) فكان يلقي دروسا يومية في المسجد يهدف من ورائها إلى تحويل المسجد إلى جامعة شعبية تنشر الوعي في أوساط الجماهير، فدرّس كتبا كثيرة، أهمها كتاب "قناطر الخيرات" للشيخ إسماعيل الجيطالي، وهو كتاب في الأخلاق، درّسه الشيخ بيوض في أربع عشرة سنة من عام 1923م إلى عام 1938م (5)، كما شرح كتاب "صحيح البخاري" معتمدا على كتاب فتح الباري لإبن حجر العسقلاني، وذلك بين عام 1931م وعام1945 (6)

واشتهر درس الشيخ بيوض في تفسير القرآن، الذي يعتبره من أهم أعماله التي قام بها،

---

(1) – إبراهيم بيوض : أعمالي في الثورة ، ص:39.

(2) – محمد علي دبوز : أعلام الاصلاح في الجزائر، ط1 ، دار البعث، قسنطينة، 1982، ج5 ص:30.

(3) – إبراهيم بيوض : أعمالي في الثورة، ص:14.

(4) – دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3،ص:114.

(5) – المصدر نفسه ، ج2ص:186.

(6) – محمد ناصر ، في رحاب القرآن: الإمام الشيخ إبراهيم بيوض، ط؟، جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 1989،ص:77

واستمر درسه هذا أكثر من خمس وأربعين سنة، حيث بدأه عام 1935م وختمه عام 1980م.(1) وللأسف أنه لم يسجل من تفسيره إلا النصف الأخير منه.

ولم ينحصر عمل الشيخ بيوض في القرارة وحدها، بل كان يتنقل بين مدن ميزاب ومدن الشمال لنشر الوعي، وتوسيع دائرة العمل الإصلاحي، فكان يدعو إلى الإخلاص في العمل، وإلى توحيد الجهود، لأنه -كما يؤكد- "اننا لاننال شيئا من حقوقنا، ولانحترم ولانهاب من أي كان إلا بإجتماعنا".(2)

وحتى تتسع دائرة الوعي أكثر ويبلغ صوت المصلحين مدى أوسع، حث الشيخ بيوض على إنشاء صحافة إصلاحية، وآزر الشيخ أبا اليقظان في عمله الصحفي بالمال والجهد، وكتب مقالات عديدة في صحفه.(3)

ولأن حركة الإصلاح لايمكن أن تنجح في الوصول الى أهدافها بالتركيز على الجانب التعليمي التربوي وحده -كما كان يدرك الشيخ بيوض- فقد دعا في أول درس له بمسجد القرارة سنة 1924م إلى تولى الوظائف في إدارات الإحتلال، وإلى إنشاء الشركات التجارية والصناعية، وشركات النقل.(4)

ولما أنشئت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م، شارك في وضع قانونها الأساسي، وعين أمينا لصندوق مالها.(5)

ووجد من الضروري أن يدخل الميدان السياسي، فرشح نفسه كنائب عن منطقة ميزاب في المجلس الجزائري عام 1948م، وقد أبلى بنيابته البلاء الحسن، وقدم خدمات كبيرة لحركة الإصلاح والمجتمع، ولعب دورا كبيرا في إبطال مؤامرات الإحتلال لفصل الصحراء عن الشمال.(6)

---

(1) - ابراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة ،ص: 14 - 15.

(2) - دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3،ص:115.

(3) - محمد علي دبوز، أعلام الأصلاح في الجزائر،ج5،ص:60 - 70.

(4) - المصدر نفسه ، ج5،ص:69.

(5) - الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب،ص:228.

(6) - إبراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ص:60 - 66.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وللحد من نشاط الشيخ بيوض وتأثيره فرضت عليه سلطات الإحتلال إقامة جبرية مدة ثلاث سنوات وخمسة أشهر، من عام 1940م إلى عام 1944م، لايخرج فيها من القرارة.(1) وتعرض إلى خمس محاولات إغتيال بتحريض من قبل المعارضين لحركته الإصلاحية، كانت المحاولة الأولى سنة 1938م، والمحاولة الأخيرة سنة 1946م في مدينة غرداية.(2)

وعندما اندلعت ثورة نوفمبر شارك فيها بالتموين، وتجنيد تلاميذه، ورفض أن يخرج من الجزائر إلى تونس سنة 1957م لما طلب منه بعض تلاميذه ذلك خوفا عليه من بطش جيش الإحتلال، لأنه كان يرى أن بقاءه ضروري لاستمرار العمل الثوري والتعليمي في منطقة ميزاب، قال الشيخ بيوض -ردا على تلاميذه- : "أنا أرى أني قائم بأعمال مفيدة جدا للجزائر في حقل الثورة وحقل العلم- ولامسوّغ للهروب مطلقا، ثم إني أعتقد أنني إذا خرجت من الجزائر فلن تُبقي -والله- فرنسا على مدرسة من مدارسنا في ميزاب وفي التل ولا المعهد فقدّروا هذه الخسارة الكبرى".(3)

واعترافا بالجهود التي بذلها في حقل التعليم والثورة، عيّن غداة الإستقلال مسؤولا عن مندوبية الشؤون الثقافية في الهيئة التنفيذية المؤقتة من مارس إلى سبتمبر 1962م.(4)

وفي سنة 1963م تمكن من بعث نشاط "مجلس عمي سعيد" الهيئة العليا لعزابة مساجد وادي ميزاب، وانتخب رئيسا له إلى يوم وفاته.(5)

واستمر الشيخ بيوض في جهاده الإصلاحي بعد الإستقلال، وتعرض لمضايقات من قبل المعارضين لحركة الإصلاح، فأدخل السجن لمدة ثمانين يوما، وأممت أملاكه.(6)

واستطاع في عام 1970م إحياء فريضة الجمعة في منطقة ميزاب، بعد أن تركت إثنان

---

(1) - دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر ،ج4،ص:63.

(2) - المصدر نفسه ، ج4،ص:291.

(3) - ابراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ص:41.

(4) - الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ص:229.

(5) - ابراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ص:17.

(6) - الحاج سعيد ، تاريخ بني مزاب، ص:229.

الإحتلال الفرنسي، وعدّ الشيخ أحمد حماني هذا العمل من أعظم أعمال الشيخ بيوض حين قال في كلمة ألقاها بالنيابة عن وزارة الشؤون الدينية في تأبين الشيخ بيوض: "فلو لم تكن لهذا الرجل إلا منقبتان، لكفاه أن نشهد له بالخير ونزكيه، يوم قال لفرنسا التي أرادت أن تفصل الصحراء عن الجزائر، لا، الصحراء قطعة من الجزائر، وسكان الصحراء جزء من سكان الجزائر، والثانية، هو إحياء صلاة الجمعة لتكون صلاة الجمعة قائمة في ميزاب كما تقام في كل القطر".(1)

وفي السبعينات أعتمدت وزارة الشؤون الدينية فتواه في جواز العمل بالحساب الفلكي في إثبات المواسم الدينية، وكذا فتواه في إعتبار ميقات الحجاج بالطائرة المطار الذي ينزلون فيه بالحجاز.(2)

وللشيخ بيوض ميزة، لم تعط لكثير ممن سبقوه أو عاصروه، فقد مدّ الله في عمره حتى رأى ثمار جهوده في باب التعليم والإصلاح عامة، فاستمر يوجّه ويشرف على المؤسسات التي أقامها، ويفيد تلاميذه بتجاربه، إلى أن وافته المنية يوم الأربعاء 8 ربيع الأول 1401هـ، الموافق لـ 14 جانفي 1981م، عن عمر يناهز ثلاثا وثمانين (83) سنة.

والمتتبع لحياة الشيخ بيوض يلحظ أنه لم يخلف لنا مؤلفات، لأن جهده كان مركزا في تكوين قيادات للعمل الإصلاحي، ونشر الوعي في أوساط الجماهير، لكنه مع ذلك ترك لنا تراثا فكريا جديرا بالدراسة والتحليل، يتمثل في:

- تفسير للقرآن مسجل على الأشرطة، بداية من سورة الإسراء إلى سورة الناس، وقد قام أحد تلاميذه -وهو الأستاذ عيسى بن محمد الشيخ بالحاج- بنقله من الأشرطة تحضيرا لطبعه، وقد طبع الجزء الأول منه في عمان هذه السنة (1993)، ويحتوي على تفسير الجزء المسجل من سورة الإسراء، بدءا من قوله تعالى :﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البروالبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾.[الإسراء70]،

---

(1) - محمد ناصر ، في رحاب القرآن: الإمام الشيخ إبراهيم بيوض، ص:109.

(2) - إبراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ص:17.

وكان قد طبع سنة (1980) تفسيره لسورة النور.

- مئات الأشرطة المسموعة لدروس في مناسبات دينية واجتماعية وسياسية، وقد حررت بعض هذه الدروس ونشرت في كتب، كالدروس التي تحدث فيها عن المجتمع الميزابي ومزاياه، فقد جمعها الأستاذ محمد ناصر بوحجام في كتاب تحت عنوان "المجتمع المسجدي"، ودروس أخرى جمعها الشيخ سعيد كعباش في كتاب بعنوان "حديث الشيخ الإمام".

- مقالات عديدة كتبها الشيخ بيوض في مواضيع مختلفة في صحف أبي اليقظان، وفي مجلة الشباب لمعهد الحياة ، ومجلة الفكر الإسلامي.

- فتاوى الشيخ بيوض، وهي عبارة عن إجابات عن الأسئلة كانت ترد إليه، فكان كاتب الشيخ يكتب الفتوى ويحتفظ بنسخة منها، وقد جمع هذه الفتاوى الشيخ بكير محمد الشيخ بالحاج في كتاب من جزأين.

- مذكرات للشيخ بيوض تحدث فيها عن أعماله في الثورة التحريرية وطبعت في كتاب بعنوان "أعمالي في الثورة".

- خطب الشيخ ودروسه التي كان يلقيها في زياراته لمدن ميزاب، وقد قيدها ساعده الأيمن الشيخ سعيد شريفي، ونشرها الأستاذ محمد علي دبوز في كتابيه "أعلام الاصلاح في الجزائر" و"نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة".

ومن ثمار عمله في مجال التربية والتعليم -كما يؤكد الأستاذ محمد ناصر-: "أجيال من الرجال على رأسهم خلفه رائد النهضة الإصلاحية حاليا شريفي سعيد (الشيخ عدون)، وأضرابه من مئات المشايخ، والأساتذة، والدكاترة، وكبار الموظفين من مختلف المستويات في مصالح الدولة الجزائرية، من إدارة وحزب، وجيش، وتعليم بجميع مراحله".(1)

وكذلك من ثمرات جهوده في ميدان التعليم، إنشاء عشرات المدارس للتعليم الديني في الجزائر وخارجها.(2)

---

(1) - إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص:17.

(2) - المصدر نفسه، ص: 17.

2)- معالم شخصيته :

لقد أكسبت الأحداث التي مرّت بالشيخ بيوض، والظروف التي أحاطت به منذ مراحل تكوينه الأولى، والثقافة التي تلقاها، صفات ومؤهلات ميزته عن غيره، سواء في الجانب الفكري، أو في الجانب النفسي، أوفي الجانب السلوكي الحركي، ممّا أهّله لقيادة الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري، ولعب دوْر كبير في تاريخ الجزائر أيام الإحتلال الفرنسي وبعد الإستقلال.

ونركز فيما يلي على بعض الصفات التي نرى أن لها علاقة مباشرة بعمله الإصلاحي.

أولا : ثقة كبيرة بالله سبحانه :

فقد كانت نفسية الشيخ بيوض عامرة بالثقة بالله، وبتأييده ونصره، الأمر الذي مكّنه من السير حثيثا في سبيل الإصلاح، رغم العوائق الكثيرة التي اعترضت طريقه.

ويشهد على رسوخ هذه الصفة في شخصيته مواقف عملية كثيرة في حياته، منها مايرويه الأستاذ محمد علي دبوز أنه في سنة 1961م أراد الشيخ سليمان بن الحاج داود أن يسافر إلى العاصمة في مهمّة من مهام الثورة، فتهيّب بسبب مراقبة جيش الإحتلال لكل المسالك المؤدية إلى العاصمة، فشكا الأمر إلى الشيخ بيوض فقال: "إن الطرق كلها مخوفة، ولا أدري أيها أسلك ؟، فقال له الشيخ بيوض على الفور وفي هدوء: "أسلك الطريق التي فيها الله".(1)

ولما سأله تلميذه محمد علي دبوز -وكان الشيخ قد حدّثه عن المشاريع التي قامت بها حركة الإصلاح، والمشاريع التي تنوي إنجازها في المستقبل- "من أين لكم الأموال الطائلة التي بنيتم بها وتبنون ؟" فأجابه بقوله: "من خزائن الله التي لاتنفد، نقدم على العمل فنثقل كواهلنا بالديون، فيقضيها الله، ثم نثقلها فنجد الله كما نريد يقضي كل الديون، لانترك

(1) - دبوز ، أعلام الأصلاح في الجزائر ، ج2،ص:82.

عادتنا، ولايترك الله ما عودنا ، مادمنا مخلصين، نعمل لوجهه الكريم" (1).

وقد أورثته هذه الثقة بالله يقينا بأن حركة الإصلاح لابد منتصرة في صراعها ضد الفساد والمفسدين، فالأمر عنده لايحتمل الشك، يقول الشيخ بيوض – مؤكدا ذلك : "من شكّ في انتصار المصلحين فقد كذّب القرآن، قال الله في كتابه العزيز: ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم، ويثبّت أقدامكم** ﴾ [محمد:7]، وقال :﴿ **ولينصرنّ الله من ينصره، إنّ الله لقويّ عزيز** ﴾ [الحج:40]". (2)

بشرط أن يتوفر في المصلحين الصبر والعمل الدؤوب، فعند ذلك - كما يؤكد - "نبذل واحدا ويعطينا الله عشرة وأضعافها ﴿ **إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [الزمر:10]، وليس هذا الأجر في الآخرة وحدها كما يظن الكثيرون، فالصابرون يؤجرون على أعمالهم في الدنيا بالنتائج الحسنة بغير حساب، ويؤجرون عليها في الآخرة بالحسنات بغير حساب". (3)

ولم يضعف هذا اليقين في نفسه رغم الظروف الصعبة التي مرّت بها حركة الإصلاح بعد الإستقلال، فقد سأله أوروبي أسلم عام 1980م فقال : "هل لك أمل في رجوع الإسلام إلى قوته، وعودة الشباب الإسلامي إلى الإسلام ؟"، فأجابه قائلا : "ليس هذا عندي أملا، وإنما هو عندي تحقيق". (4)

كما أكسبته ثقته بالله، ثقة بنفسه، واعتدادا برأيه، فكانت له آراء خالف فيها غيره من العلماء والمصلحين، وكان البعض يلومه على ذلك بقولهم: "إنك وحدك تنفرد بهذا الرأي" فيرد عليهم بكل ثقة : "ومتى استوحشت من الوحدة ؟! "، وربما وصل الأمر ببعضهم أن يقولوا له من باب الإستخفاف والإستهزاء" إنك تحسب نفسك ملك هذه الربوع"، فيكون جوابه؟ "ولم لا"؟!". (5)

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2،ص:82 – 83.

(2) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 128.

(3) – المصدر نفسه ، ج4، ص : 128.

(4) – محمد ناصر ، في رحاب القرآن، الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، ص : 26.

(5) – المصدر نفسه ،ص: 123.

ثانيا : شغف بالعلم، وحرية في الفكر :

كان الشيخ بيوض عصاميا في تكوينه، لكنه نال من العلم مالم ينل غيره من الطلبة الذين خرجوا إلى تونس وغيرها من البلدان العربية في بعثات علمية، وترجع هذه السعة في العلم إلى شغفه بالمطالعة، فهو يقول عن نفسه : "إنني مغرم بالقراءة، أجد فيها نشوتي الكبرى"،(1) وإلى التدريس الذي كان عملا يوميا ومستمرا في حياته سواء في المعهد أو في المسجد، وكان الشيخ بيوض يجد فيه نشوة أكبر.(2)

ثم إن قراءات الشيخ بيوض لم تنحصر في إطار كتب المذهب الإباضي وعلمائه، بل كان يقرأ لكل العلماء بغض النظر عن مذاهبهم ونحلهم، القدامى منهم والمحدثين، فكان يقرأ للشيخ محمد عبده، كما يقرأ للشيخ أطفيش، يدلّك على ذلك تدريسه لكتاب "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده، بعد أن أعجب بمنهجه في طرح مباحث العقيدة، وتدريسه لكتاب "فتح الباري شرح صحيح البخاري" في أربعة عشر عاما، ليعطي بذلك الدليل العملي لكل الذين لاتتجاوز مطالعاتهم و دروسهم الكتب المذهبية.(3)

وقد فوّت الشيخ بيوض -بهذه الميزة التي تميّز بها- على الإحتلال فرصا كثيرة حاول فيها استغلال الخلافات المذهبية بين الإباضية والمالكية للتفريق بين أفراد الشعب الجزائري، فكان الشيخ بيوض -كما يشهد له السيد ابن يوسف بن خدة- : "يسعى دائما لتوحيد الشعب الجزائري في توجيهاته التربوية أو في دروسه العامة، لم يألُ جهدا في دعوة الإخوة الإباضيين إلى الإلتحام ببقية أفراد الأمة، بمثل ترغيبهم في آداء صلاة الجماعة في المساجد المالكية بمختلف المدن والأحياء، [...]، الشيء الذي لم يكن موجودا قبل عهده".(4)

---

(1) – دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج2،ص:196.

(2) – المصدر نفسه، ج2،ص:196.

(3) – محمد ناصر ، في رحاب القرآن: الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، ص:7.

(4) – إبراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ملحق وثائق تاريخية، ص: دون رقم.

ثالثا : شعور بالمسؤولية :

لم يكن الشيخ بيوض من العلماء الذين يكتفون بالعيش في أحضان الكتب والمجلات، بل كان يستشعر أنّ على العالم مسؤولية ضخمة تجاه مجتمعه، يصفه أحد تلاميذه هذا الشعور في حياة شيخه فيقول : "كان إصلاح مجتمعه هوما يملأ نفسه، ويشغل خاطره، وهو حريص عليه، يراه فرضا من الله".(1)

وكان هذا الشعور بالمسؤولية يدفعه للقيام بواجباته في ميدان التعليم والإصلاح دون إنتظار المقابل، يقوم بذلك بشكل تلقائي لا تكلّف فيه كما يروي هو عن نفسه حين يقول : "لقد كنت في فجر حياتي العملية أقوم بواجبي في المدرسة خير قيام، مواظبة على الوقت ومحافظة على النظام، وحسن إعتناء بالدرس، ثم أخرج إلى ميدان السوق والعشيرة، والميادين العامة، والمشاكل الخاصة، فأفض الخلافات، وأحلّ المشاكل، وأصلح بين المتخاصمين، وأواسي كلّ ذي حاجة، مدفوعا بعاطفة حبّ الخير للناس، وعاطفة الشفقة والرحمة التي أحسّ بها في نفسي قوية إلى حد لا أستطيع أن أقول معها (لا) لمستغيث أو مستعين أو مستنجد في كل ما أستطيعه، وكأنني أقوم بهذه الأعمال بطريقة آلية ومطردة الحركة، لاأشعر بكلفة ولامشقة، وإنما عليّ أن أعمل بياض يومي، وسواد ليلي حتى آوى إلى فراشي وكفى، لا أسال عن عمل أجرا، ولم تخطر ببالي سيادة ولارئاسة ولازعامة".(2)

وكم لامه رفاقه وتلاميذه على إرهاقه نفسه بالسهر، والسفر، وبالنظر في مشكلات مجتمعه، فكان يردّ عليهم بقوله : "وما عساني أصنع، والشعور بالواجب قد تملكني، وأخذ علي أقطار نفسي، ألا ليتني لم أشعر، كلا بل من نعمة الله علي وعلى الناس أن أشعر".(3)

---

(1) محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:11.

(2) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1969، ج3،ص 207

(3) محمد ناصر، في رحاب القرآن، الإمام الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض، ص: 125.

رابعا : شجاعة في قول الحق :

إنّ الشيخ بيوض قد رمي من قبل منافسيه ومعارضيه بالجبن والتخاذل، والنفاق، بسبب مداوراته مع الإستعمار التي لم يفهموها، بل اتهم من قبل البعض بالعمالة للاستعمار، لكن الدارس لحياته ولمواقفه دراسة موضوعية، سيلحظ أنه مامن موقف كان يتطلب منه كلمة حق إلا صدع بها دونما خوف أو محاباة، إذا رأى أنها ستحدث مفعولها، وتحقق من المصالح أكثر مما تحدثه من المفاسد، حتى مع أقرب الناس إليه.

فقد أقام خاله حاكم القرارة -عرسا لابنه ودعا إليه العزابة فلبوا الدعوة، فأنكر عليهم الشيخ بيوض ذلك، بسبب مافي العرس من منكرات، وبسبب مواقف هذا الحاكم في صف الإستعمار وقال لهم : "كنتم تجيبون مؤذن الرحمن، فنزلتم لتجيبوا مؤذن الشيطان".(1)

ولما كان نائبا في المجلس الجزائري، كان دوما يرفع صوته بكلمة الحق، دفاعا عن حقوق شعبه المهضومة، قال زميله في المجلس الأستاذ العربي دماغ العتروس : "وكثيرا ما أخرجنا [هو والشيخ] بقوة السلاح من المجلس، لأننا نرفع ونحرك لساننا بالحق".(2)

وقد أورثته هذه الصفة، مقتا للجبناء والمنافقين، فكان يحذّر تلاميذه منهم ومن صفاتهم، فيقول لهم : "إياكم وأخلاق الأرذلين، فما عاق سير المصلحين في الأرض غير التواءاتهم وتقولاتهم".(3) وكان كلّما سمع قول الشاعر مفدي زكريا :

إن الجبان على البلاد مصيبة عظمت فيا أرض ابلعي الجبناء

إلاّ قال "لافضّ الله فوك يامفدي، لعلّ الله يغفر لك من أجل هذا البيت الخالد خلود الشجعان".(4)

لقد كانت شخصية الشيخ بيوض شخصية فذّة، كسبت الكثير من الصفات التي تميزت بها نتيجة لتفاعلها مع الواقع الذي عاشت فيه، فكسبت البعد الايماني والأخلاقي من صلتها الدائمة بالقرآن الكريم، ومن دروس الأخلاق التي كانت تلقى في معهد الشيخ الإبريكي،

---

(1) - بيوض ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج2،ص: 181.

(2) محمد ناصر ، في رحاب القرآن : الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض،ص:132.

(3) المصدر نفسه، ص: 125.

(4) - المصدر نفسه ،ص: 124.

وكسبت البعد الإجتماعي من الإحتكاك المباشر بالمجتمع ومشكلاته، ورسّخ سمة الإصلاح فيها الجلسات التي كان يعقدها المصلحون، ونمّى الحنكة السياسية فيها إتصالها المباشر ببعض الشخصيات التي عرفت بدهائها السياسي من أمثال الأستاذ بكير العنق، والمتابعة المستمرة لأحوال العالم الإسلامي والإنساني عبرالجرائد والمجلات، فأهّلها كل ذلك إلى أن تتبوأ مركز قيادة الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري، وتسهم في السير بهذه الحركة خطوات إلى الأمام، في المجال التعليمي التربوي وفي المجال الإجتماعي السياسي، كما سنلمس ذلك من خلال دارستنا هذه .

وقبل ذلك تتعرف على نظرة الشيخ بيوض إلى واقع المجتمع الجزائري، والموقف الذي أتخذه منه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

II موقف الشيخ بيوض من واقع المجتمع الجزائري :

إن منهج الإصلاح في أيّ حركة تهدف إلى تغيير واقع معين أو إصلاحه، يتحدّد نتيجة لفهم الواقع المراد تغييره، بمعرفة مواطن الخلل فيه، ومواطن الصحة.

وكلّما كان هذا الفهم مبنيا على أسس من الموضوعية والدقة والوضوح، كلما كانت الحركة أكثر نجاحا في محاولاتها الإصلاحية أو التغييرية، ومثلها في ذلك مثل الطبيب الذي لايمكن أن ينجح في معالجة المريض إلا بعد القيام بتشخيص دقيق لحالته المرضية بمعرفة أعراضها وأسبابها.

وعند دراستنا لحركة الشيخ بيوض الإصلاحية سوف نلحظ أنه درس الواقع الجزائري دراسة معمّقة، مكّنته من معرفة مظاهر الفساد والخلل فيه وأسبابها، وأعانته في بلورة رؤاه الإصلاحية، وتحديد منهج حركته الإصلاحية.

ويمكننا التعّرف على الموقف الذي وقفه الشيخ بيوض من واقع المجتمع الجزائري بالرجوع إلى ماتركه من آثار سواء كانت دروسه العامة أو دروسه في التفسير أو مقالاته في الصحافة أو فتاواه أو الحوارات التي أجراها معه تلميذه الأستاذ محمد علي دبوز في كتابيه "أعلام الإصلاح في الجزائر" و"نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة"، وكذا من خلال متابعتنا لمسيرة حياته بأطوارها المختلفة.

وسنلاحظ من خلال هذا كلّه أن الشيخ بيوض حاول فهم واقع مجتمعه بمكوّناته وعناصره المختلفة من خلال عدة أطر ولم يكتف بإطار واحد.

كما سنلاحظ أنه استند في فهمه لهذا الواقع إلى ثقافة مرجعية استقى منها المعايير التي اعتمدها في الحكم على بعض مظاهره بالفساد، وعلى بعضها الآخر بالصلاح.

وينبغي قبل الحديث عن هذه الأطر، وعن هذه الثقافة المرجعية أن نؤكد أنّ الشيخ بيوض عاصر مرحلتين متمايزتين مرّ بهما المجتمع الجزائري: المرحلة الأولى وهي التي كان هذا المجتمع فيها تحت سلطة الإحتلال الفرنسي، أما المرحلة الثانية فهي التي استعاد فيها سيادته الوطنية.

1) - أطرفهم الواقع :

إن فهم واقع مجتمع معين ليس عملية سهلة، تتأسّس على "المروي من الأخبار"، أو على مجرّد الملاحظات العابرة لبعض المظاهر الجزئية في ذلك الواقع.

بل يحتاج الأمر إلى اعتماد عدّة أطر تعين على رؤية ذلك الواقع من زوايا مختلفة.

ومن خلال متابعتنا لمسيرة الشيخ بيوض بمراحلها المختلفة نلاحظ أنه لم يكتف بإطار واحد في نظره لواقع مجتمعه، بل استغل عدّة أطر ليكون فهمه أشمل، ويأخذ صورة عنه من كل الوجوه.

أولا : استيعابه لثقافة مجتمعه :

وهذا أول إطار أعان الشيخ بيوض على فهم واقع مجتمعه فهما صحيحا، والنظر إلى مشكلاته نظرة سليمة، فقد تعرّف الشيخ بيوض على الثقافة التي توجّه أفكار الناس في مجتمعه، وبالتالي تؤطّر سلوكاتهم في شتى مجالات حياتهم، وذلك من خلال مؤسسات المجتمع المختلفة: الأسرة، الكتّاب، المدرسة، المعهد.

فوظيفة هذه المؤسسات هي : "نقل تراث الجماعة على ممرّ العصور إلى الأجيال الصاعدة، بقصد تنشئتهم تنشئة إجتماعية"،(1) والمدرسة كمؤسسة من هذه المؤسسات هي التي "تحافظ على التراث عندما تعمل على نقله من جيل إلى جيل، ولولاها لضاع هذا التراث".(2)

فالشيخ بيوض لم يدرس في المدرسة الفرنسية التي تؤطّر عقل التلميذ بثقافة غير ثقافة مجتمعه، فيعجز نتيجة لذلك عن فهم مجتمعه ومشكلاته فهما صحيحا، ويصبح الانسان الأمي البسيط في فكره أو "رجل الشعب"، كما يسميه الأستاذ مالك بن نبي، أقدر منه على

---

(1) - تركي رابح ، أصول التربية والتعليم، ط2، الجزائر، م.و.ك، 1990، ص . 176

(2) - المصدر نفسه ،ص: 176

فهم الواقع الإجتماعي، لأنّ رجل الشعب، "طليق النظر لايحدّ بصره منهج معين"، بينما ينظر هذا المثقف المتأثر بالثقافة الفرنسية إلى مجتمعه "من خلال منهج معيّن يضع على بصره "شوّافات" كتلك التي توضع على عيني البغال والحمير، كي لاترى ماهو خارج عن طريقها".(1)

ويعتبر هذا أحد العوامل التي جعلت الحركة الإصلاحية أقرب إلى فهم واقع مجتمعها من الحركات الأخرى التي قادتها نخب مثقفة بثقافة غير ثقافة مجتمعها.(2)

ثانيا : احتكاكه المباشر بالمجتمع :

لقد تبين لنا من خلال ماعرضناه في المبحث الأول في إطار حديثنا عن شخصية الشيخ بيوض، أنه كان على اتصال مباشر بواقع مجتمعه بشتى فئاته وطبقاته، ولم يكن من أولئك الذين يزعمون أنّهم مصلحون، لكنّهم يكتفون في فهم واقع مجتمعهم "بالإعتماد على المروي من الأخبار أكثر من الإعتماد على المعايشة الواعية، والإحتكاك المباشر بالأوضاع الواقعية".(3)

فقد كان الشيخ بيوض ينزل إلى المواطن التي تعطيه صورة عن مجتمعه وهو في حركته اليومية، كالأسواق والميادين العامة.

يقول الشيخ بيوض منبها إلى هذه الخاصية التي تميزبها : "لقد كنت في فجر حياتي العملية أقوم بواجبي في المدرسة خير قيام، مواظبة على الوقت ومحافظة على النظام، وحسن إعتناء بالدرس، ثم أخرج إلى ميدان المسجد والسوق والعشيرة والميادين العامة، والمشاكل الخاصة، فأفضّ الخلافات، وأحلّ المشاكل، [...] وأواسي كلّ ذي حاجة، مدفوعا بعاطفة حبّ الناس".(4)

---

(1) - مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، [ ] دمشق، دار الفكر، 1981، ص: 137.

(2) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصابور شاهين، [ ] دار الفكر،دمشق،1981،ص: 64-65

(3) - عبد المجيد النجار ، تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت ، ط1، [دنا]،؟ ،تونس، 1984. ص: 56.

(4) - بيوض : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3،ص: 207

بالدخول إلى المدرسة الفرنسية، دعا الشيخ بيوض الميزابيين إلى تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية، لأن فيها -كما يؤكد- : "علوم الحياة الضرورية في كل ميادين الحياة" و"فيها اللغة الفرنسية التي هي لغة الإدارات كلها في الجزائر"، ثم لأنّ "هذه الوظائف الحكومية المهمة لايتقدم إليها إلا من حصل على الشهادة الإبتدائية من المدارس الفرنسية". (1)

وكان المصلحون يرشّحون الأكفاء منهم في الإنتخابات البلدية، وكان الشيخ بيوض يشارك في الحملات الإنتخابية بخطبه وتوجيهاته، ويلزم تلاميذه بحضور هذه الحملات في القرارة. (2)

واستطاع حزب الإصلاح أن يحقق إنتصارات كبيرة في الإنتخابات البلدية، والفضل في ذلك يعود إلى القيادات التي كونها الشيخ بيوض، وأحسن توجيهها، ثم إلى النفوذ الكبير الذي كسبه في المجتمع، حيث كان له قاعدة شعبية عريضة تناصر أفكاره وزعماءه. قال الشيخ بيوض -مقررا هذه الحقيقة على مسامع تلاميذه : "لقد قضيتم في معاهد الدراسة سنوات تلقيتم فيها ما أهّلكم للكفاح في ميادين الحياة، ثم قضيتم في هذه [أي في ميادين الحياة] سنوات عرّكتكم فيها أحداث وعركتموها، سيما سنوات الحرب الأخيرة، ثم جاءت معركة الإنتخابات التي كانت للناس فتنة، كشفت معادنهم، فأشعرتكم قيمتكم، وأظهرت للناس خطركم، إن الفضل في الفوز الذي أحرزه حزب الإصلاح في الإنتخابات يرجع أكثره إلى جهود الشباب". (3)

والمؤسسة الثانية التي دعا الشيخ بيوض إلى دخولها بعد المجالس البلدية هي المجلس الجزائري، فبعد صدور القانون الأساسي للجزائر في 20 سبتمبر 1947 الذي ينص في مادته الخمسين على إزالة الحكم العسكري عن أراضي الجنوب وضمّها إلى الشمال، وعلى إنشاء المجلس الجزائري، انقسم الميزابيون إلى فريقين، فريق يدعو إلى المشاركة فيه، وفريق يرفض ذلك لأنه يعتقد أنّ ضمّ ميزاب إلى الشمال يعني القضاء على شخصية الميزابيين، (4)

وكان الشيخ بيوض يؤكد لتلاميذه في مناسبات عدّة أنه لايمكن فهم المجتمع من خلال الكتب والمجلات والجرائد وحدها، دون النزول إليه والإحتكاك بأفراده، وأن فهم المجتمع من العلوم التي لاتؤخذ إلا من الواقع المعيش، وقد قال لهم مرّة معاتبا موبّخا لأنّ أحدهم تأخر عن حضور معركة إنتخابية دارت بين المصلحين وأعدائهم، واشتغل بالمطالعة في المكتبة: "لا أرضى من تلميذي أن يقتصر على قراءة دروسه ومطالعتها بين الجدران، وهو منزو منكمش، لايعرف عن الحياة شيئا، أريد من تلاميذي أن يطبقوا معلوماتهم في المجتمع الذي يسارعون لخدمته، ويختلطون به، فيعرفونه حقّ المعرفة فيستعدّون كلّ الإستعداد لمعالجة أمراضه".(1)

ويرى الشيخ بيوض أنّ التصدي لقيادة الأمة دون هذا الإتصال المباشر بها لايؤدي إلاّ إلى الخيبة والفشل في ميدان الإصلاح، وينتقد بعض "أدعياء الثقافة" فيعيب عليهم أنّ ثقافتهم نظرية مجرّدة بعيدة عن الواقع الذي يعيشه مجتمعهم، فيقول : "يجلس كثير من الناس الذين يدّعون الثقافة تحت الجدران، لايطلّون على حوادث العالم وتقلّباته، ثم يتصدّرون لقيادة الأمة، ويزعمون أنهم يستطيعون إصلاحها، لا والله، هؤلاء حالمون ذوو نظر قصير، ونفوس ضعيفة، لايليقون للقيادة والإصلاح".(2)

وينصح الشيخ بيوض من يريدون أن يتصدّروا لمهمة الإصلاح فيؤكد على ضرورة الإحتكاك بالمجتمع بقوله : "كونوا شجعانا ذوي جسارة ومهابة، وإذا كنتم تسيرون انظروا إلى جميع الجهات، غضّوا أبصاركم عن العورات، وافتحوها على كل شيء، سيروا في الطرقات بتنبّه قوي، كلّكم أعين ترى، وآذان تسمع، هؤلاء رجال الدين والدنيا".(3)

ولما تولّى الشيخ بيوض مشيخة المسجد في القرارة، سنة 1925م، أصبح المرجع الأول للناس في حلّ مشاكلهم، فكان في العشرينات إلى آخر الأربعينات يعطي الكثير من وقته في ليله ونهاره لحلّ هذه المشاكل والخصومات، ولما رفع عنه طلبته الكبار أعباء التربية والتعليم في معهد الحياة أعطى وقته كلّه للإصلاح، فكان يقضي معظم وقته في حلّ مشاكل الناس

---

(1) - بيوض ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص 102.

(2) - المصدر نفسه، ج4،ص : 102

(3) المصدر نفسه، ج4،ص 102 103

وقضاء مصالحهم، فازداد إقبال الناس عليه فخصّص محلا خاصا لاستقبالهم فيه، وكان هذا المحل في دهليز تحت دار معهده، ولما انتقل الشيخ بمعهده إلى مسجد القرارة صارت الدار كلّها محلا لإستقبال الناس والفصل في خصوماتهم، وفي هذا المحل حلّت مئات من المشاكل، كما يشهد بذلك الأستاذ محمد علي دبوز.(1)

وقد أشفق بعض تلاميذ الشيخ عليه، فطلبوا منه أن يترك الناس يعتمدون على أنفسهم في حلّ مشاكلهم البسيطة، أو يكلّف بذلك بعض تلاميذه الأكفاء، ويتفرّغ هو لمشاكل الإصلاح الكبرى، فأبى ذلك، لأنه كان يدرك أن هذا الاهتمام بمشكلات الناس حتى البسيط منها يعتبر من مستلزمات نجاحه في عمله الاصلاحي، لأنه يمكّنه من المتابعة الدقيقة لمتغيرات حياة الناس وواقعهم المتحرك بسرعة.

وفي الخمسينات اتخذ الشيخ بيوض مكتبا خاصا في سوق القرارة،(2) لملاحظة أفراد المجتمع وهم يتعاملون في أمور دنياهم عن قرب، وليسهل عليهم الاتصال به لعرض مشكلاتهم وخصوماتهم عليه.

ثالثا : مجلس العزابة ودوره في فهم الواقع :

مما زاد الشيخ بيوض إطلاعا على واقع مجتمعه دخوله مجلس العزابة (3) عام 1922، وهو مجلس مكوّن من أعيان البلدة وعلمائها، يشرف على الحياة في البلدة بشتى جوانبها، الدينية والإجتماعية والإقتصادية على مستوى كل مدينة من مدن ميزاب.

يجتمع هذا المجلس في محل خاص به في المسجد كلّ يوم مرة، ويدخل الناس فرادى وجماعات لطرح مشكلاتهم عليه لحلّها والفصل فيها.(4)

وبحكم الصلاحيات الواسعة لهذا المجلس حيث يشرف على أمور البلدة كلّها، الصغير

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح...، ج4،ص:204.

(2) - المصدر نفسه ، ج4،ص:205.

(3) - نجد تعريفا مفصلا بهذا المجلس في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(4) - المصدر نفسه، ج4،ص:204.

منها والكبير، ويخالط أعضاؤه المجتمع في كل أحواله، في أفراحه وأتراحه، فيمكنهم ذلك من أخذ صورة صحيحة عن نفسيات أفراد مجتمعهم وهم يرقبونهم أمامهم وهم في حالة حركة يتفاعلون بها مع مايمر بهم من ظروف، لأن نفسيات الأفراد في أي مجتمع تتغير "ففي بعض الأحيان تكون نفسية الأمة في حال استرخاء وفتور نتيجة لبعض الحوادث المفاجئة، فقلما تكترث لما يوجه إليها من نداء، أو تلتفت لما يطلب إليها من عمل، وفي بعض الأحيان تضطرم مشاعر الأمة وتتحرك بقوة تستعصى على كل توقف".(1)

ويعينهم هذا الفهم الدقيق والعميق لنفسيات الأفراد على تحديد الطرائق الناجعة للإصلاح، وهؤلاء هم "الدعاة الأذكياء" كما يسميهم الشيخ محمد الغزالي الذين "يلبسون لكل حال لبوسها، فإذا لم يستطيعوا مواجهة أمر لم يعجزهم الالتفاف حوله، والإحاطة به، فلاهم الذين يقفون في مد السيل، ولاهم ينكشفون في جزره".(2)

وأعضاء هذا المجلس يكسبون قوتهم من كد يمينهم، فمنهم الفلاح والعامل والأستاذ، وهذا "يجعلهم أدخل في الحياة الإجتماعية، وأكثر احتكاكا بفئات الشعب في حياته اليومية، وهذا مايساعدهم على معرفة واقع الناس وإدراك مشاكلهم، وتحليل قضاياهم، والحكم على أراتهم ومواقفهم".(3)

ومجلس العزابة من حيث كونه آلية مهمة لمتابعة الحركة الإجتماعية مجلس متميز لاتكاد نجد له نظيرا في نظم الدولة الحديثة بأجهزتها المختلفة، حيث تفتقر هذه النظم إلى جهاز يقوم بمثل هذه المتابعة الدقيقة والمباشرة لحركة المجتمع، أما بالنسبة للحركات التغييرية التي ظهرت في العالم الإسلامي فلا نكاد نجد في تنظيماتها ما يشابه هذا التنظيم.

والى جانب مجلس "العزابة" هناك مجالس أخرى تعين العزابة على فهم الواقع الإجتماعي ومتابعته مثل المجلس العائلي والمجلس الديني للنساء وجمعية الشباب.(4)

---

(1) – محمد الغزالي، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، ط ؟، دار شهاب، باتنة، الجزائر،[دتا]،ص: 253

(2) – المرجع نفسه، ص: 253.

(3) – محمد ناصر، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، جمعية التراث، القرارة، الجزائر،1989،ص:15.

(4) – نجد تعريفا مفصلا بهذه المجالس في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

رابعا : وسائـــل الإعـــلام :

كان الشيخ يدرك أن هذا المجتمع الذي يعيش في أحضانه، ويحاول إصلاح مابه من فساد وخلل، هو جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي الذي يمتدّ من طانجا إلى جاكرتا، وأنّه يتأثر حتما بما يكون فيه من أحداث، وبالأحداث العالمية العامة.

ففي خطبة ألقاها بمناسبة انعقاد أول مؤتمر لجمعية قدماء التلاميذ عام 1948 قال الشيخ يوضح منبها أبناءه إلى هذه الحقيقة - : "أما في الميدان السياسي فإنّ التطور واقع كذلك لامحالة أي في واقع المجتمع الميزابي لأسباب منها القريب المباشر، ومنها البعيد غير المباشر، ومنها الأحداث العالمية العامة، ومنها الأحداث الأوروبية، وأقرب من ذلك مايتصل بالعالم العربي الإسلامي وأحداثه وتطوراته، ولاسيما شمال إفريقية والقطر الجزائري على الأخص، ثم مايتصل بفرنسا ونظم الحكم فيها واتجاه سياستها، أما العالم العربي أو الشرق الأدنى فإنه قبلة المسلمين في المشارق والمغارب، ولابد أن يتأثر كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي، حتى أصغر جزء منه كميزاب بالوضع الجديد".

فكان يرى لزاما عليه أن يتابع مايحدث من أحداث داخل الوطن، أوفي محيطه القريب، بل حتى البعيد منه، فكان يحرص أشدّ الحرص على حضور الندوات التي كانت تعقد في "دار الجماعة" ، حيث يجتمع المصلحون لقراءة ماجدّ من الكتب والمجلات والصحف.

وكانت هذه الندوة تتابع ماينشر في الجرائد والمجلات، منها جرائد جزائرية كجريدة "الفاروق" للصحفي الشيخ عمر بن قدور، ومجلات مصرية "كمجلة المنار" للشيخ رشيد رضا، ومجلة "الهلال"، وجرائد تونسية كـ "الصواب" ومرشد الأمة، و"لسان الشعب"، و"المنير"، و "السياسة"، و "الزهرة"، كما كانت تصلها أثناء الحرب العالمية الأولى أعداد من بعض الصحف الفرنسية التي تصدر في باريس أو في الجزائر.

وكان الشيخ بيوض يتابع مايث في وسائل الإعلام من أخبار، فكان يستمع إلى إذاعة لندن،(1) ويقرأ جريدة الأهرام.(2)

خامسا : دار الجماعـــــة :

وهي دار خاصة بمثابة نادٍ ، يجتمع فيها المصلحون لمناقشة قضايا الإصلاح، ومتابعة أمور البلدة وأهلها، وكان الشيخ بيوض يحرص على حضور جلساتها، قال الشيخ بيوض مشيرا إلى عظيم ما استفاده من هذه الدار : " كانت تناقش فيها كلّ مشاكل البلد، وتشرح فيها كلّ سياسته، فعرفت ما لم أكن أعرف من أسرار المجتمع".(3)

2) المصادر المرجعية لفهم الواقع وتقويمه :

من الواجب ونحن نتحدث عن محاولات الشيخ بيوض فهم واقع مجتمعه من خلال الأطر المتعددة، بهدف تحديد مواطن الخلل والزلل فيه، ومواطن الصحة وعوامل النهوض، أن نركّز على أمر نراه مهما وهو أن تقويم الواقع ينبغي أن ينطلق من معايير وموازين يستند إليها في الحكم على جزء من الواقع بالفساد، وعلى جزء آخر منه بالصلاح، ثم إن هذه المعايير هي التي توجّه المصلح في تحديده لأسباب الفساد، وعوامل الصلاح.

وهذه المعايير تختلف من مصلح إلى آخر، بحسب إختلاف المشارب الثقافية، فما يراه

---

(1) ابراهيم مهنا، المجتمع المسجدي، اعداد محمد ناصر بوحجام، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1989م، ص: 49

(2) المصدر نفسه، ص: 35

(3) دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص: 153.

أصحاب حركة الإصلاح فسادا، قد يراه غيرهم من قيادات الحركات الحداثية تقدمية وعصرنة.

لهذا كان من الضروري أن نحدّد من أين كان يستقي الشيخ بيوض المعايير التي اعتمدها في تقويم واقع مجتمعه والحكم عليه ؟، هل كان يستقيها من الثقافة الغربية، ومنهجها في النظر إلى شتى القضايا ؟، أم كان يستقيها من مصادر الثقافة الإسلامية ؟، وبعبارة أخرى هل كان الشيخ بيوض في تقويمه لواقع مجتمعه إصلاحيا أم حداثيا، أم جمع بين الأمرين كما يرى الأستاذ عبد القادر جغلول الذي وصف الشيخ بيوض بأنه "مناضل إصلاحي ومحدث" ؟.(1)

والإجابة عن هذا السؤال لاتتطلب منّا بذل مجهود كبير، لأنّ الثقافة التي تلقّاها الشيخ بيوض في الأسرة والكتّاب والمدرسة والمعهد كانت ثقافة إسلامية، ويتبين لنا ذلك من خلال إلقاء إطلالة خفيفة على منهج الدراسة وعلى الكتب التى كانت معتمدة في المؤسسات التي درس بها، فنجدها كتبا في علوم الشريعة كعلوم مقصودة، وعلوم اللغة التي تعتبر وسيلة للتمكّن في علوم الشريعة.

ثم إننا من خلال متابعتنا لمسيرة الشيخ بيوض الثقافية لا نجده قد أشرب مبادئ الثقافة الغربية، إلى درجة تجعله يتخذها معيارا للحكم على الأشياء بالصلاح أو بالفساد.

ويلاحظ الشيخ بيوض إختلاف النّاس في حكمهم على الأشياء فيقول : "الناس لمّا تعاشروا اختلفوا في أصول الأخلاق التي يتعاملون عليها، فرأى بعضهم غير مايرى الآخر، ولايكادون يتفقون على خلق من الأخلاق، حتى إذا اتفقوا على اسمه فإنهم لا يتفقون على مدلوله".(2)

ومن خلال متابعتنا لبعض القضايا التي تناولها الشيخ بيوض بالدراسة والنقد والتقويم، يمكننا أن نحدّد المصادر التي كان يستقى منها معاييره فيما يلي :

---

(1) – عبد القادر جغلول ، الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، ط1، دار الحداثة بيروت، 1984، ص:49.

(2) – ابراهيم بيوض ، في رحاب القرآن: تفسير سورة الإسراء، ط1، دار النهضة، عمان، 1992، ص:191.

أولا : الوحـــي

الوحي متمثلا في القرآن الكريم وماصح من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، يعتبر من أهم المصادر التي تزود الشيخ بيوض بالمعايير التي يستند إليها في الحكم على الأشياء،بل إن الشيخ بيوض يعتبر من مستلزمات الإيمان ومقتضياته أن يعود المؤمن في حكمه على الأشياء إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإلا اعتبر ذلك خللا في إيمانه، ويقرر الشيخ أنه المنهج الذي يلتزمه بحكم إيمانه فيقول : "ونحن -بفضل الله- لانعتمد في ردّنا [...] إلا على أدلة القرآن والسنة، والله تعالى يقول : ﴿ **وما كان لمومن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**﴾ [الأحزاب : 36]".(1)

ويقرر الشيخ بيوض أن الوحي لم يفرّط في شيء حتى يلجأ المؤمنون إلى غيره من المصادر، فيقول: "فليس للإنسان حاجة إلى شيء أبدا ليستمد منه هديا، أو يتخذه إماما يقتدي به، ويستشيره أو يستفتيه غير القرآن"،(2) فالقرآن وضع "للناس شريعة محكمة في كل ميدان من ميادين نشاطهم، لم يترك بابا من الأبواب التي يقرعونها لكسب معيشتهم أو تجارة أو فلاحة أو أي عمل مطلقا.."(3).

ويؤكد أن الضمان الوحيد للخروج من إختلاف الناس في حكمهم على الأشياء بسبب قصور العقل الإنساني في إدراكاته، وكذا تأثر الإنسان في كثير مما يصدر عنه بدافع الهوى والشهوة، هو الرجوع إلى الوحي، يقول الشيخ بيوض : "وهكذا الأمر لو ترك للبشر أنفسهم ولعقولهم الضيقة القاصرة التي تتأثر بمختلف الأشياء ، فتقلب الحق باطلا، والباطل حقا، والحسن قبيحا والقبيح حسنا، ثم بتدخل الشهوات القوية، وبمعونة شياطين الجن

---

(1) - إبراهيم بيوض ، حديث الشيخ الإمام، إعداد وتنسيق الشيخ محمد إبراهيم سعيد، ط1، جمعية النهضة ،المطبعة الجزائر،1992،ص : 81.

(2) - إبراهيم بيوض ، تفسير سورة الإسراء ،ص: 213 - 232.

(3) - المصدر نفسه، ص: 228 - 229.

والإنس تتقلب الأوضاع، ولايبقى شيء على حقيقته".(1)

وكان الشيخ بيوض في درسه اليومي في تفسير القرآن الذي دام أكثر من خمسين سنة. يمارس عمليا عملية نقد وتقويم لواقع مجتمعه من خلال المعايير القرآنية.

قال الأستاذ محمد علي دبوز يصف طريقة الشيخ في التفسير : "وبعد أن ينتهي الشيخ من تفسير الآية يعرض المجتمع عليها، فيبين أمراضه، ومايخالف القرآن فيه من البدع ومساوىء الأخلاق".(2)

ثانيا : عصر الخلافة الراشدة :

ويعتبر عصر الخلفاء الراشدين المصدر الثاني الذي يعود إليه الشيخ بيوض في الحكم على كثير من القضايا التي يطرحها الواقع أمامه، لأن عصر الخلفاء يعتبر أفضل العصور بعد عصر النبوة، بسبب هيمنة الوحي فيه على شتى ميادين الحياة : السياسية منها والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، فهو -كما يقول الشيخ بيوض- العصر الذي كانت فيه "المثالية القرآنية، والتوجيهات الربّانية، هي الفيصل في كل القضايا التي اختلف فيها الناس، وتنوّعت مواقف الحضارات من طرحها".(3)

ثالثا : كتابات بعض المصلحين :

ومما لاشك فيه أن الكتب التي قرأها الشيخ بيوض لبعض المصلحين كالشيخ جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمده عبده، والشيخ رشيد رضا، وشكيب أرسلان، والكواكبي، وغيرهم قد أسهمت في توجيه فكره وهو يقوم بعملية تقويم لواقع مجتمعه، ذلك لأن

---

(1) - ابراهيم بيوض، عبرة وذكرى في الأزمة الوزارية الفرنسية الأخيرة، مقال، جريدة المغرب، ابوليقطان،س1، ع 301، بتاريخ 1930/12/23.

(2) - إبراهيم بيوض ، حديث الشيخ الإمام، ص: 65

(3) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 73

الأوضاع في العالم الإسلامي في القرن العشرين متشابهة في الخطوط العامة، وإن اختلفت في بعض الجزئيات والتفاصيل.

ويؤكد هذا التأثير، ماصرّح به الشيخ بيوض نفسه لتلميذه محمد علي دبوز في الستينات والسبعينات في الحوارات التي أجراها معه في كتابه "أعلام الإصلاح" عن الأثر الذي تركته هذه الكتابات في نفسه، فقد قال عن كتاب "تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده" لرشيد رضا: "وقد تأثرت بهذا الكتاب تأثر كبيرا، وعرفت من شخصية الشيخ محمد عبده وإصلاحه الديني وجهاده، فكان من مثلي العليا"، وقال عن كتاب العروة الوثقى : "درسته حرفا حرفا، وترك في نفسي أثرا عميقا بمواضيعه الإصلاحية والسياسية المهمة"، وعن كتابي "طبائع الإستبداد" و"أم القرى" للكواكبي قال : "قرأنا هما مرات، ودرسناهما نتفهمهما حرفا حرفا"، وعن تاريخ مصطفى كامل قال الشيخ :" ومما أثر في تأثيرا كبيرا تاريخ مصطفى كامل الذي ألّفه أخوه فهمي كامل [...]، وعرفت من الجزء السابع والثامن من الكتاب أغراض المستعمرين الصليبين في العالم الإسلامي، ونواياهم الجهنمية للإسلام والمسلمين، وأفادني في باب السياسة فائدة كبيرة".(1)

وكذلك أسهمت المجلات والجرائد التي كانت تصل الشيخ من المشرق ومن تونس بما كان ينشر فيها من مقالات اجتماعية وسياسية في توجيه فكره، وأعانته في تحديد الأمراض التي أصيب بها العالم الإسلامي وأسبابها، ومنهج علاجها.

وجعل الشيخ المجلات والجرائد مصدرا استعان به لإعطاء صورة عن أدواء المسلمين وكيفية علاجها لتلاميذه في معهد الحياة، فكان يقرأ عليهم كل خميس بعض المقالات.

قال أحد تلاميذه في تلك الفترة: "وقرأ علينا مقالات اجتماعية من مجلة (الفتح) عرفتنا بالعالم الإسلامي وأمراضه وطرق علاجها، وكانت مجلة (الفتح) ومجلة (الزهراء) للبطل المجاهد محب الدين الخطيب تصل إلى المعهد بانتظام، [...]، وقرأ علينا مقالات من مجلة الرسالة"،(2)، وقرأ علينا مقالات ثائرة من جريدة الشعلة، وجريدة الصرخة، وجريدة مصر

---

(1) دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص: 159 - 160.

(2) دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص: 80

الفتاة، وجريدة الشورى، وجريدة الهلال ".

رابعا : التجارب الناجحة :

وهي مصدر يعتمده الشيخ بيوض للحكم على الأشياء بالصلاح أو الفساد، فما أثبتت التجربة أن آثاره ونتائجه صالحة، حكم عليه بالصلاح، والعكس أيضا صحيح، فما ثبت بالتجربة التاريخية والواقعية أن الآثار التي تنتج عنه فاسدة، حكم عليه بالفساد.

يقول الشيخ بيوض : "لا يمكن لعاقل أن يحكم على طريقة إنجاز دنيوي أو أخروي بأنها صالحة أو فاسدة إلا بعد أن يجرّبها، ويقيّم نتائجها بعد فترة من الزمن".

وكرد على بعض من كانوا يدعون إلى نبذ النظم الإجتماعية التي تميزت بها منطقة ميزاب منذ قرون بحجة أنها لم تعد مواكبة للعصر، يقول الشيخ بيوض: "ونحن لانشك في صلاحية هذا النظام، لأن بقاءه ورسوخه لعشرة قرون من الزمن لهو الدليل القاطع على ذلك: وكلّ التحديات التي تعمل لتقويضه سوف يكون مآلها الخيبة والفشل بحول الله لأنه نابع من أصالتنا، وضارب في جذور تاريخنا، ولم تجد البلاد منه إلا الخير والبركة".

وينظر الشيخ بيوض إلى الحضارة الغربية نظرة موضوعية على أنها مجهود إنساني فيه الخطأ والصواب، ومافيه من الخطأ ناتج في كثير من الأحيان عن بعد هذا الجهد عن مصدر الهدى الذي أرتضاه الله للإنسان.

لذلك يرفض أن تتخذ الحضارة الغربية معيارا للحكم على الأشياء بالصلاح أو الفساد، حتى في الجانب الفاسد منها، ويرى أن ذلك مما يتناقض ومقتضيات الإسلام والإيمان.

يقول الشيخ بيوض : "لا يستطيع أي مسلم يحترم نفسه، وله في قلبه نبضة من إيمان أن يتخذ من مسلك أوربا في حياتها المادية الماجنة نموذجا ومعيارا للحضارة والرقي، يقيس بهما حياة الشعوب المسلمة، ثم يعطي لها حكما متعسفا، لايمكن أن يصيب حقيقتها وواقعها في ميزان الحضارة بمقوماتها الأصيلة الحقة".

وينتقد الشيخ بيوض مسلك بعض المثقفين من أبناء المسلمين ممن ذابوا في الحضارة الغربية واتخذوها مصدرا ومرجعا لمعاييرهم التي ينظرون بها إلى قضايا مجتمعهم، فيقول مستنكرا تبعيتهم هذه : "ما انفك المتفرنجون والملاحدة وهواة المدنية الغربية من المسلمين يسبحون بحمد أوربا، ويقدسونها تقديسا كاد يصل إلى درجة العبادة، فيقدمون تعاليم رجالاتها على تعاليم الإسلام، ويفضلون شرائعها الوضعية على أسمى شريعة وضعها رب الحكمة الإلهية، يكفي لصحة المبدأ عندهم أن يكون واضعه أوربيا، ولشرف الغاية أن يكون صاحبها أوروبيا، وسداد الرأي، وصحة الحكم، وعدل القانون وصواب النظرة، وجودة الفكرة، وحسن الخلق، وشرف العادة، وثبوت الحقيقة، أن ينسب ذلك الأمر إلى [...] وهكذا صارت أوربا عند هؤلاء شارة الدين والأدب والعقل والتمدن وكل شيء".

ويقرر الشيخ بيوض أن هذا لايعني عدم الإستفادة من هذه الحضارة فيما توصلت إليه من نتائج مذهلة في إطار تفاعلها مع الكون وتسخيرها لمظاهره المختلفة، أو في الجوانب التنظيمية للحياة المعاصرة، يقول الشيخ بيوض : "يعلم الله أننا لوعينا إلى التمدن الحقيقي وإلى العلم الصحيح، وأسباب التقدم المثمر لكنا أول المحيين، فلسنا ضد المقومات التي ترفع من شأن وطننا، ولاضد التفتح والإتصال الخارجين ولكننا ضد التمزق ضد المروق والإلحاد".

والخلاصة أن الشيخ بيوض في فهمه لواقع مجتمعه وتقويمه لما لاحظه فيه من مظاهر انطلق من ثقافته الإسلامية متمثلة في الوحي قرآنا وسنة، وعصر الخلافة كتطبيق عملي له.

وكتابات المصلحين الذين انطلقوا من نفس هذه الأصول في فهمهم لواقع مجتمعاتهم وتقويمهم له، وسنلاحظ هذا الأمر بشكل جلي في المبحث التالي الذي نتحدث فيه عن تقويم الشيخ لواقع المجتمع الجزائري.

3) - تقويم الشيخ بيوض لواقع المجتمع الجزائري :

ونقصد بتقويم الواقع، نظرة الشيخ بيوض إلى واقع مجتمعه، وتحديده لمظاهر الفساد والإنحراف وأسبابها، ومظاهر الصلاح التي يجب بذل الجهود، وإيجاد الوسائل للمحافظة عليها وتدعيمها.

ونؤكد أن الشيخ بيوض قد عايش واقعين مر بهما المجتمع الجزائري، واقع هذا المجتمع تحت سلطة الإحتلال الفرنسي، وآخر بعد الإستقلال، وفيمايلي نذكر نظرة الشيخ وتقويمه للواقعين المتمايزين :

أولا : المجتمع الجزائري إبان الإحتلال الفرنسي :

في هذه المرحلة يرى الشيخ بيوض أن الفساد مسّ كل مناحي الحياة، مسّ العقيدة والأخلاق، كما مس الإقتصاد والإجتماع، يقول الشيخ : "وجدنا الدين مهملا، والأخلاق فاسدة، والعقائد متزلزلة، والأعمال فاسدة، ليست على طريقة وسنة الرسول وصحابته. والجهل عم الدنيا في تجارة وصناعة وفلاحة، نتغرب أكثر من كل الناس، ونتعب أشد التعب ولا نحصل على نتيجة".(1)

وفي مقال نشر للشيخ بيوض في مجلة "الشباب" التي يصدرها معهد الحياة، يصف فيه واقع المجتمع الجزائري سنة 1931م الذي يكاد يدعو إلى اليأس، بسبب ماتفشى فيه من الأمراض الاجتماعية، وغزو المدنية الغربية، والتخلف المريع في أمور الفلاحة والصناعة، فيقول : "إن منظر الشعب الجزائري، والأمراض الإجتماعية المزمنة التي تهدّ بنيانه، وسل

---

(1) - عمور : أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص 146

الإلحاد والتفرنج تتخذ في نفسه شكلا مريعا، والجهل المطبق يفتك بأبنائه فتكا ذريعا"، وينبه إلى الهيمنة الكاملة للحالية الأوروبية على أمور الاقتصاد بقوله :"ونقابات الإسبان والطليان يبتزون أمواله ويمتصّون دماءه، ويتخذون من أبنائه الأحرار عبيدا.."، ويصف تفكك الروابط الإجتماعية بقوله : "وإن تفكك روابط الجزائريين والمصاب عظيم، وانفكاك عراهم والخطب ملم، وتنازعهم والبلاء بهم محيط، واختلافهم البيزنطي والخطر محدق"، واللافاعلية التي أصبحت جزءا من شخصيتهم فيقول : "وغطيطهم في سباتهم، والويلات تتوالى عليهم من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وتأخرهم دينا وخلقا وعلما وصناعة وبناء، وإخلادهم إلى الدعة والسكون، ورضاهم بالدون، وقد سبقتهم إلى قصبات السبق في ميدان الحضارة والرقي شعوب لم يكن لها مثل تاريخهم، ولا مثل حضارتهم[...]، وجمودهم وقد نطق الجماد وطار وغاص في لجج البحار، وتصامهم وقد أزعجت أصوات النذر الطيور في أوكارها، والأنعام في مراتعها، والهوام في أجحارها، لأمر تزهق به الأموات، وتموت الضمائر الحية، وتنسد أبواب الرجاء".(1)

وفي مقال آخر نشر له في مجلة الشباب أيضا يشير الشيخ بيوض إلى الغزو الخطير الذي يتعرض له المجتمع الجزائري من قبل المدنية الغربية، وما انجرّ عن هذا الغزو من سلب لشخصية الجزائري، وشيوع للفساد، يقول الشيخ : "سبيل الإلحاد قد طغى، وطوفان التفرنج قد طفا، وعواطف المادة هبت، [...] ومدنية الغرب الملحدة الكافرة قد أحدقت بنا نارها، ولفح وجوهنا أوارها، وشيد لها في عقر دارنا قلاع حصينة، وحصن منيعة".(2)

وفي المحيط القريب الذي كان الشيخ بيوض يتحرك فيه –أي في منطقة ميزاب– شاعت مفاسد في العقيدة والإجتماع، يقول الشيخ بيوض : "سرت إلى المجتمع الميزابي[...] بعض أمراض كتقديس قبور بعض الأولياء، يعتقدون أن لهم تأثيرا في الكون، وأنهم سبب النفع والضر للأحياء، هذه العقيدة الخرافية للدين"، "ووجدنا في الأعراس عادات لاتليق من إسراف وغيره، تضر صاحب العرس والمجتمع، ووجدنا في المآتم مثل تلك العادات".(3)

---

(1) - إبراهيم بيوض ، أسآني الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع115، 1931/04/03م

(2) - إبراهيم بيوض ، أسآني الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع 9، رمضان 1348هـ

(3) - دبوز ، أعلام الإصلاح، ج5،ص:58.

وتردّت قيمة العلم في حياة الناس، و لم يعد لهم هم إلا الكسب والوصول إلى الثراء، و"قطع عن التعلم كثير من نجبائنا النبغاء، فحرموا، وحرمت أمتهم من النبوغ القوي الذي أودعه الله فيهم، فبعضهم قطع لحاجة أهله وفقرهم، وبعضهم لشره أهله وشغفهم بكثرة الأموال"،(1) وكانت نتيجة هذا الزهد في طلب العلم - كما يلاحظ الشيخ بيوض - أن "شريعتنا الإسلامية الكريمة العظيمة يلعب بها، ويعبث بها عبثا يقطّع القلوب، ويمزّق الأفئدة"،(2) وذلك لأن الإشتغال بها ودراستها ترك لذوي العقول الضعيفة، وأصحاب القدرات المحدودة، ممن يصدق فيهم وصف الشيخ محمد الغزالي "المتردية والنطيحة وما أكل السبع".(3)

وكان من نتائج هذا الزهد في طلب العلم أيضا الفشل الذريع في ميدان التجارة والفلاحة والصناعة، لأن العلم -كما يؤكد الشيخ بيوض- هو "سبب الغنى في المال، وفي كل نواحي الحياة"، ونتيجة هذا الفشل متجسده في الحرمان من "المنافع التي يتمتع بها جميع الناس في العالم، وحرمت منها أمتنا".(4)

ومن مظاهر الفساد التي مست منطقة ميزاب -كما يلاحظ الشيخ بيوض- إعراض الأكفاء القادرين عن تولي المناصب في الحكومة الفرنسية، فتولاها من لاكفاءة لهم، فأصاب الأمة من جراء ذلك ظلم كبير من "المحاكم الشرعية التي عمّها الفساد " ومن "وظائف الحكومة ومناصبها التي يشغلها الجهال الذين لاكفاءة لهم".(5)

وحسب تقويم الشيخ بيوض، فإنّ الفساد الذي عمّ جميع نواحي حياة المجتمع الجزائري تسببت في إيجاده ونشره فئات ثلاث : الإستعمار الفرنسي، والعلماء الجامدون، وأذناب الإستعمار من القيّاد، والتي وجدت في العامة الجاهلة أرضا خصبة لزرع فسادها.

---

(1) - دبور ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:107.

(2) - دبور ، أعلام الأصلاح في الجزائر، ج4،ص:106.

(3) - الشيخ محمد الغزالي، من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، ص: 246.

(4) - دبور ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:106 - 107.

(5) - دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:106.

فالإستعمار منذ وطئت أقدامه أرض الجزائر، وهو يسعى إلى تحطيم المجتمع الجزائري تحطيما كاملا : ثقافيا، واجتماعيا، واقتصاديا، حتى يسهل عليه فصله عن امتداده الحضاري العربي الإسلامي، ووصله بالإمتداد الحضاري الغربي المسيحي.

وأول مجال حاول الإستعمار اختراقه التعليم، وذلك حين أصدر قانون 1892م الذي يجبر أبناء الجزائريين على دخول مدارس التعليم الفرنسي، ولا يسمح بالتعليم العربي الا خارج أوقات التعليم الفرنسي.

يصف الشيخ بيوض الصراع الذي دار بين الامة وسلطات الاحتلال بعد صدور هذا القانون فيقول : " وكانت مكاتب التعليم الفرنسي قد فتحت في كل قرية، وأبى الناس أن يرسلوا أولادهم إلى المكاتب الفرنسية، فشرعت السلطة في أخذ الصبيان جبرا، وجرهم جرا، وهم يبكون إلى المكاتب، وجعل الناس يهربون أولادهم إلى الشمال كلما أقترب موعد فتح المكاتب، ودام الصراع على ذلك إلى ما بعد الحرب العالمية [الأولى]، وأشتد الصراع منذ صدور القانون الفرنسي المومى إليه [أي قانون 1892]، فكان سجن، وكان تعذيب طوال هذه المدة، وأشتد بنوع خاص على المعلمين الذين يعلمون في الصباح، في أوقات المكتب الفرنسي ".(1)

وكان هدف إدارة الاحتلال من هذه الخطوة هو حرمان الفرد الجزائري من التعليم الديني الذي يحافظ على مقومات شخصيته، ولم يكن قصدها فتح أبواب التعليم الفرنسي أمام الجزائريين، بدليل أن المكاتب التي فتحت لم يمكن بإمكانها استيعاب إلا عدد محدود جدا من الاطفال الجزائريين، مما دفع المصلحين في ميزاب عندما اقتنعوا بضرورة التعليم الفرنسي وفائدته، أن يطالبوا بتوسيع دائرة هذا التعليم، وبناء مدارس جديدة له، فكان في مقدمة المطالب التي تقدم بها الشيخ بيوض إلى لجنة الاصلاحات في يناير 1944، "أولا حرية الاجتماع والنشر والتعليم الديني، ثانيا توسيع نطاق التعليم الفرنسي وترقيته".(2)

---

(1) - تركي رابح ، التعليم القومي ...، ص : 419

(2) - بيوض ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج5،ص:44.

وكانت نتيجة هذا الاختراق لميدان التعليم أن تمكنت إدارة الاحتلال من تكوين نخبة مثقفة متغربة فكرا وسلوكا، كان لها أثر كبير في مسيرة المجتمع الجزائري، وهم من سماهم الشيخ بيوض بـ " المتفرنجين وهواة المدنية الغربية "، الذين كانوا كما يقول الشيخ بيوض : "يسبحون بحمد أوربا، ويقدسونها تقديسا كاد يصل إلى درجة العبادة".(1)

ثم إن الاستعمار فتح المجال أمام المعمرين الأوروبيين و اليهود للهيمنة على النشاط الاقتصادي في الفلاحة والتجارة والصناعة، حتى لا يبقى أمام الجزائريين إلا أن يكونوا خدما وحمالين.

فكانت إدارة الاحتلال تتصرف " في أراضي ميزاب بمنح امتيازات الاستغلال لشركات أجنبية، بلا استشارة ولا رضى أهل الوطن"، وتمنع أهالي الوطن " من حفر الآبار الارتوازية في أراضيهم الخاصة ".(2)

ونتيجة لهذه السياسة التي اعتمدها الاستعمار، أصبح المعمرون الإسبان والطليان بنقاباتهم يبتزون أموال الشعب الجزائري وثرواته " ويمتصون دماءه، ويتخذون من أبنائه الأحرار عبيدا، يحثون أمامهم على الركب ركّعا، ويخرّون للأذقان سجّدا على الأتربة والقاذورات، فتتسخ ثيابهم لتنظيف نعال ساداتهم، يتعبدون ليستريحوا، ويشقون لينعموا، ويسهرون ليناموا، وأخيرا يموتون ليحيوا ".(3)

ويؤكد أحد الخبراء في " الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " هذه النتيجة التي أشار إليها الشيخ بيوض، فيقول : " أما في ميدان العمل فإن الطبقة الكادحة الجزائرية تعلم أي مكان تشغله في اهتمام أصحاب الأعمال الاستعماريين، وهم الذين بأيديهم وسائل التشغيل جميعا، إذ زيادة على إشرافهم على القطاع العام، يتصرفون في أغلبية القطاع الخاص [...] يرفض العامل المسلم كلّما وجدت الفرصة لتشغيل الأوروبي، حتى لا يبقى مكان للأول إلا

---

(1) - محمد ناصر بوحجام، الشيخ بيوض والعمل السياسي، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1991م، ص 123

(2) - الحاج محمد عمر بن عيسى بن ابراهيم، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب من ناحيته الدينية والسياسية والإجتماعية، [د ن]، مطبعة النهضة، تونس، [دتا]، ص: 8

(3) - ابراهيم بيوض ، أبنائي الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع ، 115، 1931/04/03

الأشغال الشاقة ".(1)

وشعورا من المصلحين -وعلى رأسهم الشيخ بيوض- بخطورة هذه السياسة إن كتب لها الاستمرار، أصروا في مطالبهم التي تقدموا بها عام 1945 إلى إدارة الاحتلال على اعتبار البلاد ملكا لأهلها، ولهم وحدهم حق التصرف فيها بحرية تامة [...]، فإذا أنشئت عيون مثلا وجب أن تكون من مال الأمة، وملكا للأمة، أفرادا وشركات وبلديات، لايتحكم فيها أجنبي مطلقا ".(2)

وقد استغل اليهود هذه الأجواء، فسيطروا على أسواق ميزاب المهمة، مثل سوق غرداية، وسوق القرارة، وسوق بريان، فكانوا يشترون مكس هذه الأسواق ثم "يأخذون من الباعة أضعاف ماقرره القانون، فأثروا وجمعوا أموالا كثيرة، بامتصاص دماء المسلمين".(3)

ولكي يمتص الإستعمار مايكسبه التجار "الأهالي" من أموال، أحدث ضرائب شتى بأسماء مختلفة "كمكس الأسواق والمجازر، والغرامةالشخصية، وغرامة الإرث، وحقوق التسجيل، وغير ذلك".(4)

ولم يكتف الإستعمار بتحطيم "الأهلي" اقتصاديا وماديا "بتطبيق مايتطلب هذا التحطيم من اختلاسات حقوق، وسلب أملاك، وفرض مخالفات مشتركة، وضرائب من كل نوع، ومن تنمية البطالة في البلاد إلى درجة لايتصورها العقل"، لأن هدفه كان هو تحطيم "كل إرادة أو شبه إرادة تدفع الإنسان المستعمر إلى التقدم والحضارة" لذلك فهو يضع الخطط والبرامج التي تتضمن "كل مايتطلبه هذا التحطيم المعنوي من تلويث أخلاقي يحط أولا من قيمة الفرد الشخصية، ومن كفاءته ومن جهده في المسابقة الإجتماعية"،(5) فأذنت إدارة الإحتلال، بل شجعت على "فتح دور البغاء الرسمي بميزاب، وفتح حانات عديدة لبيع

---

(1) - مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، ط دار الفكر، دمشق، 1981، ص: 122 - 123.

(2) محمد بن عيسى بن ابراهيم ، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص: 11.

(3) - دبوز ، أعلام الأصلاح في الجزائر ، ج5،ص:72 73.

(4) محمد بن عيسى بن ابراهيم ،المرجع السابق، ص: 8.

(5) مالك بن نبي ، في مهب المعركة، ص: 43 - 44

الخمور وتعاطيها".(1)

ويؤكد الشيخ بيوض أن هذه المفاسد ما كانت لتشيع في وسط المجتمع لولا تفشي الجهل، يقول الشيخ: "لما انتشر الجهل في وادي ميزاب، جاءتنا المدنية الغربية الأوروبية لاسيما بعد الحرب العالمية الأولى -- بأمراضها الخلقية، فصارت تبث فينا بكل وسيلة، وتبث في شبابنا على الخصوص لإضعاف عقيدته الإسلامية، وإبعاده عن دينه، فأصبحت أمتنا بداهيتين، كلاهما قاصمة الظهور للأمم".(2)

وساعد الإستعمار في الوصول إلى جزء من أهدافه، المؤازرة التي قدمها له أولئك الذين صنعهم على عينه في مدارسه ومعاهده "المتفرنجون والملاحدة وهواة المدنية الغربية من المسلمين" كما يصفهم الشيخ بيوض بسبب تبعيتهم لثقافة المستعمر حيث "يكفي لصحة المبدإ عندهم أن يكون واضعه أوربيا".(3)

وعمد الإستعمار منذ بداية الإحتلال للحد من كل مجهود يمكن أن يسهم في تطهير المجتمع الميزابي من هذا التلويث الأخلاقي" فحدّ من نشاط "العزابة" الذين كانوا يخرجون في مظاهرات تنطلق من المسجد، تحضرها جماهير المدينة، ويرددون بأصوات مدوية "النهي عن المنكر" وذلك عندما يشعرون بانتشار فاحشة في المدينة، فـ"لما وقع الإحتلال الفرنسي حمى الفساد والمفسدين فلم يستطع العزابة نهي الأيدي، وبقي لهم نهي اللسان وسلاح البراءة".(4)

ثم إن الإستعمار حاول بالإضافة إلى هذا التلويث الأخلاقي، أن يفكك شبكة العلاقات الإجتماعية، وذلك باستغلال مسألة الخلاف المذهبي بين الإباضية والمالكية، أو بطرح المسألة العرقية واللغوية.(5)

---

(1) محمد بن عيسى بن ابراهيم ، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص: 9

(2) ... أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:146

(3) ... الشيخ بيوض العمل السياسي، ص:123

(4) ... علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1971، ج2، ص 189

(5) ... محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العلمانية، الجزائر، 1965، ج1، ص 24

وهو الأمر الذي دفع بالشيخ بيوض إلى التركيز في كثير من دروسه في تنقلاته بين مدن ميزاب على "أسباب إختلاف الفقهاء" فقد قال في درس من هذه الدروس : " إذا رفع أحد يديه في الصلاة وترك الآخر، وقبض أحد وأسدل الآخر فتعادى ونتباغض ؟!، لم يرفع من رفع عبثا، ولم يترك من ترك عبثا، كل ذلك مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، اتبع قوم هذا، واتبع آخرون ذاك، فما كان لأحد أن يكفّر الآخر أو يعاديه"،(1) وقام كذلك بتدريس كتاب "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، لبيان كيف يختلف العلماء في فهم النصوص.

وقد استخدم الإستعمار هذه الورقة إلى آخر لحظة من وجوده في الجزائر، فأثار فتنة خطيرة في وارجلان كادت تفصل بين شمال الجزائر وجنوبها، وتسيل فيها الكثير من الدماء، لولا دهاء الشيخ بيوض الذي فوّت على الإستعمار فرصة اللعب بهذه الورقة.(2)

والفئة الثانية التي كانت السبب في تردي المجتمع الجزائري إلى هذا المستوى من الفساد العقدي والأخلاقي والإجتماعي والإقتصادي -حسب تقويم الشيخ بيوض- هم "العلماء الجامدون" كما يصفهم الشيخ بيوض، لأنهم يتميزون بـ"جمود في الفكر، وجمود في العمل، وأفن في الرأي، وجهل مطبق بأساليب الحياة".(3)

ولما خلا الميدان من الأكفاء القادرين وسّدت الأمور إلى هؤلاء العلماء الجامدين، "الأميين، الخونة المفسدين"، وكانت النتيجة أن هدم "الدين باسم الدين، وجعلت الذئاب للغنم رعاة، وجهلة المنافقين للشريعة قضاة، وتصدّى لتعليم الناس من إذا رآه العلم فرّ منه، وتبرأ من انتسابه إليه"(4) فـ"دفعوا بعربة الأمة إلى الهاوية".(5)

وكان هؤلاء العلماء الجامدون، بمواقفهم غير المدروسة لجهلهم بأساليب الصراع التي يستخدمها المستعمر، كانوا يقفون في صفّه وينفّذون خططه، فقد "أفتى هؤلاء العلماء بأن

---

(1) - بيوض ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص: 169.

(2) - ابراهيم بيوض ، أعمالي في الثورة، ص:66.

(3) - بيوض ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3،ص:204.

(4) - ابراهيم بيوض : أبنائي الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع 64، 1929/02/01م.

(5) - بيوض، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها مباركة ، ج3،ص:205.

التعليم العصري حرام، والذهاب إلى تونس للتعلم حرام، ودعوا إلى فكرتهم الفاسدة، وأثروا في كثير من الدهماء، وصاروا بدعوتهم هذه سدا في طريق تقدم الأمة وتطورها"، وقالوا: "إن قراءة الصحف حرام، والإشتراك فيها حرام، وأنه ربا، لأنه بيع مالم يقبض، ثم إنك تعطي ورقة مالية صغيرة، ثم تأخذ بعد حين ورقة عريضة أضعافها، وقالوا إنه اجتمع في الإشتراك في الصحف: الجنس والنسيئة والزيادة، وأنه ربا لايجوز في الدين".(1)

وعارض هؤلاء العلماء إنشاء الشركات، "وقالوا إنها حرام، سيما شركات النقل، لأنها كما يقولون تحمل الخمور والمومسات والحكام واليهود والنصارى".(2)

ولما أصدر الشيخ بيوض فتوى يجيز فيها شراء مكس الأسواق لتفويت الفرصة على المكّاسين اليهود الذين لايرقبون في مسلم إلاًّ ولاذمة، ثارت ثائرة هؤلاء "العلماء الجامدين" وضاعفوا براعتهم من الشيخ بيوض، واستغلوها فرصة لتأليب العامة عليه، بزعمهم أنه خرج عن الدين في فتاواه.(3)

كما أفتى هؤلاء العلماء بحرمة تولّي الوظائف في إدارة الإحتلال، فحرّموا "تولي القضاء الشرعي الإسلامي، الذي يطبق أحكام الدين في القضايا تحت السلطة الفرنسية".(4) ودليلهم على هذا التحريم "قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لعن الله الظلمة واعوانهم واعوان أعوانهم".(5)

وهم في فتواهم هذه -كما يلاحظ الشيخ بيوض- يتمسكون بظواهر النصوص، ويهملون دراسة الواقع الذي يريدون تنزيل تلك النصوص عليه، يقول الشيخ بيوض منتقدا أسلوبهم في الفتوى المخالف لمقاصد الشريعة الإسلامية: "ترى القياد الفاسدين في بلادنا بيّدهم الإستعمار علينا، وهم أنكى وأشد إضرارا من الحكام المستعمرين، ولكن

الجامدين لايرون هذه الويلات التي تتنزل من القياد والموظفين الفاسدين على الأمة، فأصروا على رأيهم أن تولى وظائف الحكومة حرام، وأنه إعانة على الظلم"، وهم في هذا يغفلون عن أمر بدهي يدركه كل عاقل وهو أن القائد إذا كان "صالحا يدفع نصف البلاء عن بلده، وإذا كان فاسدا يضاعف بلاء الإستعمار على بلده، ويكون نارا في يد الإستعمار يشوينا بها".(1)

وكان هذا المنهج في التفكير، وهذا الأسلوب في العمل والتحرك الذي تميز به العلماء الجامدون، يعجب الإستعمار، فكانت إدارة الإحتلال تناصرهم، قال الشيخ بيوض:

"وقد ناصرت الحكومة الفرنسية الإستعمارية المعارضين لنا في دعوة الأمة لتولي الوظائف، وأوحت إليهم بمعارضتنا، والإصرار على فتوى التحريم، فازدادوا ضراوة في معارضتنا، ناصرت الحكومة معارضينا لأنه من فائدتها أن يكون أمر التولية والعزل في الوظائف كلها في يدها، فلا تولّي إلا أشقى القوم وأخبثهم".(2)

ولقد دفعت الأمة الثمن غاليا من جراء سياسة الجمود التي سلكها هؤلاء العلماء، فإن سياستهم هذه -كما يؤكد الشيخ بيوض- "لحاتنا أحوج مانكون إليها في أحرج المواقف وأخطرها، استندنا إليها فانهارت بنا في مهاوي الضيم والذل، وأدرك المستعبدون منا مايريدون".(3)

وعوض أن يوجه هؤلاء "العلماء الجامدون" جهودهم إلى محاربة الفساد الذي عمّ مجتمعهم، وإنشاء المؤسسات التعليمية والتربوية التي تدفع هذا المجتمع إلى جهة الصلاح، وتثبّت أقدامه على سكته، كان همّهم الأول هو معارضة الخطوات التي يقوم بها المصلحون، فهذه -كما يقول الشيخ بيوض- "اجتماعات متوالية تعقد، ومؤامرات سرية تدّبر، وجهود جبارة تبذل، لاعلى الفواحش المنتشرة، ولكن لأن بيوض قدم من القرارة إلى ميزاب [...]، هلّا كانت هذه الجهود مبذولة لمحاربة الخمور والفجور".(4)

---

(1) - دبور، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5،ص:53.

(2) - المصدر نفسه، ج5،ص:54.

(3) - دبور، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج3، ص:199.

(4) - دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:86.

وعندما عجزوا عن مواجهة الشيخ بيوض بالحجة والمنطق والعمل في الميدان، حرشوا بعض أتباعهم وحرضوهم على إغتياله، فتعرض الشيخ بيوض إلى عدة محاولات اغتيال نجاه الله منها، خاصة في مركز هؤلاء العلماء "بني يزقن".

ويرى الشيخ بيوض أن هذه الفئة تتحمل القسط الأكبر من المسؤولية فيما أصاب المجتمع من تخلف شامل في شتى مناحي الحياة، لأنها بسياستها غرست في المجتمع كل ما من شأنه أن يبقى فيه "القابلية للإستعمار"، ويجعله مرتعا خصبا تثمر فيه خططه وبرامجه.

ويؤكد الشيخ بيوض أنه لو كان لهذا المجتمع علماء "حصفاء حكماء، يسلكون مع المستعمر "سياسة المراوغة واللف والدوران" ويُعملون "موازين القسط من العقول الراجحة" ليعرفوا" خير الخيرين وشر الشرين" فيدفعون "الأثقل بالأخف" و "يقنعون بالبعض إذا أيقنوا أن الكل ذاهب" ويحسنون "استغلال الظروف والأشخاص والمناسبات"،(1) لما تمكن المستعمر من أن ينال من المجتمع الجزائري مانناله، ويصل في خططه إلى ماوصل إليه.

والفئة الثالثة التي يحملها الشيخ بيوض مسؤولية التردي والإنحطاط الذي آل إليه المجتمع الجزائري، هي فئة القياد.

فبعد أن سلبت السلطة الإستعمارية الأمة حق انتخاب شيخ المدينة، أحدثت وظيفة القائد الذي تتولى وحدها أمر تعيينه، واعتبرت هؤلاء القياد "الذين هم موظفون إداريون معيّنون من طرف الإدارة، لامنتخبون من قبل الأمة، نوابا للأمة وممثلين رسميين لها في المجلس المدعو (اللجنة البلدية بميزاب)، والمشتغل بتقرير الميزانية والمصادقة عليها، وسن الضرائب، مما لا يجوز في أي شريعة أن يتولاه إلا النواب المنتخبون من قبل الأمة".(2)

وكانت الإدارة الإستعمارية –بسبب تهرب الصلحاء الأكفاء من تولّي هذه المناصب تولّيها "من تشاء من أذنابها، وصارت هذه الوظائف تباع، فيتقدم إليها من لاخلاق لهم، فيشترونها بالمال، ليملأوا بها جيوبهم من أموال اليتامى، وأموال الأمة التي يبتزونها بطرق

---

(1) – دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3،ص:209.

(2) – محمد بن عيسى بن إبراهيم، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص:8.

كثيرة، ويرتكبوا أنواع الظلم والإستبداد".(1)

ومن المنطقي أن يكون هؤلاء "القياد" الفاسدون رهن إشارة الإدارة الإستعمارية التي عيّنتهم، فيستجيبون لأوامرها، وينفذون خططها، ويعلنوها حربا على الإصلاح والمصلحين.

فعندما كلّفتهم إدارة الإحتلال بإحصاء عدد المؤهلين للتجنيد الإجباري سنة 1912، سجلوا أسماء الطلبة المصلحين وأبناء المصلحين".(2)

وقد أمضى هؤلاء "القياد" -بأمر من الحاكم العسكري- تقريرا "يتهمون فيه الشيخ بيوض بأنه هو سبب الفتنة والهياج الواقع في وادي ميزاب، ويطلبون فيه نفيه من الجزائر، ومنعه منعا دائما من القدوم إلى مدن ميزاب".(3)

وبسبب ما كانت تحدثه هذه الفئة في المجتمع من فساد، طالب المصلحون عام 1947 بإلغاء وظيف القائد، وجعله منتخبا انتخابا حرا من أعضاء المجلس البلدي.(4)

وخلاصة تقويم الشيخ بيوض لواقع المجتمع الجزائرى إبان الإحتلال، أن الشيخ يرى أن الفساد فيه قد شمل كل مناحي الحياة، ويرى أن الفئات التي تسببت في هذا الفساد هي الإستعمار والعلماء الجامدون والقياد.

ثانيا : المجتمع الجزائري بعد الاستقلال:

لا تسعفنا المصادر والمراجع التي بين أيدينا بمادة ثرية نعرف من خلالها كيف كان ينظر الشيخ بيوض إلى واقع الجزائر بعد الإستقلال، وذلك يرجع إلى جو الكبت الذي عاش فيه العلماء الإصلاحيون نتيجة لطغيان الحكم الفردي الذي لايقبل النقد والتوجيه، مما جعل العلماء يحسبون لكل كلمة تصدر منهم ألف حساب، خاصة بالنسبة للشيخ بيوض الذي كان يضع أمام ناظريه مؤسسات يجب المحافظة عليها، حتى ولو اقتضى

---

(1) – دبوز : أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5،ص:52.

(2) – دبوز : نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج2،ص:200.

(3) – دبوز : أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4،ص:46.

(4) – محمد بن عيسى بن ابراهيم : مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص: 10.

الأمر السكوت عن بعض الأمور مرحليا.

لكننا عند عودتنا إلى دروس الشيخ بيوض التي كان يلقيها بمسجد "القرارة" بعد الإستقلال، سنجد بعض الإشارات التي يمكن أن نستند إليها لتحديد ما يمكن تسميته تقويما لواقع المجتمع الجزائري بعد الإستقلال.

وأول مانلفت إليه الإنتباه أن الشيخ بيوض لم يكن من أولئك العلماء الذين أعتقدوا أن دورهم الإصلاحي قدانتهى بمجرد نيل الجزائر لإستقلالها، بل كان يعتقد أن أعمالا كثيرة مازالت تنتظره، خاصة وهو يرى أن الأهداف التي خططت الحركة الإصلاحية لبلوغها، لم تتحقق بعد على أرض الواقع، فالإسلام الذي كافح من أجله الشيخ بيوض مايقارب من أربعين سنة قبل الإستقلال لم يصبح بعد الموجه لحياة المجتمع الجزائري السياسية والثقافية والإقتصادية والإجتماعية.

وقد كتب الشيخ بيوض مقالا في مجلة الفكر الإسلامي تحت عنوان "ومن يبتغ غير الإسلام دينا.."،(1) يشير فيه بطريق غير مباشر إلى العواقب الوخيمة التي ستنجر عن اتخاذ غير الإسلام إيديولوجية ونظام حياة.

ثمّ إن الشيخ بيوض كان كثيرا مايردّد في دروسه هذا المعنى : "ياليت لنا سلطة إسلامية تنفذ أحكام الله وحدوده".(2)

وفي درس له غداة الإستقلال، وبتاريخ 3 أوت 1963م، أشار الشيخ بيوض إلى توغل التيار اللائكي بقوة في مؤسسات الدولة الجزائرية، واعتبر أن إعلان الدولة الجزائرية في دستورها أن دين الدولة الإسلام" يعدّ أول انتصار يمكن أن يستغله الذين يعملون للإسلام كنظام حياة في سيرهم وأعمالهم قال الشيخ بيوض :"تعلمون كلكم لاسيما الذين يهمّهم أمر الإسلام، وأنتم كلكم ممن يهمه أمر الإسلام، أن خوفا شديدا كان يساورنا من أن ينص الدستور على أن الدولة الجزائرية دولة لائكية، لأننا نعلم أن كثيرا من الجزائريين سيما

---

(1) ابراهيم بيوض ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا، مقال، مجلة الفكر الإسلامي، س1، ع:1، أوت 1964م

(2) – ابراهيم بيوض ، المجتمع المسجدي، ص: 77.

الشباب المثقف ثقافة أجنبية، ولاسيما الشباب المتحلّل بدعوى التحرر، هؤلاء يدعون الى اللائكية جهارا، وليسوا بأقلية غير معتبرة، وإنهم كثير، ولكنّ الكثرة الكاثرة في القطر مسلمة، تريد أن يكون دين الدولة الرسمي هو الإسلام،وقد كنا خائفين أن يتغلب هذا العنصر اللائكي".(1)

وكان من نتائج هذا التوغل القوي للتيار اللائكي في مؤسسات الدولة -كما يلاحظ الشيخ بيوض- أن نهجت السلطة القائمة النهج الإشتراكي "المتطرف" خاصة نظام (62-65) الذي أبدى العلماء الإصلاحيون وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ بيوض معارضتهم لتوجهاته.

ففي درس له أشاد الشيخ بيوض بالموقف "المشرّف" لمحافظة الواحات في المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني عام 1964، وبغيرتهم على الإسلام، "تلك الغيرة التي جعلتهم غير مرائين ولامتملقين للسلطة آنذاك، وهي تتبنى الإشتراكية المتطرفة منهج عمل، وأيديولوجية سياسة، إذ استنكروا في تقريرهم مانقوم به بعض الأنظمة باسم الإشتراكية من مجازر ضد العرب والمسلمين، والموالاة الصريحة من بعضها لإسرائيل، بينما الصحافة الوطنية يومئذ تصفق لها وترقص، والسلطة عندنا تستقبل بعض المسؤولين من هؤلاء كزعماء وأنبياء".(2)

ونتيجة لهذا الموقف، ولبعض الدروس التي ألقاها الشيخ بيوض عام 1963م ينتقد فيها الفهوم والممارسات الخاطئة للإشتراكية، والتي تجعل من الإشتراكية وسيلة للإستلاء على أملاك الآخرين وعلى ماكسبوه بعرق جبينهم، وكذلك تولية بعض من لاكفاءة لهم مسؤوليات حسّاسة لالشيء إلا لكونهم من المجاهدين،(3) وكذا بعض التقارير المغرضة،زج بالشيخ بيوض في سجن الحراش "ليلتحق برفقائه الأحرار ممن كانوا ناقمين على النظام المتسم في ذلك الوقت بالتسلط الفردي، والارتجالية الفوضوية في اتخاذ القرار"، فبقي في السجن

---

(1) - محمد ناصر، في رحاب القرآن :الشيخ ابراهيم بيوض، ص: 164 - 165

(2) - ابراهيم بيوض ، حديث الشيخ الإمام، ص:35.

(3) - بيوض، فهرست دروس رمضان، رمضان 1963، مكتبة معهد الحياة، القرارة، الجزائر.

حوالي ثلاثة أشهر، ثم أطلق سراحه دون إدانة أو محاكمة.(1)

كما كان من نتائج توغل "اللائكيين المتحلّلين" في مؤسسات الدولة -كما ينبّه الشيخ بيوض- أن وُجّهت المنظومة التربوية توجيها شبه لائكي، لايولي أهمية كبرى للدين في تعليم وتربية الفرد الجزائري، يقول الشيخ بيوض: "نحن نعلم أن برامج التعليم العمومي لاتعطي للمواد الدينية ماتستحقه من العناية في التواقيت والحصص".(2)

وفي إطار هذه المنظومة يتعامل مع القرآن الكريم -الذي هو كتاب الله إلى الإنسانية- كما يتعامل مع أي كتاب آخر في الأدب حيث يكتفي بشرح المفردات الغامضة في النص، ثم شرح النص القرآني شرحا إجماليا، واستخراج بعض النكت النحوية والبلاغية، ويهمل المقصد الأساس من النص القرآني الذي هو هداية الإنسان فكرا وسلوكا كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾، [ابراهيم:1].

يقول الشيخ بيوض مستنكرا هذا الأسلوب في التعامل مع الدين عامة، ونصوص القرآن والسنة النبوية بصفة خاصة: "أفرضى لأبنائنا المسلمين أن يتعامل أحدهم مع نص القرآن أو الحديث كما يتعامل المسيحي أو الملحد، قصارى أمره أن يضبط من خلاله بعض قواعد الصرف أو النحو والبلاغة، وهو لايحرك فيه وجدانا، ولايقوده إلى معرفة الله ومحبة رسوله، اللهم لا". (3)

ومما زاد الطين بلة ضعف التكوين الديني للأساتذة والمعلمين الذين كما يؤكد الشيخ بيوض - "يعوز أغلبهم الحماس الديني، والالتزام بتعاليمه، وهم بالتالي لا يتعاملون مع النص الديني إلا بطريقة باهتة لاحرارة فيها ولا تأثير". (4)

ولكي لا تستغل تلك النصوص الدينية القليلة من قبل الأساتذة ذوي التوجهات الإسلامية، ضُرب عليهم الحصار وتعرضوا لمضايقات، يقول الشيخ بيوض : " بلغنا أن الكثير

---

(1) - ابراهيم بيوض ، حديث الشيخ الإمام، ص:51.

(2) - بيوض ، حديث الشيخ الامام ،ص: 31.

(3) - ابراهيم بيوض) حديث الشيخ الإمام، ص: 31.

(4) - المصدر نفسه، ص: 31.

ممن حاول أن يستغل تلك النصوص الدينية المقررة بكيفية ناجعة، قد تعرض لمضايقات بعض المفتشين العلمانيين في زياراتهم وتقاريرهم".(1)

ويؤكد الشيخ بيوض أن هؤلاء اللائكيين لم يقنعوا بهذا التوجيه للمنظومة التربوية بل حاولوا أن يجعلوها لائكية خالصة لارائحة للدين فيها أصلا، ولولا وجود بعض المعارضين لهم داخل مؤسسات السلطة لفعلوا ذلك، يقول الشيخ مشيرا إلى هذا الصراع : "وهكذا يتبن [...] أن هناك إتجاهين في اعتبار مادة الدين، إما بإقحامها في مختلف البرامج التعليمية على اختلاف مستوياته، أو إقصائها بحيث يبقى التعليم مدنيا صرفا، ونحن لايعنينا هذا ولا ذاك مادامت القضية تتقاذفها تيارات سياسية واعتبارات أيديولوجية، ثم إننا نملك البديل المكمل لذلك النقص، والمتمثل في تعليمنا الديني الحر.."(2)

ثم إن هؤلاء "اللائكيين المتحللين" أدركوا أن هناك مؤسسات استطاع التيار الإصلاحي أن يحافظ بها على منجزاته، خاصة في منطقة ميزاب، حيث نجح في إنشاء مجتمع مسجدي- كما سماه الشيخ بيوض- لأن رأس مؤسساته، ورأس أنظمته "إنما هوالمسجد، تحته دار التلاميذ والمحاضر، والمدارس، والعشائر، وجمعيات الأسر والعائلات"،(3) فأعلنوها حربا شعواء على هذه المؤسسات، ودعوا إلى تغيير هذه النظم "التي أثبتت فعاليتها في تربية الأجيال على مر الأيام، بدعوى أنها غير صالحة لمتغيرات العصر وأساليب التقدم والرقي"(4)

وبدأوا حملاتهم المسعورة على هذه المؤسسات بالمساجد "يسعون إلى تقليص نفوذها الروحي على المواطنين، لا بتعطل الأذان والإقامة والصلاة، ولكن بخنق صوت المنبر في التذكير والإرشاد"،(5) وأشاعوا عبر وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها : "أن هذه المساجد إن هي إلا أوكار للرجعية والجمود، تخدّر الجماهير، وتصدّهم عن الأخذ بأسباب الحضارة والعصرنة، وتشدهم إلى احتزار الماضي، والرضى بالتخلف والإنحطاط".(6)

---

(1) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام ، ص: 31.

(2) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 34 35.

(3) - ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 59.

(4)- ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 97.

(5) - المصدر نفسه، ص : 45.

(6) - المصدر نفسه، ص : 27.

والدافع الذي دفعهم إلى نشر هذه الشائعات هو كما يؤكد الشيخ بيوض: "قلقهم وتهافتهم أنهم لايملكون الوسائل التي يستطيعون بها الوصول إلى قلوب الجماهير ليكسبوا ثقتها، كما استطاع منبر المسجد أن يفعل ذلك، وهو يخاطب الناس باسم الله، ويستحيش عاطفتهم الدينية بكلام الله، فيستجيبون بحمده".(1)

ولأنهم ضاقوا ذرعا بتدخل المسجد "في المصالح العامة التي تضطلع بها البلدية" لأنهم يتصورون "أن ذلك يحدث نوعا من التنافس بينهما" وجهلوا "أن من الخير لهم أن تكون هذه الجماهير المؤمنة طيّعة لما توجه إليه من بر ومعروف وإحسان، من أن تبقى فريسة للكفر والفسوق والعصيان، غير أن الشيطان سوّل لهم وأملى لهم، بأن ذلك مزاحمة لهم في النفوذ والسلطة".(2)

فطلبوا من الدوائر الدوائر الرسمية –وألحوا في الطلب– أن تحصر مهام المسجد في "الأذان والإقامة وغسل الأموات"،(3) وألحوا على تعطيل الوعظ والإرشاد والتعليم الديني الحر، أو جعلهما تحت الرقابة بحيث يعيّن من يتولى مهمة ذلك من طرف الحكومة وبتزكية من الحزب".(4)

والمؤسسة الثانية التي شنوا عليها حملاتهم هي مؤسسة التعليم الديني الحر، بدءا بالكتاتيب القرآنية فزعموا أن الطريقة المتبعة في هذه الكتاتيب بتعميم حفظ القرآن لكل التلاميذ "لاتجدى نفعا، بل هي مضيعة لأوقاتهم، التي يجب أن نوفّرها لهم في الحصول على المعارف الحديثة، لأن القليل من الحفظة لكتاب الله يكفي لعمارة المساجد، ويمكن لغيرهم من الطلاب أن يطالع القرآن من المصحف حتى يفهم معانيه، كما يطالع أيّ كتاب في الأدب العربي شعرا ونثرا".(5)

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 46.

(2) – المصدر نفسه، ص : 46.

(3) – المصدر نفسه، ص : 46.

(4) – المصدر نفسه، ص : 46.

(5) – المصدر نفسه، ص : 33.

وبعد الكتاتيب جاء دور المدارس الحرة التي استطاع الشيخ بيوض بمؤازرة إخوانه في الإصلاح في الجنوب أن يحافظوا عليها بعد صدور مرسوم 28 أكتوبر 1962م الذي يقضي بإلحاق هذه المدارس بالتعليم العمومي،(1) فدأبوا "منذ فجر الإستقلال الوطني على مطالبتهم بغلق هذه المدارس أو إلحاقها بالتعليم الرسمي"، وقاموا بحملات إعلامية لدفع المسؤولين إلى ذلك،و"كم نشروا من مقالات في الجرائد بهذا الصدد، وكم كتبوا من تقارير يزيّفون فيها الحقائق على المسؤولين بأسلوب من الإغراء دونه وساوس الشيطان".(2)

وحاولوا أن يلبسوا تحاملهم على التعليم الحر بلبوس الأدلة العلمية، والبراهين المنطقية، فادّعوا أن مناهج وبرامج التدريس في هذه المدارس لاتراعي فيها القواعد العلمية التي توصل إليها علماء التربية.

ودليلهم على زعمهم هذا، أن التلميذ في المدرسة الحرة بحكم دراسته كذلك في المدرسة الرسمية "يعمل لأزيد من اثنتي عشرة ساعة، عملا متواصلا، لاراحة له فيها كامل السنة، ولاحظّ له في العطل أبدا، مع التكليف اليومي بالتمارين المتنوعة من طرف المدرستين، هذا بالإضافة إلى الأعمال الإستثنائية التي تثقل كاهل الطفل كإحياء الحفلات التي تتواصل إلى الثانية عشرليلا، أما ما يجب على الطفل أن يقوم به من أعمال إضافية في الحقل والمنزل يوميا بحكم البيئة وجهل الأولياء، وإلا اعتبر عاقا، فحدّث عنه ولاحرج".(3)

ثم يتوجهون إلى المسئولين محرّضين بقولهم "وهذا قليل من كثير، مما يجب أن ينتبه إليه المسؤولون في وزارتي الإرشاد والأوقاف، ويجعلوا حدا لهذا الإرهاق المضني، وهذه الفوضى التي تسود التعليم، ويعملوا على توحيد التوجيه حتى يكون ملائما للعصر".(4)

وواصلوا حملاتهم الإعلامية التي يبثون فيها -كما يقول الشيخ بيوض- " أباطيلهم ويفتلون في الدلو والغارب لدى السلطات الرسمية [...]، وهم في ذلك لايألون جهدا في استعمال أساليب التهييج والإستفزاز فيما كتبوه، تحت عناوين مغرية مثل قولهم : "لفئة أيها

---

(1) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 33.

(2) - المصدر نفسه، ص : 28.

(3) - المصدر نفسه، ص : 36.

(4) - المصدر نفسه، ص : 36.

المسؤولون، لكأن الخطر محدق بهم، فهم يستغيثون ويستنجدون".(1)

وربما نتيجة لهذه الحملات الإعلامية التي كان يشنّها هؤلاء "اللاّئكيون المتحلّلون" على مؤسسات التعليم الحر، صدر قانون توحيد التعليم سنة 1976، الذي حاول بعض ولاة الأمور في منطقة ميزاب استغلاله حتى "يؤمموا هذه المدارس بكيفية تعسّفية"، لكنّ الشيخ بيوض وفق في مساعيه مع رئاسة الجمهورية، فصدر قرار رئاسي يوم 17 جويلية من نفس السنة يستثني المدارس الحرة في ميزاب من قانون توحيد التعليم. (2)

ثم إنهم وجهوا ضرباتهم إلى النظم الإجتماعية التي تميزت بها منطقة ميزاب وعلى رأسها نظام العزابة، لأنهم كانوا يشاهدون ماكان لهذه النظم من سلطة على المجتمع الميزابي فتيقنوا أنه لايمكنهم النجاح في محاولاتهم لتغريب هذا المجتمع إلا بإزالة هذه النظم أو الحد من صلاحياتها على الأقل.

فزعموا أن نظام العزابة كان دوما مصدرا للعنصرية والتفريق بين الإباضية والمالكية، وقد أفرط في الأخذ بالأساليب الدينية العتيقة في تربيته"،(3) وزعموا أنه "لم يعد يتماشى مع متطلبات العصر، وأنه نظام رجعي، أكل عليه الدهر وشرب"، وألّحوا في مطالبتهم بالحد من دوره الإجتماعي، وقصر دوره فقط في الإشراف على الشعائر التعبدية، فطلبوا من الدوائر الرسمية -كما يقول الشيخ بيوض وهو رئيس عزابة القرارة- "أن تحصر مهمتنا في الأذان والإقامة والصلاة وغسل الأموات".(4)

وإدراكا منهم أنهم لن يصلوا إلى أهدافهم، مادام نظام العشائر قائما، ويلعب دورا هاما في ضبط حياة الفرد داخل المجتمع الميزابي، طالبوا بإزالة هذا النظام، وادعوا أنه "مدعاة للعنصرية" وسبب النزاعات والمناوشات التي تحدث بين عشيرة وأخرى.(5)

وهوّل هؤلاء "المتحاملون" مسألة الخلاف المذهبي بين الإباضية والمالكية، وأذاعوا أن

---

(1) - ابراهيم بيوض حديث الشيخ الإمام، ص : 35.

(2) - ابراهيم بيوض حديث الشيخ الإمام، ص : 41

(3) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 27 - 28.

(4) - المصدر نفسه، ص : 45

(5) - المصدر نفسه، ص : 46.

المساجد الإباضية تسخّر منابرها "لتعميق الخلاف حتى أصبحت وكرا للطائفية والعنصرية".(1)

والغريب في الأمر -كما يقول الشيخ بيوض- "أن يتولى كبر هذه الدعاية بعض أبناء المنطقة من الميزابيين لاغيرهم، إلامن يردّد أقوالهم بالتبع".(2)

وهدفهم من وراء إثارة هذه المسألة وتهويلها -كما يؤكد الشيخ بيوض- هو أن تكون حجة قوية بين أيديهم يدعمون بها "مطالبهم بوجوب الإسراع لإسكات هذه المنابر، ثم الإشراف على نظام الغرابة، إما بإبطاله تماما، أو بجعله مزدوجا بين الطائفتين، وتكوين جمعيات مختلطة للوعظ والإرشاد، وتوجيه الجماهير".(3)

ولما لاحظ هؤلاء "اللائكيون المتحللون" أن حملاتهم هذه لم توت أكلها، ولم تصل بهم إلى النتائج المرجوة، حاولوا القيام بخطوات عملية لتقويض هذه النظم من الداخل، وذلك باستغلال بعض الأطر التي توغلوا فيها، كالاتحادات الشبيبة والاتحادات النسوية، فركزوا على الشباب لأنهم -كما يقول الشيخ بيوض- "ظنوا أن الشباب هم مناط الأمل في تحقيق مايصبون إليه، فراحوا يفتلون له في الدلو والغارب ليستميلوه إليهم [...]، ولطالما دفعوا هذا الشباب إلى التمرد، وزينوا له العصيان بدعوى حرية التفكير، واستقلال الشخصية، وحرشوهم للانفلات من القيود الإجتماعية في إشباع نزواتهم، وهم في ذلك مزودون بكثير من المغريات التي يميل إليها الشباب".(4)

وحاولوا نفس المحاولة مع المرأة الميزابية، فشنوا حملة يتقدون فيها الأوضاع المأساوية التي تعيشها -كما يزعمون- "فأغرقوا في النزع، وأفرطوا في اللمز واللدغ" واتهموا المجتمع الميزابي "بالشلل في نصف تركيبته البشرية واتهموه بالعطل في طاقاته الحيوية".(5)

ودعوا المرأة الميزابية -إن كانت تطمح إلى تغيير وضعها- أن تنخرط في اتحادهم

---

(1) -ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام ، ص : 57.

(2) - المصدر نفسه، ص : 55

(3) - المصدر نفسه، ص : 55

(4) - المصدر نفسه، ص : 71

(5) - المصدر نفسه، ص : 71

النسائي، يقول الشيخ بيوض -يصف دعايتهم وأساليب الإغراء التي استخدموها - :"ولكم أشادوا بهذه المنظمة، وتأسفوا لغياب نسائنا عنها، إذ يفوتهن الكثير -فيما يزعمون - لما يمكن أن يستفدن منه في مجال التربية والتكوين، حتى لكأننا شعب بدائي تعوزه هذه الوسائل، فجاءت هذه المنظمة لتنقذنا من الظلمات إلى النور، ألاساء مايظنون".(1)

لكن المرأة الميزابية لم تستجب لنداءاتهم، وذهبت دعايتهم مع أدراج الرياح، فازداد غضبهم وسعارهم، فلجأوا "إلى نوع من الإجبار والقسر بسلطة القانون، ولولا لطف الله لوقع في ذلك مالا تحمد عقباه".(2)

والخلاصة أن الشيخ بيوض في تقويمه لواقع مجتمعه أرجع أسباب الفساد الذي مس المجتمع الجزائري في فترة الإحتلال الفرنسي إلى ثلاث فئات : الإستعمار، وأذنابه من القياد المفسدين، والعلماء الجامدين، وحمل الفئة الثالثة القسط الأكبرمن المسؤولية، بينما أرجع أسباب الفساد الذي أصابه بعد الإستقلال إلى فئة "اللائكيين المتحللين" الذين توغلوا بقوة في مؤسسات الدولة الجزائرية، وإلى من وقف في صفهم وآزرهم ممن لاهدف لهم إلا التزلف لأولياء نعمتهم حتى ينالوا رضاهم ويبقوا في مناصبهم.(3)

والملاحظ أن الشيخ بيوض في تقويمه لواقع المجتمع الجزائري قد ركز كثيرا على منطقة ميزاب، لأنها كانت المجال الذي تحرك فيه، واستغرق القسط الأكبر من جهوده، بينما كان غيره من علماء الإصلاح يتحركون في مناطق أخرى، وقد نسقوا جهودهم بداية من سنة 1931م في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وسنلاحظ عند حديثنا عن المنهج الذي سلكه الشيخ بيوض لإصلاح أوضاع مجتمعه، أن هذا المنهج إنما تحدّد انطلاقا من هذا التقويم، الذي ركز فيه الشيخ بيوض على جانبين كبيرين هما : الجانب التعليمي التربوي، والجانب الإجتماعي.

وفي الفصل الموالي نبدأ بالحديث عن جهود الشيخ بيوض في المجال التعليمي والتربوي لأنه المجال الأول الذي ركز فيه جهوده.

---

(1)-(2) - أبراهيم بيوض : حديث الشيخ الإمام، ص : 71.

(3) - المصدر نفسه، ص : 58.

الفصل الثاني :

منهج الإصلاح التعليمي التربوي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيـــــد :

لقد لاحظنا من خلال تتبعنا لآراء الشيخ بيوض في موقفه من واقع المجتمع الجزائري أنه لم يكن من أولئك المثقفين الذين يكتفون بإلقاء التبعة على الإستعمار وحده فيما أصاب المجتمع الجزائري من تخلف، وماشاع فيه من فساد، بل كان يدرك أن الأسباب التي تعرقل حركة هذا المجتمع نحو التطور "وتشد تطوره إلى نسق متلكئ، والتي تزرع القلق والعجز، وأخيرا الفوضى في حياته" (1)، تعود في الأساس إلى "القابلية للإستعمار" التي أصيب بها.

هذه القابلية التي جعلت الجزائريين يردّدون باستمرار لتبرير جمودهم وشللهم الإجتماعي، "لسنا بقادرين على فعل شيء، لأننا جاهلون، لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء، لسنا بقادرين على تصوّر هذا الأمر لأن الإستعمار في بلادنا". (2)

وقد أدرك الشيخ بيوض أنه إذا أريد لحركة الإصلاح أن تنجح في مساعيها، فيجب أن تبدأ أولا بتغيير المفاهيم والتصورات، وإصلاح المعتقدات الفاسدة التي توجه سيكولوجية المجتمع وقواه النفسية، وتؤطّر سلوكاته، قبل التطرق بالإصلاح للجوانب الأخرى من النظم الإجتماعية والجوانب المادية لحياة المجتمع.

فالمشكلة -في نظر الشيخ بيوض- في أساسها مشكلة فكرية، لذلك كانت حركته كما يؤكد أحد تلاميذه- وهو الأستاذ الحاج أيوب ابراهيم القرادى- : "تهدف أساسا إلى تغيير المفاهيم، وتصحيح التصورات". (3)

ولا يتحقق هذا التغيير في المفاهيم إلاّ من خلال عمل تعليمي وتربوي ذى منهج سليم - كما يخلص إلى ذلك الشيخ بيوض حين يقول : " عرفنا من زمن بعيد أن لاصلاح للوطن إلا بالعلم الصحيح، فدرجنا في سبيله، وضحينا فيه بكل عزيز". (4)

---

(1) – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ص :87.

(2) – المصدر نفسه ، ص : 80.

(3) – محمد ناصر، في رحاب القرآن، الإمام الشيخ ابراهيم بيوض، ص : 141.

(4) – ديوز ، اعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 72

وهذه النتيجة التي توصّل إليها الشيخ بيوض كانت قدرا مشتركا بين كلّ الحركات الإصلاحية والتغييرية التي ظهرت في العالم الإسلامي، بل وبين كثير من الحركات التحرّرية في شتى بقاع العالم الإنساني، حيث كانت هذه الحركات تدرك أن التعليم هو السبيل المضمون للمحافظة على مقوّمات شخصية المجتمع، وتخليصه من القابلية للإستعمار، وكانت ترد على كل من يزعم أن سلوك هذا المنهج يستغرق وقتا طويلا بالكلمة التي قالها الفيلسوف الألماني "فيخته fichte" : "ولكنّ طول الوقت لتحقيق هذه الغاية يجب أن لايحول دون اهتمامنا بها اهتماما كبيرا، لأن الغد أهم من اليوم، ولاسيما أنّ زمام اليوم قد خرج من بين أيدينا، ومانملكه الآن هو الغد وحده، فيجب علينا أن نبذل مانستطيع لتحسين هذا الغد". (1)

وقد أدرك المستعمر الدور الخطير للعمل التعليمي فشرع منذ أن حطّ رحاله فوق الأرض الجزائرية "يخصّص لأبناء المستعمرات مدرسة استعمارية يستعمر بها عقولهم" و"يتدخل تدخلا مباشرا في جميع تفاصيل الحياة، حتى الدينية منها"، (2) فأصدر في 30 سبتمبر 1850 مرسوما يقضي بإنشاء ثلاث مدارس في مدن المدية وتلمسان وقسنطينة بهدف تكوين أئمة ومفتين وقضاة، وجعل هذه المؤسسات تحت الرقابة المباشرة للسلطات العسكرية "لأنّ لها طبيعة سياسية". (3)

فاستطاع النجاح نسبيا في تخريج قيادات فاسدة تعمّق من قابلية مجتمعها للإستعمار. فكان نتاج هذه المدارس كما يؤكد الأستاذ مالك بن نبيّ : "إمام خوون، مفت فاسد، وقاض منافق مرتش". (4)

وأعلنت السلطات الإستعمارية الحرب على المدارس الحرة، حتى لاتبقى جبهة يمكن أن

---

(1) – ساطع الحصري ، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، ط4، دار العلم الملايين، بيروت، 1959، ص : 25-26 نقلا عن تركي رابح ، التعليم القومي الشخصية الجزائرية ، ص : 49.

(2) – مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ص : 100.

(3) – أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ط ؟، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص : 66

(4) – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص : 108.

يتحصن بها المجتمع الجزائري في دفاعه عن مقوّمات شخصيته، فأصدرت مراسيم كثيرة الهدف منها تضييق الخناق على هذه المدارس في المرحلة الأولى للحد من دورها، ثم القضاء عليها في مرحلة ثانية، ومن هذه المراسيم مرسوم 18 أكتوبر 1892م.(1)

وفي نفس الوقت شجّعت الفكر الخرافي الذي يحدث القطيعة بين الأسباب والمسبّبات في عقل "الأهلي"، ففتحت المجال أمام كتّاب الأحجية والتمائم ورخّصت لهم بفتح محلات خاصة تسهيلا لنشاطهم.(2)

ولكنّ هذه المخططات التي وضعها الإستعمار ماكانت لتنجح -في نظر الشيخ بيوض لولا وجود مرتع خصب قابل لها، من عامة جاهلة، أحاط بها الجهل من كل جانب ف "الجهل عم الدنيا"، (3) ومن "علماء جامدين" تلقوا ثقافة تقليدية لم تمكّنهم من استيعاب قضايا عصرهم، فاستغلهم المستعمر استغلالا فاحشا في تنفيذ خططه، والوصول إلى أهدافه.

وكان الشيخ بيوض يخالف أولئك الذين يدعون إلى المواجهة المسلّحة مع المستعمر دون استكمال العدّة اللازمة لذلك، ويرى أنه يجب استعمال أسلوب المراوغة والمداورة مع المستعمر إلى حين الإعداد الكامل لهذه المواجهة، يقول الشيخ بيوض : "إنّ لنا خصوما أقوياء من ذوي السلطان، وضعت مقدراتنا بين أيديهم، فعلينا أن نعلم أننا لاننال منهم شيئا إلا بالحكمة والتبصّر والأناة والديبلوماسية والمرونة السياسية، وعلينا أن نعلم أن سياسة "زمّ حقائبك واخرج" سياسة خرقاء غير رشيدة، وأنّ أوانها لم يحن بعد". (4)

وحتى بعد اندلاع ثورة نوفمبر 1954 كان الشيخ بيوض يحثّ طلبته الذين أوفدهم إلى تونس على المشاركة في أعمال الثورة بما يستطيعون، لكن دون أن ينسوا أن المهمّة التي أرسلوا من أجلها هي التحصيل العلمي، وهي مهمّة تتعلق بمستقبل المجتمع الجزائري، قال

---

(1) – تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 421-422.

(2) – أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص : 61.

(3) – دبوز، أعلام الاصلاح ، ج4، ص 146.

(4) – دبوز، نهضة الجزائرية الحديثة، ج3، ص : 204.

الشيخ بيوض مخاطبا تلاميذه : "وكذلك أنتم الطلبة، عليكم أن تساهموا بما في وسعكم، دون أن تخلّوا بواجبكم الدراسي، ومهمتكم التي أوفدتم لها، وهي التكوين العلمي قبل كل شيئ". (1)

لأنّ القضية في نظر الشيخ بيوض لاتتوقف عند حدّ إخراج المستعمر، بل ينبغي أن تمتدّ لإزالة الأسباب التي جعلت في هذا المجتمع قابلية للإستعمار.

بل إنّ الشيخ بيوض يرى أنّ ثورة نوفمبر نفسها كانت نتيجة حتمية للوعي الذي تأصّل في الجماهير عن طريق مدارس التعليم الحر، يقول الشيخ بيوض : "وإنّ التعليم الحر في طول البلاد وعرضها كانت له اليد الطولى في الحفاظ على الأصالة العربية والإسلامية في هذه الأمة، مما أتاح للوعي الوطني أن يفجّر الثورة التحريرية المباركة في فاتح نوفمبر 1954". (2)

واستمرت قناعة الشيخ بيوض بضرورة استمرار الحركة الإصلاحية في الجزائر في سلوك هذا المنهج بالمحافظة على المؤسسات التعليمية التي أنشأتها وعدم تسليمها للدولة، لأنّه كان يرى أن المدارس الرسمية التي تشرف عليها الدولة لاتولى اهتماما كبيرا لتكوين التلاميذ تكوينا دينيا يبصّرهم بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها، ويشعرهم بشخصيتهم التي تميزّهم عن الآخرين.

فغداة الإستقلال استقبل الشيخ بيوض الشيخ عبد اللطيف سلطاني -ممثّل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قبل دخول الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الجزائر- ودار الحوار بينهما حول مستقبل مدارس التعليم الحر، فذكر الشيخ عبد اللطيف سلطاني أنّ الجمعية ستسلّم مدارسها للدولة الجزائرية، وتصدر الأوامر إلى معلّميها ليدخلوا التعليم الرسمي، بينما عارض الشيخ بيوض أن تسلم هذه المدارس، وتأسّف للموقف الذي اتخذته الجمعية. (3)

وانطلاقا من هذا التحليل لواقع المجتمع الجزائري الذي أوصل الشيخ بيوض إلى ضرورة سلوك المنهج التعليمي التربوي لإصلاح ماحلّ بالمجتمع من فساد، حدّد الشيخ بيوض

---

(1) – إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة ، ص : 99.

(2) – إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 29.

(3) – الأستاذ بلحاج بن سعيد شريقي، مقابلة شخصيته، الجزائر العاصمة، 25 09 1993.

الأهداف التي يجب أن تعمل الحركة الإصلاحية على تحقيقها من خلال سلوكها لهذا المنهج، وحدّد المؤسسات التي ينبغي أن تتحرك في إطارها لتحقيق هذه الأهداف.

وسنتحدث أولا عن أهداف المنهج التعليمي التربوي كما يتصورها الشيخ بيوض، ثم نتحدث في مبحث ثان عن المؤسسات التي أرشد للعمل فيها لتحقيق هذه الأهداف.

1)- أهداف المنهج التعليمي التربوي :

حدّد الشيخ بيوض الأهداف التي ينبغي أن تتوخاها الحركة الإصلاحية من خلال سلوكها للمنهج التعليمي التربوي في هدفين اثنين :

- **الأول** : تكوين نخبة مثقفة راشدة، لأن وضع المجتمع المزرى كما يؤكّد بحاجة "إلى شباب متنوّر متعلم تعليما صحيحا، متربّ تربية فاضلة، شديد التمسك بدينه ومقوّماته، إذ هؤلاء هم بذرة الإصلاح، بل ركنه الشديد، في كل عصر ومصر، وعليهم لاغير تبنى الأمة صرح مجدها متينا". (1)

- **الثاني** : تحصين عامة المجتمع من الأفكار الدخيلة، والمحافظة على مقوّمات الشخصية العربية الإسلامية فيهم، وتوعيتهم ليكونوا في صفّ حركة الإصلاح.

وهما هدفان لم يكونا ليتحققا للجزائر -كما يؤكد الشيخ بيوض- لولا سلوك الحركة الإصلاحية لهذا المنهج، يقول الشيخ بيوض : "وهل كانت الجزائر المستقلة تتمتع اليوم بهذه الألوف المؤلفة من الطلبة والمعلمين، بل حتى من الجماهير التي تنطق بالعربية وتعتزّ بالإسلام، لولا هذا النوع من التعليم الحر الذي حافظ على أصالة هذه الأمة المغلوبة على أمرها في عهد الإستعمار البغيض". (2)

ويرى الشيخ بيوض أنّ نجاح الحركة الإصلاحية في الوصول إلى الهدف الثاني مرهون بنجاحها في تحقيق الهدف الأول، لأنّ النخبة المثقفة هي التي ستعمل على تحصين الجماهير من الأفكار الدخيلة وتحافظ لها على شخصيتها المتميزة.

---

(1) - ابراهيم بيوض، أبنائي الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع64، 10-02-1929م

(2) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام ، ص : 28.

كما يؤكد الشيخ بيوض أنّ هذه النخبة المثقفة لن تكون في مستوى هذا الدور الذي ينتظر منها إلا إذا تلّقت تكوينا متكاملا، تراعى فيه جميع الجوانب والأبعاد التي تُسهم في بناء شخصيتها.

ونحاول فيمايلي أن نركز على بعض الأبعاد التي أولاها الشيخ بيوض اهتماما كبيرا، واعتبر تغييبها في العمل التعليمي، يحوّل هذا الأخير إلى جهد ضائع.

- أولا : البعد العقدى :

أول الأبعاد التي ينبغي أن تراعى في تكوين هذه النخبة المثقفة البعد العقدى، فيجب "ملؤهم بالعقيدة الإسلامية، التي هي أساس الشخصية العملية الناجحة"، (1) وذلك بتزويدهم بنظرة واضحة عن القضايا الكبرى في هذا الوجود : الخالق، الإنسان، الكون، الحياة، هذه النظرة التي ستثمر في نفوسهم معرفة بالخالق عزوجل، وحبّا لرسوله صلى الله عليه وسلم، وشعورا بالحاجة إلى هداية الخالق، وتجعلهم يتعاملون مع نصوص الوحي كمصدر للمعرفة والهداية.

وقد انتقد الشيخ بيوض المنهج الذي سلكته المنظومة التربوية في الجزائر بعد الإستقلال عندما أهملت هذا البعد، فحرمت التلاميذ من الإستفادة من نصوص الوحي -قرآنا وسنة-، وجعلتهم يتعاملون معها كما يتعاملون مع أيّ كتاب في الأدب، يقول الشيخ بيوض : "أفترضى لأبنائنا المسلمين أن يتعامل أحدهم مع نص القرآن أو الحديث كما يتعامل المسيحي أو الملحد، قصارى أمره أن يضبط من خلاله بعض قواعد الصرف أو النحو والبلاغة، ثم لايحرّك فيه وجدانا، ولايقوده إلى معرفة الله ورسوله !".(2)

ويرى الشيخ بيوض أن غياب هذا البعد -المستمد من الوحي- لايمكن أن يعوّض ببديل آخر مما توصل إليه علماء النفس والتربية والاجتماع، يقول الشيخ بيوض :" والواقع العالمى

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص : 148

(2) - إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الامام، ص : 31.

يصدّق ذلك ويؤيده، إذ لا نتوقع لهذه المعارف التربوية منذ كانت، من عهد سقراط وغيره من الفلاسفة الأقدمين إلى يوم الناس هذا أن تبلغ ما بلغته من النضج والتركيز، فهل أعطت نتائج مرضية في تربية الفرد وتكوينه على الصلاح المنشود؟، لاوالله"، والدليل على ذلك الواقع العالمي :" فأين أنتم يا أساطين التربية الحديثة، ويا علماء النفس من هذا العالم المتهتك الخليع، إلحاد وفراغ روحي مهول، وخبث دنيء في النفوس، وفساد متأصّل في السلوك، وما يزال الوضع العالمي يتدهور من سيّء إلى أسوأ في دركات البهيمية "، والسبب في ذلك أنّ "هذه الفلسفات قد اطّرحت من أبحاثها وتحاليلها إرادة الله وهداية الرسل، ولم يعيروا اهتماما للوحي والرسالات السماوية، اغترارا بالعلم الذي عندهم، كما قال الله في شأن أمثالهم:﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ [غافر:83] ".(1)

ويرى الشيخ بيوض أنّ من الأسباب التي أفقدت العقيدة الإسلامية فاعليتها في مجال التربية، الطريقة التي كانت تطرق بها مباحثها، حيث يتم التركيز على مسائل من عالم الغيب قد لا يكون لها أيّ بعد عملي في حياة الناس، لذلك كان من الواجب تصحيح هذا المنهج، والاكتفاء عند طرق مباحثها بما يدفع إلى الحركة، وينتج عملا.

ونلحظ هذه الطريقة التي كان الشيخ بيوض يتناول بها مباحث العقيدة في أجوبته عن بعض الأسئلة التي وردت إليه في مسائل عقدية، فقد سئل مرة عن أحوال الموتى في البرزخ وهل يمكن أن يجتمعوا؟، فأجاب بقوله : " أحوال الموتى من أمور الغيب المطلق التي علمها عند الله، وفي القرآن الكريم ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ [النمل:65]، فلا نعلم شيئا عن اجتماعهم أو افتراقهم في البرزخ، [...]، فاشتغلوا بما يعنيكم، ودعوا ما لا يفيدكم".(2)

---

(1) – بيوض، حديث الإمام، ص : 22

(2) – ابراهيم بيوض، فتاوى الإمام الشيخ بيوض، ترتيب وتقديم وتخريج الشيخ بكير محمد الشيخ بالحاج، ط ؟، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1988، ج2، ص : 628 629

وسئل عما يروى من أحاديث في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان فقال: "والاشتغال بغير هذا من المهمّات الدينية والدنيوية أولى وأحرى، لأن البحث فيما سألت عنه لا يأتي بنتيجة مهما طال وامتد، فلا يعدو أن يكون تضييعا للعمر فيما لا فائدة فيه".(1)

ويحذر الشيخ بيوض من مزلق خطير وقعت فيه بعض الحركات الصوفية عندما ركّزت كثيرا على عالم الغيب، وأهملت عالم الشهادة، بل جعلت أتباعها ينظرون إليه نظرة احتقار وازدراء، على أنه المتاع الزائل الذي يجب الزهد فيه، فحولت أتباعها بذلك إلى "رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة، ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم". (2)

ويوضح الشيخ بيوض أن الزهد بهذا المعنى السلبي لايعدّ " وحده كافيا في خدمة الأمة، فلا بد من العلم معه"، لأنه "لايستطيع أن يخدم دينه وأمته إلاّ العلماء العاملون المخلصون[...]، هذا هوطريق الزهد الصحيح : العمل لله، والتضحية في سبيل إحياء الدين، وإنعاش المسلمين". (3)

فالغاية من التربية والتعليم -كمايؤكد الشيخ بيوض- هي : "رفع مستوى أمتنا دينا وخلقا، بكل وسيلة ممكنة، وإن أدت إلى إزهاق أرواحنا"، لذلك وجب التركيز على ترسيخ هذا البعد العقدى الذي يمكّننا من "أن نزهد في المادة الزهد المطلق، ولاننصرف عن سبيلنا إليها، ولواقتتنا حشيش البرية، وخصفنا ورق الشجر لستر العورة". (4)

- ثانيا :البعد الأصولي المقاصدى :

ومن الأبعاد التي ينبغي أن تراعى في العمل التعليمى -كما يرى الشيخ بيوض- البعد

---

(1) - ابراهيم بيوض، فتاوى الإمام الشيخ بيوض، ط1 "، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1988، ج1، ص : 69-70

(2) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 28.

(3) - محمد علي دبوز، أعلام الاصلاح، ج4، ص : 142.

(4) - ابراهيم بيوض، ابنائي الأعزاء، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع : رمضان 1348 هـ.

الأصولي المقاصدى، هذا البعد الذي يجعل هذا العمل يتجاوز تلقين الطلبة علـوم الشـريعة في فروعها وجزئياتها إلى التركيز على المقاصد والأهداف الكبرى التي جاءت الشريعة لتحقيقها في حياة الناس، والتركيز على المنهج الذي اعتمده العلماء في استنباط ذلك الكـمّ الهـائل مـن الأحكام الجزئية انطلاقا من ظروف البيئة التي عاشوا فيها.

وعندما ينتقد الشيخ بيّوض مواقف "العلماء الجامدين" الـتي خدمـوا بهـا الإسـتعمار مـن حيث لايشعرون، فإنه لاينتقد أشخاصا بعينهم، بل ينتقد المنهج الـذي أخـرج هـذا النمـوذج من العلماء الذي يغفل أن الشريعة الإسلامية إنّما جاءت لتحقيق مصالح العبـاد، لا للاضـرار بهم.

فكان هؤلاء العلماء -لما غاب هذا البعد في تكوينهم- يـرون المفاسـد الـتي تـترتّب عـن ابتعاد الصالحين الأكفاء عن تولّي الوظائف في الحكومة الفرنسـية، لكّنهـم مـع ذلـك يفتـون بحرمة تولّيها، ويعتمدون في فتاواهم على نصوص لايمكـن أن تفهـم حقّ الفهـم إلا في اطـار المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، فيتمسكون بالنص ويغضّون الطـرف عـن "الويـلات الـتي تتنزل من القياد والموظفين الفاسدين على الأمة".(1)

وكانوا يفتون بحرمة شراء مكس الأسـواق، رغـم أنهـم كـانوا يـرون الإسـتغلال البشـع الذي يمارسه التجار اليهود علـى التجـار المسـلمين بعـد شـرائهم لمكـس هـذه الأسـواق.(2) ومراعاة هذا البعد في العمل التعليمي هو الذي يثمر في المتكوّن "العقلية الراجحة" التي تحسن الموازنة بين المصالح، كما تحسن الموازنة بين المفاسد، والموازنة بين المصالح والمفاسـد، فتـدرك أن الخير والمصلحة ليس على درجة واحدة، فتجتهد في معرفة "خيرالخيرين"، وتدرك كذلـك أنّ المفاسد والشرور ليست في منزله واحـدة مـن حيـث الأضـرار المترتّبـة عنهـا، فتجتهـد في معرفه "شر الشرين" لتجتنب الوقوع فيه، إذا كان لابدّ من الوقوع في أحدهما، وتحاول دفع "الأثقل بالأخف"، وتقنع بالبعض إذا تيقّنت أن الكلّ ذاهب.(3)

---

(1) – دبوز، اعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 53.

(2) – المصدر نفسه ، ج5، ص : 72-73.

(3) – إذا أردت تفاصيل عن فقه الموازنات أنظر : يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة.

وهذه "العقلية الراجحة" -كما يؤكد الشيخ بيوض- هي المؤهّلة لأن تقود الحركة الإصلاحية إلى النجاح في صراعها ضدّ المتسلطين، لأنّها بحكم مراعاة هذا البعد الأصولي المقاصدى في تكوينها تحسن "استغلال الظروف والأشخاص والمناسبات"، وتلتزم مبدأ "المرونة السياسية" الذي يعتبر أحكم سياسة "للضعيف الأعزل مع القوي المدجّح".(1)

ويدعو الشيخ بيوض للوصول بالمتكوّنين إلى هذه "العقلية الراجحة" إلى العودة في فهم الإسلام إلى أصوله، قرآنا وسنة، مع استصحاب اجتهادات العلماء للإسترشاد بها، لاللالتزام الحرفي بها، وهو في هذه الدعوة يوافق الشيخ عبد الحميد بن باديس في انتقاده للمنهج الذي التزمه المسلمون -في عصور انحطاطهم- في دراستهم لعلوم الشريعة حيث "اقتصروا على قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلانظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفتى الأعمار قبل الوصول إليها".(2)

وتكوين هذه "العقلية الراجحة" التي ترتبط بالأصول وتراعي المقاصد -كما يؤكد الشيخ بيوض- هو الذي يضمن للحركة الإصلاحية ألاّتنحرف عن مسارها ولو انحرف قادتها وروادها أو أخطأوا الطريق، لأنها عقلية تزن الرجال بالحق، ولايسحرها القائد بشخصيته فتتعاضى عن أخطائه.

وكان الشيخ بيوض يؤكد هذا المعنى في عدّة مناسبات، ففي درس له في مدينة غرداية بتاريخ 22 سبتمبر 1944 قال مخاطبا أنصار حركته : "لاأرضى ممن يكون معى أن ينصرنى تقليدا، أريد أن يزن الناس كلامى بميزان العقل الصحيح الخالى من الأغراض، فإذا اقتنعوا بالحق أخذوه يقينا، وعملوا ودعوا إليه، وإذا أشكل عليهم استوضحوه، فإن وجدوا حقا أخذوه، وحمدوا الله عليه، وإن وجدوا باطلا ضربوا به عرض الحائط".(3)

---

(1)- دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص: 204

(2) - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص : 142.

(3) - محمد علي دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص : 87.

- ثالثا : البعد الإجتماعي :

يؤكد الشيخ بيوض أنّ العمل التعليمي ينبغي أن يهدف إلى ترسيخ البعد الإجتماعي في المتكونين الذين يعدّون لقيادة المجتمع، وبدون مراعاة هذا البعد لايكون لهذا العمل أيّ نفع، ويكون من باب العلم الذي لاينفع، ويعتبر بناء المدارس مع غياب هذا البعد من باب مضاعفة العدم الذي لايأتي في النهاية إلاّ بالعدم.

ونلاحظ في توجيهات الشيخ بيوض لتلاميذه تركيزا كبيرا على هذا البعد، فكان دائما يلفت انتباههم ويوجّه أذهانهم إلى الوظيفة الإجتماعية لطلب العلم، فيقول لهم : "أريد من كل واحد منكم أن يكون له أثر في المركز الذي يشغله، لاأريد أن يكون كميّة مهملة، تمرّ الشهور والأعوام، ولا يحسّ له أثر، ولا يسمع له صوت، ولا يظهر له عمل".(1)

ويروي لنا الشيخ بيوض حادثة وقعت له مع أحد تلاميذه تؤكد لنا مدى اهتمامه بترسيخ هذا البعد في نفوس تلاميذه، فيقول : "وقعت ذات يوم في عام 1934م معركة انتخابية عنيفة في وسط القرارة، فكان لي في السوق خطبة نارية، و لم يحضر أحد تلاميذي هذه المعركة، فسألته عن سبب غيابه عن المعركة، فقال : انتظرت في السوق، فلما لم يقع شيء، ذهبت لمطالعة دروسي، فاشتد غضبي عليه، وأشبعته عتابا مرّا، وقلت : المطالعة لاتفوت، ومنظر المعركة الإنتخابية يفوت، من لايشاهد هذه الحوادث الواقعية التي هي دروس بنّاءة، ولايمعن فيها النظر ليفهم حِكمها الكثيرة، ولايشارك فيها بالعمل، لايتثقف عقله، ولايبني خلقه، ويكون فسلا ضعيفا، لايقود أمته إذا قادها إلاّ إلى الهاوية".(2)

والصورة التي تشمئز منها نفس الشيخ بيوض هي صورة طالب العلم الذي يحصر نفسه وعقله بين جدران المكتبة، ويعتقد أنه بانكماشه يطلب العلم النافع، يقول الشيخ بيوض : "لاأرضى من تلميذي أن يقتصر على قراءة دروسه ومطالعتها بين الجدران، وهو منزو منكمش، لايعرف عن الحياة شيئا، أريد من تلاميذي أن يطبقوا معلوماتهم في المجتمع الذي

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ، ج3 ، ص : 206.

(2) – دبوز، اعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص : 102.

يسارعون لخدمته، ويختلطون بـه فيعرفونـه حـقّ المعرفـة، فيستعدون كـلّ الإسـتعداد لمعالجـة أمراضه".(1)

ويوضح الشيخ لتلاميذه أنّ الممارسة العملية، والنزول إلى الميدان لقيادة الأمة هو الهدف من التكوين الذي يتلقونه فيقول : "المشاكل في ميدان الحياة كثيرة، والخلافات بين الأفراد والجماعات تحدث كلّ يوم في كلّ قرية وفي كلّ مدينة، فاقتحموا ميـادين الإصـلاح، فضّوا المشاكل بالحلول المرضية، وسوّوا الخلافات بالعدل والحكمة، فـإنكم بذلـك تفرضـون وجودكم، وتعرّفون بأنفسكم، وتحملون الناس على احترامكم، وتعلّمون الأمة كيف تنقـاد للمثقفين". (2)

ويرى الشيخ بيوض أنّ غياب هذا البعد في تكوين "العلمـاء الجـامدين" هـو الـذي ألمّـر فيهم صفات كثيرة جعلتهم عاجزين عن متابعة واقع مجتمعهم من "جمـود في الفكـر، وجمـود في العمل، وأفن في الرأي، وجهل مطبق بأساليب الحياة" (3)، فجـرّت قيـادتهم علـى الأمـة محنا وبلايا كثيرة.

لذلك كان من الضروري –كما يؤكد الشيخ بيـوض– أن يراعـي في العمـل التعليمـي الذي يهدف إلى تكوين قيادات تصلح ماشاع في الأمـة مـن فسـاد حاجـة الأمـة إلى "قـادة أكفاء، ذوي عقول راجحة، وأفكار واقعية لاخيالية، لهم بصر بـالعواقب، ونفـاد إلى أسـرار الحوادث". (4)

ومراعاة لهذا البعد، حرص الشيخ بيوض وإخوانه في الإصـلاح، عنـد وضعهـم لبرنـامج "معهد الحياة" على اعتبـار واقـع منطقـة ميزاب وحاجـات شـعبها في تحديـد مضـامين هـذا

---

(1) – دبوز، أعلام الأصلاح في الجزائر، ج4، ص : 102.

(2) – دبوز، نهضة الجزائرية الحديثة : ج3،ص : 206.

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص : 205

(4) – المصدر نفسه، ج3، ص : 204

البرنامج، يقول الشيخ أبو القيطان (1) : "وقد اعتبر في وضعه [أي البرنامج] أهمية العلوم في نظر الشعب، ونفسية البلدة، وحالتهم الأدبية والمادية". (2)

ولما تأسست جمعية قدماء التلاميذ عام 1948، أصبحت هي المسؤولة على تطوير برامج معهد الحياة، فانشأت لجنة من أساتذة المعهد تحت إشراف الشيخ بيوض فراجعت برامج المعهد ومناهجه وحسّنتها، وجعلتها مواكبة للعصر. (3)

وبهذه التوجيهات التي كان يوجّه بها الشيخ بيوض تلاميذه حاول أن يبعد عن أذهانهم تلك النظرة التي سادت في عصر الإنحطاط، ومازالت تسود الأوساط العلمية من جامعات ومؤسسات إسلامية حيث "يبدو أنّ المثل الأعلى قد ظلّ كما كان منذ عصر الإنحطاط أن يصبح المرء "بحر علم" يزدرد العلم، ويفقد معنى دوره الإجتماعي ". (4)

وبتكييف البرامج التعليمية مع واقع المجتمع كان الشيخ بيوض يرمي إلى تكوين قيادات بعيدة عن "التشبّث بأذيال الماضي، والتحليق في الخيال"، (5) وإلى تجنيب العمل التعليمي أن ينطبع "بطابع دارس لايتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل".(6)

---

(1) - الشيخ أبو اليقظان ابراهيم بن عيسى حمدي، أحد زعماء حركة الاصلاح في الجنوب، ولد بالقرارة عام 1308هـ/1888م، درس على قطب الأئمة الشيخ اطفيش في بني يزقن، ثم سافر إلى تونس عام 1912م، وتتلمذ فيها على الشيخ الطاهر بن عاشور وغيره، ويعتبر بحق أب الصحافة الجزائرية، حيث أصدر ثمانية صحف هي : وادي ميزاب، المغرب، النور، البستان، النبراس، الأمة، الفرقان، انتخب عضوا في إدارة جمعية العلماء ونائبا لأمين المال عام 1932. توفي في القرارة عام 1393هـ، 1973م.

يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، ص : 189-192.

(2) - المصدر السابق، ج3، ص : 23.

(3) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة..، ج3، ص : 215.

(4) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص : 53.

(5) - المصدر نفسه، ص : 50.

(6) - المصدر نفسه، ص : 54.

هذه هي أهم الأبعاد التي أكد الشيخ بيوض أن على الحركة الإصلاحية مراعاتها في عملها التعليمي التربوي، إذا أرادت لهذا العمل أن يثمر قيادات كفأة، لها القدرة على قيادة مجتمعها، وإصلاح ماشاع فيه من فساد.

ولتحقيق الهدفين الذين أشرنا إليهما، أي تكوين نخبة مثقفة راشدة، وحماية المجتمع من الأفكار الدخيلة، أرشد الشيخ بيوض إلى استغلال عدة أطر، والعمل في عدة مؤسسات، وفيمايلي حديث عن هذه المؤسسات :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 - مؤسسات العمل التعليمي التربوي :

قبل الحديث عن هذه المؤسسات نؤكد أن العمل الذى قام به الشيخ بيوض في ميدان التربية والتعليم يعتبر حلقة في سلسلة الأعمال التى قام بها علماء قبله في منطقة ميزاب، يقول الشيخ -معترفا بهذه الحقيقة- : " فنهضتنا اليوم استمرار للنهضة الدينية والعلمية التى بدأها الشيخ يحى بن صالح الأفضلى (1) والشيخ عبد العزيز الثميني (2)، ورفع لواءها بعدهما شيخنا اطفيش رحمهم الله جميعا".(3)

ومع اعترافه بجهود من سبقه، فهو يعتقد أن البر بهؤلاء العلماء يقتضى تجديد وتطوير ما توصلوا إليه، وقد صرّح الشيخ بهذا الاعتقاد وهو يخاطب أحد أعلام الإصلاح في بنى يزقن فقال: " قد عملتم ونحن في أصلاب آبائنا، ومهّدتم لنا السبيل، وفتحتم لنا الأبواب، وأخذتم بأيدينا، إن سعادتكم اليوم أن تروا أبناءكم يَقْفُون خطاكم في طريق الإصلاح، ويرفعون ما بنيتم [...]، لقد أخذنا أمانة الإصلاح من أيديكم، فيجب أن نبلغها أبناءنا أحسن مما أخذناها، وإلاّ كنّا عاقّين لآبائنا".(4)

لذلك لم تخرج المؤسسات التى حدّدها الشيخ لتحقيق أهداف عمله التعليمى التربوى عن إطار المؤسسات التى حدّدها غيره من علماء الإصلاح ممن سبقوه أو عاصروه، فقد ظلّت هذه المؤسسات -كما يؤكد الاستاذ أبوالقاسم سعد الله-: "في جوهرها واحدة،

---

(1) - ولد بن بني يزقن عام 1126هـ-1714م، درس على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي في جربة مدة اثنى عشر عاما، ثم سافر إلى مصر فلازم دروس المدرسة الإباضية بها، وبعد رجوعه إلى ميزاب تصدى للتدريس، له تلاميذ كثيرون منهم الشيخ ضياء الدين الثميني، ويعتبر مؤسس النهضة العلمية في وادي ميزاب، توفي في رجب 1202هـ .يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب ، ص : 81-82.

(2) -هو الشيخ ضياء الدين عبد العزيز من الحاج ابراهيم الثميني، ولد في بني يزقن سنة 1130هـ/1718م، نبغ في العلوم العربية وعلم الكلام والحديث والفقه والحساب، من أشهر مؤلفاته مؤلفه في الفقه : النيل وشفاء العليل، ويشتمل على اثنين وعشرين كتابا في العبادات والمعاملات. يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، ص : 82 84.

(3) - محمد علي دبوز : اعلام الاصلاح في الجزائر، ... ج4، ص : 141.

(4) - المصدر نفسه، ... ج4، ص : 78.

وهي المسجد والمدرسة والنادى والصحافة".(1)

وسنحاول فيما يلى أن نلقي إطلالة على بعض هذه المؤسسات التى تحرك الشيخ بيوض في إطارها أو أرشد إلى ضرورة العمل فيها، وعلى بعض الإضافات التى أضافها ليجعل هذه المؤسسات مواكبة للعصر، وفعّالة في الوصول إلى الأهداف المنشودة منها.

- أولا : مؤسسة الأسرة :

يرى الشيخ بيوض أنّ للأسرة -كمؤسسة مهمّة من مؤسسات المجتمع- دورا كبيرا في تربية الجيل الناشىء، ويجعل دورها التربوى في الطليعة قبل المسجد والمدرسة، يقول الشيخ بيوض: " التربية تبدأ من الأم الوالدة، ومن الأب الوالد، من اليوم الأول [...]، فالمربى الأول الأم، ثم الأب، ثم المعلمون في المدارس والكتاتيب والمحاضر القرآنية، ثم الأساتذة في التعليم المتوسط والثانوي، ثم العالى، حتى نصل إلى درجة الوعاظ والمرشدين المسؤولين عن أممهم ".(2)

ويستدل الشيخ بيوض على هذا الدور الخطير الذى تؤديه مؤسسة الأسرة في الميدان التربوي بحديث النبى صلى الله عليه وسلم: "يولد المولود على الفطرة، فأبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه". (3)

ويرى أنّ دور هذه المؤسسة ينبغى أن يوجّه لكي يمسّ جميع الجوانب في ... شخصية الطفل، الجانب البدنى، والجانب العقلى، والجانب الأخلاقى السلوكى، يقول مؤكدا ذلك:

---

(1) - ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط2، دار نافع للطباعة، مصر، 1977، ج3، ص : 94-95.

(2) - إبراهيم بيوض، تربية الأبناء، دروس مخطوطة، نقلها عنى الشريط عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، موجودة بمكتبته الخاصة القرارة، ص : 18.

(3) - صحيح البخاري، باب في الجنائز، ج2،ص 118

"عليهما [أي على الوالدين] تربية الابن تربية بدنية، وتربية عقلية، وتربية خلقية حسب مراحل العمر".(1)

ولكي تقوم هذه المؤسسة بهذه الوظيفة أحسن قيام، فمن اللازم تزويد المشرفين عليها بثقافة تربوية، تعرّفهم على نفسية الطفل وغرائزه في مراحل عمره المختلفة من جهة، وعلى المؤثرات الخارجية التي تسهم بطريق مباشر أو غير مباشر في توجيه سلوكه من جهة أخرى.

وشعورا منه بضرورة نشر هذه الثقافة التربوية، ألقى الشيخ بيوض مجموعة من الدروس في مسجد القرارة تدور كلها حول محور تربية الأبناء، بدأها بتحديد الهدف من التربية في الإسلام، حيث أكد أنّ "التربية المقصودة في الإسلام إنما هي تربية الإنسان ليسعد أولا في أخراه، ثم في دنياه"، (2) مستدلا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولاتنس نصيبك من الدنيا...**﴾ [القصص : 77]، وبقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة** ﴾ [التحريم : 6].

ثم يعطي الشيخ بيوض توجيهات للوالدين تتعلّق بنفسية الطفل، وببعض الغرائز التي فطر عليها، وكيفية استثمارها في التربية، فيذكر أنّ الطفل فطر على مجموعة من الغرائز منها، غريزة حبّ التملّك، وحبّ الثناء، وحبّ التفوق، وحبّ التنعّم، وحبّ التطلع والمعرفة .

ودور التربية هو تهذيب هذه الغرائز، يقول مقررا ذلك : "على الوالدين تعديل هذه الغرائز، وليس إماتتها، وليس إطلاقها". (3)

ويضرب الشيخ بيوض للوالدين بعض الأمثلة يبيّن لهم من خلالها الطرق والأساليب التي تمكّنهم من تعديل هذه الغرائز، من خلال أشياء بسيطة في حياة الطفل.

فمثلا تظهر غريزة حبّ التملك والإستلاء والإستئثار بالأشياء في الطفل وهو يأكل على مائدة الطعام، فتراه يجمع الطعام أمامه، وقد لايأكل إلاّ القليل منه، وهنا كما يؤكد الشيخ بيوض –يأتي دور توجيه هذه الغريزة،يقول الشيخ بيوض : "وهذه رغبة ولاينجب أن

---

(1) – إبراهيم بيوض، تربية الأبناء، دروس مخطوطة، ص: 18

(2) – المصدر نفسه ، ص: 31

(3) – المصدر نفسه، ص : 78

ننزع من الولد حبّ الدنيا أو المال، ولكن نبين له الحدّ الذي يجب أن يقف عنده، فيقال له : كل مما يليك [...]، وهل تقبل من غيرك أن يأكل مما يليك، وبهذا يفهم الولد أن لحبّ التملك حدًا ينتهي إليه".(1)

ويمثّل الشيخ بيوض بغريزة ثانية، وهي غريزة حبّ التطلع والمعرفة، التي يعتبرها من أعظم الغرائز التي فطر عليها الإنسان، وتظهر في الطفل في المراحل الأولى من عمره، حيث تكثر أسئلته عن الأشياء التي يلاحظها من حوله.

ويوجّه الشيخ الوالدين إلى التعامل بحكمة مع هذه الغريزة حتى لاتكبت ولاتقتل في الطفل، وينصحهما بإجابة طفلهما عن أسئلته التي يطرحها مهما كانت محرجة، بالقدر الذي يتناسب مع سنّه، يقول الشيخ بيوض : "وإنما يجب أن يكون الجواب بالقدر الذي يتناسب مع السؤال حسب فهم الولد، وأقلّ مايمكن أن يقال له، هذا شيء لاتدركه وأنت صغير، وعندما تكبر ستفهم، فلا تقتل فيه حبّ المعرفة بالضرب أو بالغضب على سؤاله".(2)

ثم يؤكد الشيخ للوالدين أن الولد يتأثر بسلوكهما أكثر من تأثره بأقوالهما، خاصة في المراحل الأولى من عمره، لذلك يجب عليهما مراقبة مايصدر منهما من سلوكات أمام طفلهما، فهناك آباء -كما يقول الشيخ بيوض- : "لايتحاشون عن السبّ والشتم والنطق بالفحشاء وفعل بعض المنكرات مثل الميسر بمحضر أبنائهم، وعلى مرأى ومسمع منهم، وعبثا يحاولون بعد ذلك ردعهم عن مثل تلك القبائح، فتأثير الأفعال في الولدان أشدّ وأقوى بكثير من تأثير الأقوال، بل لايتعلمون من نهيهم عنها بعد فعلها أمامهم إلا النفاق". (3)

ثم يذكر في الأخير أنّ الطفل يتأثر بسلوكات أقرانه، لذلك يجب على الوالدين مراقبة طفلهما في محيطه الخارجي لحمايته من قرناء السوء. (4)

وخلاصة القول، أنّ الشيخ بيوض يدعو إلى الاهتمام بهذه المؤسسة الأولى التي ينشأ

---

(1) – ابراهيم بيوض، تربية الأبناء، ص : 78. 79.

(2) – المصدر نفسه، ص : 93 94.

(3) – ابراهيم بيوض، واجب الآباء نحو الأبناء، مقال، جريدة وادي ميزاب، ص 1، ع : 19، 11 02 1927.

(4) – ابراهيم بيوض، تربية الأبناء، ص : 152

فيها الطفل، وتكوين المشرفين عليها تكوينا تربويا، حتى تكون تربية الطفل فيها على أسس علمية.

- ثانيا : مؤسسة المسجد :

يرى الشيخ بيوض أن المسجد كمؤسسة من مؤسسات التربية والتعليم لاتضاهيه أيّة مؤسسة أخرى، لميزات تتوفر فيه، ولا تتوفر في غيره، ومن هذه الميزات أنّ المسجد مكان تغشاه كل الشرائح الإجتماعية "رجالا ونساء، شيبا وشبابا وكهولا" (1)، ومنها أنّ للمسجد جوّا خاصا لانجده في غيره من المؤسسات، حيث يشيع فيه طهر وروحانية "يضفيان على الكلام روعة وجلالا، فيكون له من الأثر في النفوس، بحيث لايحصل ذلك الأثر إذا كان الشخص نفسه يلقي الحديث في موضع آخر"، وقد اكتسبت المساجد هذا الجوّ "من جلال الله وعظمته، إذ أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ".(2)

لهذه الميزات لايرى الشيخ بيوض مكانا أفضل من المسجد للدعوة إلى الله والتربية والتعليم.

ولكي يتمكّن المسجد من آداء دوره التعليمي التربوي -يؤكد الشيخ بيوض- على ضرورة وصل المسجد كمؤسسة بمؤسسات المجتمع الأخرى، كما كان الأمر في عهد السلف الصالح وتزول الإزدواجية بين الديني والدنيوى في حياة المجتمع.

وأولى المؤسسات أن تربط بالمسجد، المؤسسات التعليمية، يقول الشيخ بيوض : "لولا ضيق المجال الحيوي حول المساجد، واتساع دائرة العمران، لآثرنا أن تكون المدارس الإبتدائية هي الأخرى قريبة من المسجد، وهل أخطأ أسلافنا عندما أنشأوا الكتاتيب القرآنية بجوار المساجد قديما ؟!، كلاّ إنهم يدركون بحسهم الفطري مدى تأثير القدوة في الولد الصغير، وهو يشاهد جموع المصلّين يتطهرون، وكيف يؤدّون صلواتهم جماعة، وكيف

---

(1) - ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الأسراء، تحرير عيسى بن محمد الشيخ باحاج، ط1، دار النهضة للنشر والتوزيع، عمان، 1992، ص : 29.

(2) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 45.

يستجيبون للنداء وهم يهرعون إلى بيوت الله زرافات ووحدانا". (1)

بل حتى الأسواق يمكن أن توصل بالمساجد لترتبط الدنيا بالآخرة في أذهان الناس، فـ"قديما اتخذ المسلمون أسواقا إلى جانب مساجدهم، كما هو الحال في الحرمين الشريفين". (2)

وهذا الوصل لمرافق الحياة بالمسجد هو الذي يضمن له أداء رسالته، كما يؤكد الشيخ بيوض ذلك بقوله : "ليس من واجبنا أن نقود الناس بالسلاسل إلى بيوت الله، ولكن يجب أن نوفر لهم أسباب التعلّق بها، فهذا معهد يحتضن طلبة العلم، وتلك كتاتيب يتردّد عليها الصغار والعوام صباح مساء، وهناك إلى جانب المصلّى صحن فسيح يساعد المصلين على ربط علاقاتهم الإجتماعية، وتنسيق مصالحهم الدنيوية، وفوق ذلك رحاب المسجد العامرة بالذكر والعبادة، مما يكون له الأثر الفعال في طهارة النفس وسلامة القلب". (3)

ثم لكي يتمكن المسجد من أداء دوره التعليمي التربوي يؤكد الشيخ بيوض على ضرورة المحافظة على استقلاليته التامة، وعدم خضوعه لوصاية أية جهة.

وقد تحقق هذا الشرط لمساجد ميزاب إبّان فترة الإحتلال، فبقيت مساجده حرة "لايستطيع الحكام العسكريون التدخل في شؤونها، لأن المعاهدة السياسية بين ميزاب وفرنسا تمنعهم من ذلك" (4)، وبقي تعيين القائمين من أئمة ومؤذنين وقيّمين من صلاحيات مجلس"العزابة"، وهذا عكس ماحدث في الشمال، إذ أصدر المستعمر في 8سبتمبر 1830 أمرا بالإستيلاء على الأوقاف التابعة للمساجد، ثم أتبعه بأمر في 7ديسمبر يسمح فيه للحاكم أن يتصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء، وأصبح من صلاحيات الحاكم تعيين الأئمة والمشرفين على المساجد. (5)

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 26.

(2) – المصدر نفسه، ص : 27.

(3) – المصدر نفسه : 27.

(4) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص : 221.

(5) – أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص : 51.

واستمرت مساجد ميزاب تتمتع باستقلاليتها عن السلطة الحاكمة بعد الإستقلال، رغم المحاولات التي بذلت بهدف جعلها تابعة للقطاع العام، وإدراج الموظفين فيها في سلك الوظيف العمومي، وقد بذل الشيخ بيوض جهودا جبارة للحيلولة دون تطبيق هذا الإجراء.

يذكر الشيخ بيوض المجهودات التي بذلها وإخوانه في الإصلاح في هذا الإطار فيقول : "اتفقنا في مجلس عمّي سعيد (1) أن نرفض الرفض البات القطعي كلّ محاولة لإدماج مهام المسجد في الوظيف العمومي، واستغنينا عن كلّ مساعدة تقدم إلينا من مصلحة ما، حفظا لقداسة بيوت الله أن يعبث بها العابثون، أو تكون عرضة لخدمة مصالح أو أشخاص أو جهات معينة". (2)

واتصل الشيخ بيوض بالسلطات وألّح في الطلب، فصدر قرار يبقى على استقلالية المساجد في ميزاب وعدم إدراج الموظفين فيها في سلك الوظيف العمومي "لأنّ رجال الدين الإباضية يقومون بأعمالهم الدينيةمجانا" كما جاء في القرار. (3)

وينصح الشيخ بيوض العلماء في غير منطقة ميزاب أن يعملوا على إبقاء مساجدهم حرة لتتمكن من القيام بدورها، لأنه في حالة إدراجها في الوظيف العمومي فإنّ الدولة "هي وحدها تملك حقّ التعيين للشخص الذي يتمتع بالمنصب، فتثبّته أو تنقله إلى حيث شاءت، وحينئذ لاتملك حق الإختيار لأئمتنا ممن تتوفر فيه شروط الكفاءة والنزاهة، ويتمتعون بحب الجماهير وبثقتها". (4)

ويضيف الشيخ بيوض إلى هذين الشرطين شرطا آخر لجعل دور المسجد أكثر فعالية في مجال التربية والتعليم وهو أن يكون المسجد الجامع الذي تلقى فيه الدروس مسجدا واحدا في المدينة، أو مساجد مركزية، وتتخذ في أنحاء المدينة وأحيائها مصليات لآداء الصلوات الخمس، وقد حرص المصلحون في ميزاب على أن يكون "المسجد الذي تقام فيه الجماعة

---

(1) - هيئة من العلماء تشرف على منطقة ميزاب، تجد تعريفا بها في الفصل الثالث.

(2) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 48.

(3) - المصدر نفسه، ص : 49.

(4) - المصدر نفسه، ص : 49.

ودروس الوعظ في كل مدينة للإباضية واحد، يقصده الجمهور من أنحاء المدينة كلها".(1)

ففي مدينة القرارة مثلا كلّما ازداد عدد السكان، وضاق المسجد الجامع عن استيعاب المصلين، اشترى المصلحون المساكن التي تحيط بالمسجد لهدمها، وتوسيع المسجد، وهو السبب الذي أبقى على المسجد كمركز للمدينة.

ومع توفير هذه الشروط ينبغي أن يكون في المسجد نشاط علمي الهدف منه تهيئة الجو الصالح لتربية النشأ بتربية الكبار، فيكون دور المسجد مكمّلا لدور الأسرة والمدرسة، لأنه – كما يؤكد الشيخ بيوض – "مع فساد المجتمع الذي تعيش فيه ناشئتنا لاتوجد المدرسة الناجحة في التربية بالخصوص، فما تبينه في الصباح يهدمه البيت في المساء، لهذا نجد سلفنا الصالح رضوان الله عليهم سنّوا لنا سنة الوعظ الدائم للكبار في مساجدنا".(2)

ومما هيّأ الجوّ للشيخ بيوض لاستغلال هذه المؤسسة أحسن استغلال أنّ مساجد ميزاب لم تخل منذ القديم من دروس الوعظ والإرشاد، دروس يومية تلقى في مواقيت محدّدة، بعد صلاة الفجر في آخر الخريف إلى وسط الربيع، وبين الظهر والعصر في باقي أيام السنة.

ولما قدّم الشيخ بيوض لمشيخة المسجد في مدينة القرارة عام 1341هـ-1923م، لازم هذه السنة الحميدة، فكان له درسان عامان في كل يوم وليلة، الدرس الأول في الوقت المعهود بعد الفجر أو بين الظهر والعصر، أما الدرس الذي أضافه فكان بعد صلاة العشاء.(3)

ويمكننا تصنيف دروس الشيخ بيوض في مسجد القرارة إلى دروس التزم فيها تدريس بعض الكتب في علوم الشريعة والتاريخ، ودروس عامة في الوعظ والإرشاد.

فأما النوع الأول من الدروس، فيهدف الشيخ بيوض منه إلى تزويد العامة بثقافة إسلامية بطريقة منهجية، لتزداد تمسكا بدينها وبمقومات شخصيتها العربية الإسلامية، وتصفو تصوراتها من الخرافات التي ليست من الدين في شيء.

---

(1) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص: 123.

(2) – المصدر نفسه، ج4، ص: 147

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص: 111-112.

وقد ركزّ الشيخ بيوض للوصول بالعامة إلى هذا الهدف على العلوم التالية : العقيدة، الأخلاق، الفقه، التاريخ، الحديث، التفسير.

وأول ما بدأ به الشيخ دروسه علم الأخلاق، أو مايسميه البعض بعلم التزكية، أو كما يطلق عليه الأستاذ مالك بن نبي "علم تجديد الصلة بالله"، وهو علم يهدف إلى تمكين المسلم من تغيير مابنفسه و"إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف". (1)

وقد درّسه الشيخ بيوض من كتاب "قناطر الخيرات"للشيخ إسماعيل الجيطالي (2)، وهو كتاب في ثلاثة أجزاء التزم فيه مؤلفه نفس منهج الشيخ أبي حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين"، بل إن المؤلف ينقل نصوصا كثيرة من الإحياء، ويبدأ الكتاب بتقرير بعض المسائل الإعتقادية على المذهب الإباضي، ثم يتحدث عن بعض الآفات النفسية والإجتماعية مبينا طرق علاجها من خلال النصوص القرآنية والأحاديث وأقوال السلف الصالح.

وقد دام تدريس الشيخ بيوض لهذا الكتاب أربع عشرة سنة كاملة "من أول صيف عام 1923 إلى ربيع 1938".(3)

وتقييما لدرسه في هذا الكتاب، وللأثر الذي تركه في القرارة، يقول الشيخ بيوض "أعتقد أن أكبر سبب لتركيز فكرة الإصلاح في القرارة، أو كما يعبّر عنه اليوم الضمير الديني، هذا الضمير الذي تكوّن في جماهير القرارة، وكان له بعد ذلك أثر كبير في مناصرة الإصلاح، وفي البذل والتضحية في سبيل الإصلاح، والفضل يرجع في هذا إلى درس المسجد في كتاب قناطر الخيرات".(4)

وبهذه النتيجة العملية التي خلص إليها الشيخ بيوض، أكد أنّ إعادة الفعالية إلى العامة ودفعها إلى تغيير مابنفسها، لاتتم بإقناعها بمبادئ العقيدة الإسلامية من جديد، بطرق عقلية

---

(1) – مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص : 48.

(2) – نشأ في مدينة جيطال بجبل نفوسة، واستقر في جزيرة جربة بالجامع الكبير إلى أن توفي سنة 750هـ/ 1349م، له مؤلفات، اشهرها كتابه قناطر الخيرات.

يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 95.

(3) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 114.

(4) – المصدر نفسه، ج3، ص : 115.

منطقية، وكأنها فقدت إيمانها بهذه المبادئ، وإنما بالعمل على إحياء هذه المبادئ فيها، وهو الأمر الذي فهمه أبو حامد الغزالي، فحاول أن يحي مبادئ الدين في النفوس بالتركيز على هذا الجانب في كتابه إحياء علوم الدين.

وبهذه النتيجة العملية يتأكد ماقرره أحد الدارسين للحركة الإصلاحية من أن الخطأ الذي وقع فيه بعض رواد هذه الحركة -وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد- هو اعتقادهم أنّ المسلم بحاجة إلى أن يلقن عقيدته بصيغ جديدة، و لم يدركوا أنه يملك هذه العقيدة، "ولكنّ عقيدته تجرّدت من فاعيلتها، لأنّها فقدت إشعاعها الإجتماعي"، و لم يكن المسلم في هذه الحال بحاجة إلى علم كلام جديد يبرهن له على وجود الله، "لأنه مازال يعتقد أنه موجود"، وإنما هوفي حاجة إلى علم يرد "إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوّتها الإيجابية، وتأثيرها الإجتماعي"، ويشعره بوجود الله، ويملأ به نفسه "باعتباره مصدرا للطاقة"، ويمكن أن نسميه بعلم الأخلاق أو التصوّف أو علم التزكية، أوكما سمّاه مالك بن نبي علم "تجديدالصلة بالله".(1)

وبالتوازي مع هذا الكتاب، درّس الشيخ بيوض منظومة أبي فتح بن نوح (2) التي تسمى "مخمسة أبي نصر"، ودرّس معها منظومة "البائية" لنفس المؤلف، وهما منظومتان في الأخلاق، قال الشيخ بيوض عنهما : "وهما من أحسن مايعتمد عليه الواعظ في مواضيع الأخلاق"(3)، ويوضح الشيخ بيوض طريقته في تدريس هاتين المنظومتين فيقول : "أقرأ البيت فألّم بشرحه، ثم أشرح البيت بأسلوبي التحليلي الخاص".(4)

وبعد هاتين المنظومتين درّس الجزء الرابع من كتاب "جوهر النظام" للشيخ عبد الله بن حميد السالمي (5) ، وهو كتاب في السنن والأخلاق والحقوق.(6)

---

(1) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص : 48.

(2) - من علماء النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، من قرية تمنوشايت في جبل نفوسة، له عدة قصائد تعليمية منها العقيدة النونية في أصول الدين، والرائية في الصلاة، والبائية في الحكم والمواعظ. يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص :96

(3) (4) - دبوز، اعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 153.

(5) - ولد بمدينة الرستاق العمانية عام 1286هـ 1869، تمكن بشاطه من إحياء الإمامة في عمان على يد تلميذه سالم بن راشد، من مؤلفاته : شرح طلعة الشمس على الألفية في أصول الفقه، توفي عام 1331هـ

(6) - المصدر السابق، ج3، ص : 116

ولكي يعطي النموذج العملي الحي للخلق الإسلامي، ويصل العامة بإمتدادها العربي الإسلامي، درّس الشيخ بيوض كتاب، "سير مشايخ المغرب" للشيخ أحمد بن سعيد الشمّاخي (1)، وهو كتاب أرّخ فيه مؤلفه لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين وكبار الصحابة والتابعين، ثم تحدث عن أئمة المغرب ومشايخه في القرون الهجرية الثمانية الأولى.

ويوضح أحد تلاميذ الشيخ طريقته في تدريس هذا الكتاب فيقول : "في كتاب "السير" تاريخ كثير للمغرب، سيما الأحداث التاريخية العظمى التي وقعت للأئمة وللمشائخ والزعماء الذين تحدث عنهم، فكان الشيخ بيوض يشرح تلك الأحداث التاريخية، ويستخلص العبرة منها، ويحلّل شخصيات المشايخ، ويلفت النظر إلى صلاحهم وأسبابه".(1)

واستمر درس الشيخ بيوض في هذا الكتاب نحو أربع سنين .(2)

وبعد هذه الكتب التي ركّزت في تكوين العامة على الجانب الروحي والخلقي والجانب التاريخي، درّس الشيخ بيوض بعض الكتب الفقهية، لتبصير الناس بأحكام الشريعة الإسلامية مما يتعلق بممارساتهم اليومية سواء في مجال العبادات أو في مجال المعاملات.

ومن هذه الكتب التي درّسها كتاب "جامع الوضع والحاشية"، وكتاب "الذهب الخالص" وهما للشيخ الحاج اطفيش وكتاب "جوهر النظام" في أجزائه الثلاثة للشيخ عبد الله بن حميد السالمي، وهي كتب في الفقه على المذهب الإباضي.

وبما أن المؤلّفين في الفقه كانوا يقدّمون لكتبهم بخلاصات في علم العقيدة فكان الشيخ يشرحها "شرحا وافيا".(3)

ورأى الشيخ بيوض أنّ كثيرا من الأباطيل والخرافات صارت عقائد راسخة في أذهان العامة، فدرّس كتاب "أنوار العقول" للشيخ عبد الله السالمي، وهو عبارة عن منظومة

---

(1) - سكن نفرن، ثم تحول عنها إلى تونس لطلب العلم، وتوفي بجربة سنة 928هـ/1522م، من مؤلفاته كتاب مجسير العدل والإنصاف.

يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب : 95

(2) (3) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص:117

تنضمن خلاصة لمبادئ العقيدة، فاستطاع -كما يؤكد الأستاذ محمد علي دبوز- أن يزيل "من أذهان العامة كل ماكونته أزمنة الجهل فيها من الأباطيل التي تنافى العقيدة الإسلامية الصافية".(1)

وبعد هذه الكتب اتجه الشيخ بيوض في دروسه نحو ربط العامة بالأصول، قرآنا وسنة، فبدأ كخطوة أولى بتفسير جزء عمّ لأن سوره مما تحفظه العامة، وأعجب الشيخ بمنهج الشيخ محمد عبده في التفسير، فالتزم كتابه في تفسير جزء عمّ في دروسه هذه. (2)

ولما رأى الشيخ بيوض أنه بدروسه في الأخلاق والفقه والعقيدة والتاريخ قد ارتقى بمستوى العامة إلى درجة تستطيع فيها أن تستوعب أبعاد الخطاب القرآني شرع في تفسير القرآن من أوّله.

قال الشيخ بيوض : "لما شعرت بحاجة الأمة إلى أخلاق القرآن شرعت في التفسير في أول محرّم وأظنه جمعة عام 1354هـ/1935م".(3)

واستمر هذا الدرس نحو خمسة وأربعين عاما، حيث ختم الشيخ تفسيره لكتاب الله بتاريخ 25 ربيع الأول 1400هـ/12 فبراير 1980م.(4)

وهدف الشيخ من التفسير تعليمي تربوي، يقول موضحا ذلك : "إن غرضي من تفسير القرآن هو تربية الناس بالقرآن، وتثقيفهم، ووعظهم، ومعالجة أمراض النفوس كلّها بالقرآن، فإنه شفاءها كلّها" .(5)

ويؤكد الشيخ بيوض أنّ الخطاب القرآني لم يأت لمعالجة مرض واحد أو ظاهرة محدّدة، ليصبح بعد ذلك كلاما يدرج في حقبة تاريخية معينة، يدرس من خلالها، بل "مامن مرض من أمراض العقائد أو الأخلاق أو الأعمال، إلا وفي القرآن دواؤه وشفاؤه، دواء رخيص

---

(1) - دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص : 119.

(2) - المصدر نفسه، ج3، ص : 130- 131.

(3) - محمد ناصر، في رحاب القرآن : الإمام الشيخ ابراهيم بيوض، ص : 76.

(4) - دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 11.

(5) - المصدر نفسه، ج3، ص : 129.

لاينفد ولاينضب، ولايكلفنا مالا ولاثقلا، إلا أن نقرأه ونتمتع فيه، ونسأل أهل الذكر إن كنا لانعلم". (1)

وسبب آخر دفع الشيخ بيوض إلى تفسير القرآن، وهو أن الظرف الذي مرّت به الحركة الإصلاحية إبان فترة الإحتلال الفرنسي، فرض على علماء الإصلاح أن يُكيّفوا خطابا خاصا بهذه المرحلة يمكّنهم من إيصال أفكارهم إلى الأمة، دون تمكين إدارة الإحتلال وأذنابها من وقف نشاطهم، فلم يجدوا أحسن من الخطاب القرآني، يقول الشيخ بيوض : "جعلت تفسير كتاب الله عمدتي في الدعوة إلى الله، وكنا حربا على الاستعمار الذي يجند شبابنا جبرا، ويمنعنا من التعليم الحر ويعمل كل وسيلة للتعطيل، وكنا نداوره تارة، ونداريه تارة، وندافع تارة أخرى، ورأيت أن أنفع شيئ لذلك هو كتاب الله، فشرعت في التفسير". (2)

وقبل أن يبدأ الشيخ في التفسير قدم بين يدي ذلك بثلاثة دروس تحدث فيها عن كيفية نزول القرآن وكيفية جمعه، والسرّ في بقائه محفوظا إلى الأبد، ومدى حاجة الإنسانية كلها إليه، وصلاحيته لكلّ زمان ومكان، وتحدث عن المنهج الذي يلتزمه في التفسير. (3)

ومنهج الشيخ في التفسير حدّده الهدف الذي جعله نصب عينيه وهو معالجة أمراض النفوس بالقرآن، لذلك لانجده يركّز كثيرا على المباحث اللغوية، يقول الشيخ بيوض : "أركز الحديث على معاني القرآن والقصص الواردة فيه، لا أتعرض للنحو والإعراب كما يفعل القدماء إلاّ قليلا، إذا أردت أن أبيّن الوجه البلاغي في حرف من الحروف، أو تركيب من التراكيب، هذا مما يفيد الطلبة وينجديهم في صناعة الإنشاء بالخصوص". (4)

ويلخّص أحد تلاميذ الشيخ المهتمين اهتماما خاصا بدروسه في التفسير –وهو الأستاذ عيسى بن محمد الشيخ بالحاج– المنهج الذي اتبعه الشيخ بيوض في الخطوات التالية :

---

(1) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 135.

(2) – المصدر نفسه، ص : 35.

(3) – محمد ناصر، في رحاب القرآن : الإمام الشيخ ابراهيم بيوض، ص : 18.

(4) – دبوز، اعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 129.

- يذكر سبب نزول الآية في عصر النبوة، ومطابقتها لمختلف العصور.

- يربط الآية بالتي قبلها، وكذا السورة بالتي قبلها، مبينا لطائف وأسرار هذا الربط، وأوجه المناسبة.

- يشرح المفردات اللغوية، ويتوقف عند النكت البلاغية.

- يستحضر ماورد في نفس الموضوع من آيات في القرآن.

- يقارن بين الآيات المختلفة لتكتمل الصورة.

- يذكر ماورد في تفسير الآية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- يعرض آراء بعض المفسرين الواردة في الموضوع، موافقا أومفندا أو مجدّدا.

- يعرض على الآية قضايا المجتمع المعاصرة، السياسية، الإجتماعية، الإقتصادية، حسب موضوع الآية.

- يتوجه إلى النفس البشرية بالعبرة والذكرى، والموعظة الحسنة. (1)

وعملية "عرض المجتمع وقضاياه على القرآن" هي أهمّ خطوة يركّز عليها الشيخ بيوض، فلم يعد درس التفسير -نتيجة لذلك- مجرّد شرح لنص تشحن بمعانيه الأذهان، بقدر ماكان توجيهات يتلقاها المجتمع ليبني على أساسها حياته في شتى مجالاتها.

قال الشيخ بيوض -مقرّرا مراعاته لهذا البعد في تفسيره-: "وفي درس التفسير أخرج بأسلوب حكيم إلى هذه المواضيع الإجتماعية فأوفّيها حقّها، هذا مايقع دائما، [...]، كنت أطرق الحوادث الإجتماعية التي تشغل بال الجمهور، فما يشتاق الناس إلى سماعه في أسبوع، غير ما يشتاقون إليه في أسبوع مضى". (2)

فكان درسه إما تصحيحا لمفاهيم واعتقادات يرى أنها تخالف الحق، كما فعل في تفسيره لآيات من سورة الحشر تحدّثت عن المهاجرين والأنصار (3)، فتحدّث مطوّلا عن الموقف الذي يجب أن يلتزمه المسلم تجاه الفتنة التي كانت بين الصحابة رضي الله عنهم،

---

(1) عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، مقدمة تفسير سورة الأسراء للشيخ ابراهيم بيوض، ص : 31-32.

(2) دبور، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص : 121.

(3) سورة الحشر، الآيتان : 8 10.

فقرر أنّ الصحابة -السابقين منهم خاصة- بنصوص القرآن الواضحة رضي الله عنهم، وغفر لهم ماكان منهم من زلاّت، وأن ماتنقله كتب التاريخ فيما يتعلق بالفتنة لايمكن أن يستند إليه لإصدار حكم موضوعي في الموضوع، لذلك كان الموقف العلمي -في رأيه- أن يمسك المومن عن الخوض في هذه المسألة، ويلتزم التوجيه الوارد في قوله تعالى : ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولاتجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم** ﴾ [الحشر : 10].(1)

أو يكون درس التفسير عبارة عن توجيهات عملية تسهم في ضبط حركة الفرد والمجتمع، وكمثال نقدّمه على ذلك، تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنّتم** ﴾ [الحجرات : 7]، فبعد شرحه لهذه الآية وذكر سبب نزولها، يطرح الشيخ بيوض السؤال التالي : إذا كان مجتمع الصحابة مطالبا بنص هذه الآية بالرجوع فيما يتعلق بالأخبار التي تصله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ليعلم الموقف الصحيح منها، فكيف يكون الأمر بالنسبة إلينا والرسول صلى الله عليه وسلم لم يعد بيننا ؟، ثم يجيب عن السؤال مستندا إلى آية أخرى جاءت في سورة النساء وهي قوله تعالى :

﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوابه، ولوردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾ [النساء : 83]، فيقرّر أن المسلمين ملزمون بالعودة -في أمر الأخبار التي تصلهم- إلى "أولى الأمر" الذين لهم القدرة على "الاستنباط"، ويوضح أن ملكة الاستنباط هذه لايقصد بها المفهوم الشائع عند علماء أصول الفقه، أي القدرة على استخراج الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وإنما المقصود بها العقلية القادرة على النظر إلى الأحداث نظرة شمولية، فتفهمها في إطارها العام، فتصيب بذلك كبد الصواب. (2)

---

(1) - ابراهيم بيوض، تفسير سورة الحشر نقله عن الشريط عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، موجود بمكتبته الخاصة، ج31، ص: 7 127.

(2) - ابراهيم بيوض، تفسير سورة الحجرات، نقله عن الشريط عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، موجود بمكتبته الخاصة، القرارة، ج28، ص: 203 206.

وبهذا التفسير يحافظ الشيخ على صلاحية النص القرآني لتوجيه حياة الناس في أيّ عصر، ويجعل المجتمع ملزما شرعا بالرجوع إلى مثقفيه وذوي الرأي فيه قبل الفصل في أي مسألة من المسائل.

أما عن المصادر التي يعتمدها في تفسيره، فيؤكد الشيخ بيوض أنه من سورة الفاتحة إلى سورة يوسف كان يعتمد إعتمادا كليا على تفسير "المنار" للشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا، ولايعود إلى غيره من التفاسير إلا قليلا.

وبعد سورة يوسف حيث توقف تفسير المنار أصبح يعتمد على "روح المعاني" للآلوسي و "التفسير الكبير" للفخر الرازي، وقلمّا يرجع إلى غيرهما إلا إذا أراد أن يعرف قول الإباضية في بعض الأحكام الشرعية الواردة في الآية فإنه يستعين بكتاب "التيسير" للشيخ الحاج اطفيش.

ولما وصله تفسير القرطبي وتفسير "في ظلال القرآن" اعتمدهما مع التفسيرين المذكورين.(1)

ومع رجوع الشيخ بيوض إلى هذه التفاسير فإنه لايجمد على ماورد فيها، بل إنّ جلوسه أمام جمهور ينتظر خطاب الله الموجّه إليه، كثيرا ما يلهمه بمعاني جديدة، يقول الشيخ بيوض: "ومع مطالعتي لهذه [التفاسير] فإن الله سبحانه يفتح عليّ في التفسير بأشياء كثيرة يلهمني إياها، وأغلبها في وقت الدرس، وأحسّ أنني في وقت الدرس على أحوال لم أكن عليها من قبل، وأحسّ بقوة فكرية وانفعال لا أكون عليهما في الأحوال العادية".(2)

لقد أطلنا في الحديث عن هذا الدرس، لأنه يعتبر أهم عمل قام به الشيخ بيوض في حياته في مجال التربية والتعليم، ولأنّ أثره الإجتماعي كان كبيرا، فقد قال الشيخ بيوض في حديث للتلفزة الجزائرية بمناسبة ختمة للتفسير عام 1980 : "إنني أحمد الله تبارك وتعالى على النتيجة التي شاهدتها من أثر القرآن في نفوس العامة، [...]، إنّ البلدة [أي القرارة]

---

(1) دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 125.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص : 126.

كلها محبذة للعمل في كلّ ميدان، مادعي أحد إلى عمل إلاّ وأجاب، وإذا دعي إلى مال أعطى، وإذا دعي إلى وقت أعطى من وقته وجهده، بل حتى من لم يدع و لم يحتج إليه، يقول : لماذا نسيتموني، أليس لي حظ ؟".(1)

ولقد استطاع الشيخ بيوض بدروسه في هذه الكتب أن يحوّل المسجد في القرارة إلى مركز إشعاع علمي بأتم معنى الكلمة، وأصبح المسجد بهذا النشاط العلمي جامعة مفتوحة يؤمها كل الناس. (2)

والى جانب هذه الدروس كان الشيخ بيوض يلقي في مسجد القرارة دروسا في الوعظ والإرشاد، منها درس وخطبة الجمعة، والدروس التي يلقيها في رمضان وفي المواسم والأعياد.

ويحدّد الأستاذ محمد علي دبوز بعض المحاور التي دارت حولها دروس الشيخ بيوض فيقول : "تحدّث الشيخ بيوض في دروس وعظه عن آفات المجتمع كلّها، [...]، وهاجم العصبية القبلية والجهوية والمذهبية" (3)، و"هاجم في دروس وعظه البدع التي أقحمت في الدين فأضّرت بالمسلمين، فبيّن بطلانها وأضرارها"(4)، وتحدث عن النظام الإجتماعي العظيم في وادي ميزاب، سيّما نظام العزابة العظيم، بهدف تمسك المجتمع به".(5)

وألقى دروسا دعا فيها إلى النهضة في المجال الإقتصادي، ركّز فيها على الفلاحة وضرورة الإهتمام بحفر الآبار الأرتوازية، وعلى التجارة ومنافسة اليهود والمعمّرين فيها، كذلك دعا إلى إنشاء شركات للنقل. (6)

وألقى بعد الاستقلال دروسا أوضح فيها بعض المفاهيم، وبين موقف الاسلام منها، مثل

---

(1) – محمد ناصر، في رحاب القرآن : الامام الشيخ إبراهيم بيوض، ص : 80.

(2) – محمد ناصر، حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدى، ص : 20.

(3) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 91.

(4) – المصدر نفسه، ج3، ص : 93.

(5) – المصدر نفسه، ج3، ص : 95.

(6) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 58.

مفهوم الاستعمار،الاستقلال، المناضل، المجاهد، الاشتراكية.(1)

وكان الشيخ بيوض يعتبر شهر رمضان " أحسن موسم لإصلاح النفوس"، فكان يحضر له دروسا خاصة، يتناول فيها المواضيع الاجتماعية، ويذكر لنا الشيخ بيوض بعض المواضيع التي يركز عليها في هذا الشهر فيقول: " وفي رمضان أعتني بالأسرة ومشاكلها، وأسباب صلاحها وهنائها، فاتحدث عن حقوق الوالدين، وحقوق الأبناء، وحقوق الأزواج، وعلاقة الأصهار بأصهارهم، ومحاولتهم إفساد الزوجة على زوجها،[...]، وأعتني كل الاعتناء بالفواحش، الخمر والزنا والسرقة والقمار وأكل الربا، وغير ذلك، أشرحها شرحا فلسفيا، وأبين مضارها الكثيرة لمرتكبها وللمجتمع".(2)

وكذلك كان يفعل الشيخ بيوض في المواسم الاسلامية الأخرى، عيد الفطر وعيد الأضحى، والمولد النبوي وليلة عاشوراء، ففي هذه المواسم -كما يقول الشيخ بيوض- "يمتلىء المسجد أكثر، وشعور السامعين يكون أقوى، أغتنم الفرصة فأجعل فيها دروسا خاصة".(3)

وبحكم إيمان الشيخ بيوض بضرورة التجديد في أساليب الخطاب لمواكبة متغيرات الواقع، حاول تجديد خطابه، فكان يختار مقالات من المجلات، كمجلة الفتح ومجلة الزهراء للشيخ محب الدين الخطيب، ومجلة الرسالة للزيات، ومقالات لمصطفى صادق الرافعي، فيشرحها للعامة.

وقابل " العلماء الجامدون " هذه الطريقة التي سلكها الشيخ بيوض بالاستنكار، لأن المسجد مكان مقدس ينبغي أن ينزه -في نظرهم- عن قراءة الأشعار والمقالات فيه.

ولم يبال الشيخ بيوض بإنكارهم، لأن هدفه من هذا التجديد هو اعتبار فائدة الجمهور.(4)

وإلى هذه الدروس -كما يقول الدكتور محمد ناصر-: " يرجع الفضل في

---

(1) - أنظر فهرست دروس الشيخ بيوض في رمضان، مكتبة معهد الحياة، القرارة،الجزائر، دروس رمضان 1967م.

(2) - بيوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص: 122.

(3) - بيوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص: 120-121.

(4) - بيوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص: 120.

القضاء على البدع والخرافات التى ترسّبت في أذهـان النـاس في عهـود الانحطـاط الفكـرى، والمقاومة لكلّ مظاهر الانحراف والانحلال الخلقى التى تفشت مع طغيان المدنية الغربية".(1)

وما كان لهذه الدروس أن تحدث كل هذا الأثر لـولا مـا اجتمـع في الشيخ بيـوض مـن مواصفـات :" وعلـى رأسـها الفصاحـة والبيـان، وحـدّة الذكـاء، وسـعة المعرفـة، والوعـي بالتغيرات والأحـداث، والمواكبـة للتطـورات المحليـة والدوليـة مـن حولـه، والتمثّـل الأصيـل بالمقومات الاسلامية، هذه كلها تتوّجهـا شـخصية دينيـة مهيبـة قويـة، تفعـل في النـاس فعـل السحر".(2)

ولكي لايبقى عمل الشيخ بيوض محصورا في القرارة، كان يقوم بجولات في مدن ميزاب والشمال، يلقى دروسا في مسـاجدها يدعـو فيهـا إلى الاصـلاح، وإنشـاء المـدارس العصريـة للتعليم الحر، وإلى النهضة في التجارة والفلاحة.(3)

وقد استطاع الشيخ بيوض بدروسه أن يبعث الحياة في منطقة ميزاب، وأن يستفزّ أهلهـا للنهوض من جمودهم وركودهم، وشعر "العلماء الجامدون" بالخطر يحدق بهـم، فطلبـوا مـن الحكومة الاستعمارية أن تمنعه من الخروج من القرارة، فاستجابت لطلبهـم، فضيّقـت عليـه، فكان لا يخرج مـن القـرارة إلا برخصـة، يجـب أن يذكـر فيهـا سـبب سـفره، والجهـة التـى يقصدها، والوسيلة التى يستخدمها في سـفره، ومـن ينـزل في ضيـافتهم، ويرسـل مـع هـذه البيانات أربع صور فتوغرافية له.(4)

فلما رأى هؤلاء العلماء أن ذلك لم يجـد في وقـف نشـاطه، أوعـزوا إلى بعـض الأوغـاد بإغتياله، فتعرض الشيخ بيوض لعـدة محـاولات اغتيـال، خاصـة في بنـى يزقـن مركـز هـؤلاء العلماء.(5)

---

(1) – محمد ناصر، حلقة الالغزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدى:22.

(2) – المصدر نفسه : 23

(3) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج3، ص : 137.

(4) – المصدر نفسه، ج3، ص : 52 53

(5) – دبوز، أعلام الاصلاح..، ج4، ص : 291.

وبعد الاستقلال شعر المعارضون للتوجّهات الاسلامية للمجتمع الميزابى بالدور الفعال الذى يلعبه المسجد في توجيه هذا المجتمع من خلال ما كان يلقيه الشيخ من دروس، فطالبوا بتضييق الخناق على المسجد " لا بتعطيل الأذان والإقامة والصلاة، ولكن بخنق صوت المنبر في التذكير"، (1) وطالبوا بإدراج القائمين بدروس الوعظ والارشاد في سلك الوظيف العمومى، لتتولى الدولة الأشراف على المسجد بحجة أن نظام العزابة، وهو المشرف عليه: "أصبح لا يتماشى مع متطلبات العصر، وأنه نظام رجعي، أكل عليه الدهر وشرب".(2)

وبعد هذا العرض الذي تحدثنا فيه عن الشروط التى يراها الشيخ بيوض ضرورية ليقوم المسجد بدوره التعليمى التربوى، وعن جهود الشيخ بيوض وعمله في هذه المؤسسة، من خلال دروسه التعليمية ودروسه في الوعظ والإرشاد، يمكننا القول أن الشيخ بيوض استطاع توظيف هذه المؤسسة أحسن توظيف، عندما حرص على وصلها بمؤسسات المجتمع الأخرى، وبذل جهودا ليحافظ على استقلاليتها، وجعل عمله فيها متسما بالاستمرارية والتجديد.

ثالثا : المؤسسة التعليمية

ومن المؤسسات التى ركّز الشيخ بيوض جهوده فيها في عمله التعليمى التربوى، المؤسسة التعليمية، متمثلة في المدارس الابتدائية ومعهد الحياة.

وكان الشيخ بيوض يدرك أنّ هناك تكاملا بين مؤسسة المسجد والمؤسسة التعليمية، وأنّ الحركة الإصلاحية لن تنجح في مساعيها الإصلاحية ما لم تتبع اهتمامها بمؤسسة المسجد اهتمامها بالمؤسسة التعليمية.

وقد علّق الشيخ بيوض على قول الشيخ محمد الغزالى: " لا خلاص لنا إلا أن نهتم بالمعاهد اهتمامنا بالمساجد، وأن نبني بجانب كل مسجد معهدا، ونبني بجانب كل معهد

(1) (2) – إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الامام، ص : 45

معبدا". بقوله: " وقد سبقت لنا -بحمد الله- دعوات فى هذا المجال منذ سنين، وهو ما طبقناه عمليا بعد مجهودات جبارة، فقامت هذه المؤسسة العتيدة لمعهد الحياة إلى جانب المسجد صرحا شامخا للتربية المحمدية ومنارا للإسلام، وتلك هي قناعتنا منذ أن خطونا الخطوات الأولى في الإصلاح الدينى والإجتماعى".(1)

ولكي نستوعب الحديث عن هذه المؤسسة وآراء الشيخ بيوض وجهوده فيها، يحسن بنا أن نذكّر في البداية أنّ المؤسسات التعليمية التى وجدت في الفترة التى عاصرها الشيخ بيوض هي: مدارس التعليم الدينى الحر، ومدارس التعليم الفرنسى، وبعد الاستقلال مدارس التعليم الرسمى للدولة الجزائرية.

وفيمايلى نتحدث عن كل مؤسسة من هذه المؤسسات ونحدّد موقف الشيخ بيوض منها وجهوده في استغلالها في عمله التعليمى التربوى.

أ)- مدارس التعليم الدينى الحر

وُجد في ميزاب نوعان من التعليم الدينى الحر، التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى، أمّا التعليم الابتدائي فقد كان يزاول في المحاضر وهي كتاتيب تابعة للمساجد، تعلم فيها المبادىء الأوّلية في الكتابة والرسم والعقيدة والوضوء والصلاة، وتحفّظ القرآن الكريم، ولم يكن الدخول إليها مرتبطا بسنّ محدّدة " يكون فيها ابن أربع سنين وابن ستين وسبعين "، لكن يصنفون إلى أقسام بحسب درجاتهم.

وكان التعليم فيها بين وقت السحر وطلوع الفجر شتاء، وبين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء في سائر الفصول، (2) وفي أواسط القرن التاسع عشر -كما يذكر الشيخ بيوض- تطوّر هذا التعليم نتيجة لدعوة علماء الاصلاح من أمثال الشيخ عبد العزيز الثمينى

---

(1) - إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الامام، ص : 25.

(2) - تركى رابح، التعليم القومى والشخصية الجزائرية، ص : 419 420.

والشيخ الحاج محمد اطفيش، ففتحت مدارس للتعليم القرآني على غرار المحاضر لأن الناس لم يروا في تعليم أبنائهم في المحاضر كفاية، بسبب التوقيت الضيق وعدم تفرغ المعلمين.

وكان التعليم في هذه المدارس في صدر النهار من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، يقوم به معلّمون متفرّغون، يتلقون أجرة على تعليمهم، وبقيت المحاضر الملحقة بالمساجد تدرس في أوقاتها المعهودة.(1)

أما التعليم الثانوي*، فقد وجد في ميزاب منذ قرون، وإن كان في شكل بسيط، فقد كان العلماء يتخذون من دورهم مدارس يقصدها الراغبون في طلب العلم، وتلّقن فيها بعض علوم الشريعة وعلوم العربية، و لم يكن لسنوات الدراسة بها عدد محدّد، كما لم يكن هناك حدّ في السن، وكان الطلبة كلهم طبقة واحدة، و لم يشرع في نظام الطبقات في التعليم الثانوي إلا عام1915، حيث صنف الشيخ الحاج عمر بن يحي -أستاذ الشيخ بيوض- الطلبة إلى طبقات حسب ما كان جاريا في معاهد العلم آنذاك كالزيتونة، حيث كان الطلبة يصنفون حسب الكتب المقررة عليهم، مثلا طبقة الأجرومية والشيخ خالد، وطبقة الفطر، وطبقة المكّودي أو ابن عقيل، وطبقة الأشموني.(2)

أما عن موقف الشيخ بيوض من هذا التعليم بقسميه الابتدائي والثانوي، فإن الشيخ بيوض كان يرى أنه من الواجب المحافظة على " المحاضر " لأنه يعتبرها مرحلة تمهيدية للدخول إلى المدرسة بالنسبة للصغار،(3) ووسيلة مهمّة " لرفع الأمية وتعليم مبادىء الدين لمن لا تساعده ظروفه على التقيّد بقيود المدارس النظامية في الأوقات والمناهج وغيرها".(4)

ومن الناحية الشكلية يدعو الشيخ بيوض إلى الإبقاء على هذه المحاضر كما كانت عليه في القديم، حيث لا تدخلها الوسائل التعليمية المستحدثة، يقول الشيخ بيوض: " ونشهدكم

---

(1) – تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، ص : 420-421.

* المقصود بالتعليم الثانوي في كلام الشيخ بيوض ما بعد الابتدائي، فيدخل فيه المتوسط والثانوي

(2) – تركي رابح، التعليم القومي ...، ص : 423.

(3) – إبراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 69.

(4) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 430.

ونبلّغكم مبدأنا في بقاء المحاضر، ما دامت السموات والأرض، تبقى على تلك الطريقة، لا نريد أن نجعل فيها طاولات وكراسي وسبّورات".(1)

ويتوعد الشيخ بيوض بالويل كل إنسان يحاول تغيير هذه المحاضر فيقول: " كما أننا موفقون في الإبقاء على نظام الكتاتيب التي ما تزال تؤدي دورها التربوي حسبما أسّست لأجله من أول يوم، والويل كل الويل لمن يفكر في تعطيل هذه السنّة أو هذا النظام، فعندها فعجّل لهذا التراث الخالد بالانحلال والخراب ".(2)

أما موقف الشيخ بيوض من مدارس التعليم القرآني والتعليم الثانوي، فقد دعا إلى تطويرها في برامجها ووسائل التعليم بها، ففي أول درس له ألقاه في مسجد القرارة عام1924 حدّد فيه الخطوط العامة التي ستسير عليها حركته الإصلاحية دعا إلى التعليم العصري وإلى بناء مدارس له، وإنشاء جمعيات تشرف عليه.(3)

وفي جولاته في مدن مزاب ومدن الشمال في آخر العشرينات وأول الثلاثينات كان يدعو الناس إلى " إنشاء المدارس العربية الدينية العصرية الحرة، والجمعيات الخيرية التي تقوم بها، والإسراع بأبنائهم إلى تلك المدارس"، (4) ويعين المصلحين في تلك المدن في إنشاء الجمعيات والمدارس ووضع البرامج والمناهج واختيار المعلمين.(5)

وفي درس له في مدينة غرداية بتاريخ 24 سبتمبر 1944 قال الشيخ بيوض -داعيا الناس إلى الإنفاق في سبيل تأسيس المدارس-: " ما للبعض يبخلون وتنقبض أيديهم عن الإنفاق؟، لو أنفقنا عُشر ما ننفقه على التاي والقهوة، والنُقل التي تؤكل مع التاي: الجوز واللوز وغيرها، لوّفرنا للعلم ومشاريعه ملايين كل سنة، ولبلغنا غايتنا منذ زمن بعيد، على المعلمين أن يعلموا، وعلى الآباء والأولياء أن ينفقوا بسخاء، لم تقم هذه المدارس وأبنيتها الشامخة بلا شيء، ولا الأدوات اللازمة لها، وجهازها الضروري الغالي، أنفقوا على هذه المدارس

---

(1) إبراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 69

(2) - إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الامام، ص : 26

(3) - دبوز، أعلام الاصلاح...، ج5، ص : 61

(4) - المصدر نفسه، ج5، ص : 23

(5) المصدر نفسه، ج5، ص : 24

والمعاهد قبل أن تنفقوا على ضروريات المعاش، اهتموا بأرواح أولادكم قبل أن تهتموا بأجسامهم".(1)

ثمّ إنّ الشيخ بيوض كان يدافع عن هذه المدارس، ويرد على إشاعات " العلماء الجامدين" الذين يسمونها بالمهارس، ويروّجون بين الناس " أنها تعلّم الإلحاد ورقّة الدين، وأنها خطر على الأمة في دينها". (2)

ويدافع عن هذه المدارس أمام سلطات الاحتلال التى تبحث عن أتفه الأسباب لغلقها، لأنها تعتقد أن تلاميذها هم ألدّ أعدائها، فكان في مقدمة المطالب التى تقدم بها الشيخ بيوض إلى لجنة الإصلاحات عام 1944 حرية التعليم العربى.(3)

ونتيجة لهذا الجهد الذى بذله الشيخ بيوض وإخوانه في الإصلاح أنشئت في كل مدينة من مدن ميزاب -بل في كل مكان وجد فيه الميزابيون- مدرسة للتعليم العصرى.

وقد تطور عدد التلاميذ والمعلمين بهذه المدارس في أوائل الخمسينات، ولا أدلّ على ذلك من الجدول التالي الذي أخذناه من تقرير أرسله الشيخ بيوض إلى الدكتور تركي رابح عام 1973. (4)

---

(1) - محمد على دبوز، أعلام الاصلاح..، ج4، ص : 106-107.

(2) - محمد على دبوز، أعلام الاصلاح..، ج5، ص : 26.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص : 28.

(4) - تركى رابح، التعليم القومى والشخصية الجزائرية، ص : 395-396

المدارس	المعلمون	عدد التلاميذ
مدرسة غرداية	7	355
مدرسة بريان	3	253
مدرسة القرارة	16	614
مدرسة العطف	6	100
مدرسة بنورة	3	34
مدرسة مليكة	3	40
مدرسة بني يزقن	4	120
مدرسة قسنطينة	2	80
مدرسة بسكرة	2	54
مدرسة سطيف	2	32
مدرسة العلمة	1	35
مدرسة عنابة	2	40
مدرسة تبسة	1	19
مدرسة بوسعادة	1	19
مدرسة مستغانم	1	19
مدرسة تيارت	1	41
مدرسة سوق أهراس	1	30
مدرسة بلكور (الجزائر)	1	28
مدرسة البليدة	2	43
مدرسة غليزان	1	23

وهذا علاوة على مدارس أخرى في مدن تقرت، جامعة، باتنة، بجاية، الحراش (العاصمة)، وهران، عين البيضاء، المنيعة، وورقلة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والعجيب في الأمر أن دعوة الشيخ بيوض إلى دخول هذه المدارس كانت موجّهة إلى الذكور فقط، أما المرأة فكان يرى أن يبقى تعليمها كما كان قبل الثلاثينات، تعليما شفويا، تلقن فيه بعض العلوم التي تعينها على آداء واجباتها الدينية، وتعلّم بعض المهارات كالخياطة، والنسيج لتنجح في حياتها الزوجية، أما الكتابة فيرى ألاّ تعلم للمرأة، لأنه ربما كانت وسيلة لإفسادها، عندما تكون أداة لتبادل الرسائل بينها وبين الفتيان في المجتمع.

لكنّ بعض تلاميذه -وعلى رأسهم الشيخ عدّون شريفي- كان يخالفه الرأي في هذه المسألة، فعمل على دخول الفتاة الميزابية إلى المدارس الحرة، ففتحت هذه المدارس أبوابها للفتاة الميزابية في وسط الثلاثينات.

و لم يعارض الشيخ بيوض هذه الخطوة، وأكتفى بقوله : " لم آمر بها، و لم تسؤني"، أي لم آمر بدخول البنت إلى هذه المدارس، لكنّ دخولها لا يسوؤني.(1)

ومن خلال الإحصائيات التي تحصّلنا عليها نلاحظ أنّ عدد التلميذات في المدارس الحرة كان في تزايد مستمر، ففي سنة 1959 كان عددهن بمدرستي القرارة وبريان 200، (2) وفي سنة1964 كان عددهن في مدرسة الحياة بالقرارة397 تلميذة، وارتفع هذا العدد إلى 880 تلميذة سنة1970.(3)

وبعد تأسيس هذه المدارس التي كان لكلّ منها برنامجها الخاص بها، بدأ الشيخ بيوض بمؤازرة إخوانه المصلحين في تطوير وتوحيد برامجها، فكان المعلّمون بهذه المدارس يلتقون بالشيخ بيوض مرّة كل عام في العطلة الصيفية " وذلك للنظر في تعديل البرامج وتطويرها، وما يقتضيه ذلك من إصلاحات، ويدوم الاجتماع غالبا يومين كاملين" كما يؤكد الشيخ بيوض.(4)

---

(1) - الشيخ سعيد شريفي، مدير معهد الحياة، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، 25-09-1993م

الأستاذ : عبد اللاوي مرموري ، صالح حديون، محمد بيوض، مقابلة شخصية، القرارة، 23-09-1933م.

(2) - يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 205

(3) - الشيخ محمد بيوض، مدير مدرسة الحياة، رسالة خطية بتاريخ: 13 02 1994م

(4) - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 424

وفي وسط الأربعينات وضع " قانون وحدة التعليم " الذى وحّد التعليم بين هذه المدارس، وعيّن مفتش يجرى عليها تفتيشيه مرّة كلّ عام.(1)

والهدف من هذا الإجراء هو توحيد المضامين العلمية التى يتلقاها التلاميذ بهذه المدارس، لضمان حد أدنى من الانسجام في التفكير بينهم.

وأنشئت لجان عملها تحسين مناهج وبرامج التعليم بهذه المدارس، يقول الشيخ بيوض: "لدينا لجان تعمل الآن لتحسين مناهجنا في التربية والتعليم، وتختار من الكتب المدرسية أحسن ما تظفر به، إن مبدأنا الطموح والتجدّد في دائرة الدين والعقل الحكيم، أمامنا مائة درجة يجب صعودها، ولازلنا في أولها ".(2)

هذا فيما يتعلق بالتعليم الابتدائى، أما التعليم الثانوى، فقد ساهم الشيخ بيوض عمليا في تطوير برامجه عندما أنشأ معهد الحياة.

وقبل الحديث عن هذا المعهد وجهود الشيخ فيه، نذكر أنّ الشيخ بيوض دخل ميدان التعليم في سن مبكرة، فقد أعان شيخه الحاج عمر بن يحي في التدريس في معهده وعمره سبع عشرة سنة، (3) فقد أسند إليه شيخه تدريس كبار الطلبة في الفقه وأصول التشريع، والتفسير، وعلوم العربية من نحو وبلاغة، ودرس الأخلاق في كتاب " عظة الناشئين" للغلايينى.(4)

ولما توفي شيخه عام 1921 كان الشيخ بيوض بموقفه التاريخى سببا في استمرار التعليم في معهد شيخه،(5) وواصل التدريس به أربع سنين مع بعض كبار طلبة شيخه.

وحاول الشيخ بيوض التجديد في أساليب التدريس، وتحسين طرق التربية، في معهد شيخه، فلاقى معارضة شديدة من قبل بعض طلبة شيخه الذين كانوا يصرّون على بقاء الأمور كما كانت عليه في عهد شيخهم، يقول الشيخ بيوض: " ولقد أنكر بعض زملائى

---

(1) - رابح تركي، التعليم القومي ...، ص : 424

(2) - دبوز، أعلام الاصلاح...، ج4، ص : 105

(3) - محمد على دبوز، أعلام الاصلاح...، ج3، ص : 79

(4) - محمد على دبوز، أعلام الاصلاح...، ج3، ص : 8

(5) - محمد على دبوز، أعلام الاصلاح...، 4، ص : 99

طلبة الشيخ الحاج عمر بن يحى الكبار أساليبى المشوّقة الحديثة في التدريس، وطرقى في التربية،[...]، فكانت بينى وبين بعض طلبة شيخى الكبار المنكرين لطرقى في التربية والتعليم أعنف المعارك، بل كان من تلاميذى يومئذ من تأثر بدعاية هؤلاء، وكانوا يحضرون دروسى القيّمة، فإذا قمت سبّونى في الغيب وشتمونى ".(1)

وقد آزر بعض علماء بنى يزقن المحافظين هؤلاء الطلبة في صراعهم ضد الشيخ بيوض، فأرسلوا سنة 1925 وفدا إلى القرارة للدفاع عن المعهد ضد أفكار الشيخ الإصلاحية والتجديدية، وزوّدوه بكتب ورسائل، فأحدث هذا الوفد بلبلة في أوساط الطلبة، فقرّر الشيخ بيوض تجنّبا لأي صدام محتمل أن يخرج من معهد شيخه، وينشيء معهده.(2)

وقد فتح الشيخ معهده، في يوم الجمعة 28 شوال 1343هـ/21ماي1925م،(3) وكان عبارة عن دار أوقفها والده لتكون معهدا علميا بتشجيع من الشيخ الحاج عمر بن يحى، وسمّاه معهد الشباب، وهي تسمية مقصودة، لأنّ الشباب هو رمز الطموح والتجديد المستمر، وبقي على هذا الاسم إلى سنة1954م حيث تغيّر اسمه إلى معهد الحياة، نسبة إلى جمعية الحياة الخيرية التى تشرف عليه.(4)

وقد قسّم الشيخ بيوض الطلبة في معهده -كما فعل شيخه- إلى طبقات، لكلّ طبقة مقررات في العقيدة والفقه، فالطبقة الأولى وهي الطبقة الصغرى، تدرس التوحيد والفقه في كتاب تلقين الصبيان للشيخ السالمى، والنحو في كتاب الأجرومية، والطبقة الثانية تدرس الفقه والتوحيد في كتاب مختصر الخصال لأبى إسحاق الحضرمى، والنحو في القطر لابن هشام، والصرف في لامية الأفعال، والحساب والتاريخ، والطبقة الثالثة تدرس الفقه في كتاب النيل، وأصول الفقه في كتاب طلعة الشمس للسالمى، والنحو في الألفية بشرح ابن عقيل، والصرف في كتاب شذى العرف، والبلاغة في الجوهر المكنون، والمنطق في كتاب السلّم.

---

(1) - دبوز، أعلام الإصلاح...، ج4، ص: 100-101.

(2) - سعيد شريفى، معهد الحياة نشأته وتطوره، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1989، ص: 47-48.

(3) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج3، ص: 16.

(4) - المصدر نفسه، ج 3، ص: 19

وللطبقات الثلاث درس مشترك في الأخلاق يلقيه الشيخ من كتاب عظة الناشئين للغلايني.(1)

ونلاحظ أنه في هذه المرحلة الأولى لم تكن هناك إلا إضافات محدودة في المواد التي تدرس بالمعهد، وذلك أخذا بسنة التدرج في التطوير والتحديد، يقول الشيخ أبو اليقظان وهو ممن ساهموا في وضع برنامج معهد الحياة-: " فلما كان التعليم في كافة الشعوب، ولدى سائر الأمم آخذا في التدرج والارتقاء، إلا شعب ميزاب، ولاسيما بلدة القرارةمنه، فقد بقي على أسلوبه القديم القليل النتيجة، فكر بعض شبيبتها المخلصين في وضع نظام للتعليم جديد، يكون -وهو مزيج بين الأسلوبين- كحلقة بينهما، ريثما تتهيأ النفوس، وتسنح الفرص، وتأتي ظروف للأخذ بأكمل الأسلوب الجديد ".(2)

وتهيئة للنفوس، حتى تتقبل الأسلوب الجديد، كان الشيخ بيوض يقوم بإضافات جزئية لبرامج المعهد، فحوّل درس الأخلاق إلى حلقة توجيهية يحلل فيها قضايا اجتماعية وسياسية، كما يقرأ فيها مقالات من بعض الجرائد والمجلات التي كانت تصله، وأكثرها مصرية، كمجلة الرسالة ومجلة الفتح وجريدة الصرخة.

وتركت هذه الحلقة أثرا كبيرا في نفوس الطلبة، حيث ألهبت فيهم " الحماس الوطني، وكان لها أثر بليغ في ثقافتهم العامة، وتطورهم نفسيا، وتربيتهم اجتماعيا وسياسيا "، كما يشهد بذلك أحد طلبة المعهد في هذه المرحلة.(3)

ثم أحدث الشيخ بيوض دروسا في الأدب العربي في كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وفي كتاب عصر المأمون للدكتور الرفاعي، وفي غيرهما.(4)

ولربط طلبته بأصول الثقافة الاسلامية، كان الشيخ بيوض يلزمهم بحضور درسه في التفسير بالمسجد، بل كان الشيخ يتوقف عن درسه هذا أثناء العطلة الصيفية حتى لا يفوت

---

(1) - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج3، ص : 24.

(2) - سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 56-57.

(3) - سعيد شريفي، المصدر نفسه، ص : 60.

(4) - المصدر نفسه، ص : 61.

طلبته منه شيء. (1)

وأحدث لطلبته درسا في السنّة فقرر لهم في البداية كتاب " صحيح الربيع بن حبيب "، وهو من كتب السنّة المعتمدة عند الاباضية، ودام درسه في هذا الكتاب حوالى ثلاث سنوات، ثم درّس لهم كتاب " صحيح البخارى"، واستعان في شرحه بكتاب "فتح البارى" لابن حجر العسقلانى، (2) ودام هذا الدرس حوالى أربع عشرة سنة، من عام 1350هـ/1931م إلى عام 1364هـ/1945م. (3)

وهدفه من درسه في هذين الكتابين، هو هدف الشيخ عبد الحميد بن باديس من شرحه للموطأ : إعلان القطيعة التامة مع المنهج العقيم الذى ظلّ متبعا في دراسة علوم الشريعة، -الفقه خاصة- حيث يقتصر على " قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها". (4)

ويشرح أحد تلاميذه الطريقة التى كان يدرّس بها كتاب صحيح البخارى بقوله: "كان الشيخ بيوض بعد أن يقرأ التلميذ النص يشرحه ويستنبط ما فيه من أحكام، ويقارن بين أقوال المذاهب فيه، يذكرها كلّها، فيرجّح ما يرجّح بالحجّة والبرهان، لا يتعصّب لمذهبه، ولا يقلّد أحدا فيما اختاره". (5) ولا يقتصر على الجانب الفقهى في تعامله مع النص النبوى، بل كان يستخرج " كل ما في الحديث من دين وأخلاق واجتماع ومعاملات". (6)

ونتيجة لهذا التطور الجزئي، ولبراعة الشيخ بيوض في أسلوب التدريس، ازداد إقبال الطلبة على معهده، فقد " كانوا في آخر الثلاثينات لا يزيدون على ثلاثين طالبا، فصاروا في أول الأربعينات ووسطها يزيدون على مائة طالب، وهو عدد كبير في ذلك الوقت". (7)

---

(1) - الشيخ سعيد شريفى، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، 25-09-1993م.

(2) - محمد ناصر، في رحاب القرآن، الامام الشيخ إبراهيم بيوض، ص : 77.

(3) - إبراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الاسراء، ص : 27.

(4) - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الاصلاحي في الجزائر، ص : 141

(5) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج3، ص : 67.

(6) - سعيد شريفى، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 61

(7) - دبوز، أعلام الاصلاح...، ج4، ص : 63

وبازدياد عدد الطلبة أعيد النظر في تقسيم طبقات المعهد، فزيدت طبقة رابعة، ثم خامسة، ووقع تعديل في المواد وفي الكتب المقررة، حيث اعتمدت كتب حديثة لتسهيل استيعاب العلوم على الطلبة.(1)

وفي ذى القعدة 1360هـ/ديسمبر 1941 نقلت دروس الشيخ من داره إلى المسجد، فتحققت أمنيته في ربط هذه المؤسسة التعليمية بالمسجد.(2)

وفي سنة 1948 –السنة التى أنشأت فيها جمعية العلماء لجنة عليا للتعليم(3)– تأسست تحت إشراف الشيخ بيوض جمعية مكونة من المتخرجين من معهد الحياة، سميت "جمعية قدماء التلاميذ" فشكلت هذه الجمعية لجنة من أساتذة معهد الحياة وبعض أعضائها، فأجتمع أعضاؤها في القرارة في خريف 1380هـ: " فاستعرضوا مواده [أي معهد الحياة] الدراسية وبرامجه ومناهجه، فحسنوها، وجعلوا المعهد يساير العصر، ويقوم بمراد النهضة".(4)

فأضيفت بالتدريج في برامج المعهد مواد في العلوم المعاصرة كالجبر والهندسة والفيزياء والعلوم التطبيقية، فأصبح في المعهد كل ما يتطلبه العصر من علوم وفنون، أصبح فيه التفسير والحديث، والأدب وتاريخه، والفلسفة وعلم نفس الطفل، والعلوم الرياضية.(5)

وفي سنة 1379هـ/1959م، زيدت سنة سادسة في المعهد.(6)

وبعد الاستقلال كان من الضروري إعادة النظر في سير المعهد فعقد اجتماع في الجزائر العاصمة برئاسة الشيخ بيوض أجريت فيه بعض التعديلات على برامج المعهد، حتى يساير التعليم الرسمي في أكثر مواده، وذلك حتى يتمكن الطلبة المتخرجون من المعهد من المشاركة

---

(1) – سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 62.

(2) – المصدر نفسه، ص : 61.

(3) – تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 218.

(4) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ..، ج3، ص : 215.

(5) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة..، ج3، ص : 24.

(6) – سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 66.

في امتحانات شهادة الأهلية في التعليم المتوسط، وشهادة البكالوريا في التعليم الثانوي، وليتمكنوا من الدخول إلى الإدارات وتولي الوظائف العامة.(1)

وفي عام 1396هـ/1976م زيدت السنة السابعة في المعهد، فكانت الأربع الأولى للتعليم المتوسط، والثلاث الأخرى للتعليم الثانوي، فلما نهجت المدرسة الجزائرية نهج التعليم الأساسي سايره المعهد في نظامه.(2)

ومع هذا التحديد في مضامين التعليم ووسائله، أولى المعهد اهتماما خاصا بالجانب الأخلاقي والاجتماعي في تكوين الطلبة، فكان شعاره " الخلق قبل العلم، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد"،(3) وكانت مضامين التعليم وأساليب الادارة موجهة لترسيخ هذين البعدين في نفوس الطلبة، ففي المعهد درس يومي في الأخلاق يلقيه الشيخ بيوض كل صباح في " وقت نشاط النفس وإقبالها ".(4)

وتدعيما لهذا الدرس يفرض المعهد رقابة على سلوك الطلبة خارج المعهد، ويعتبر الشيخ بيوض هذه الرقابة من خصائص التعليم الإسلامي حين يقول: " لأن تعليمنا ليس كالتعليم المادي الموجود في بلاد الدنيا، حيث لا تكون هناك بين المعلم والتلميذ أية علاقة، فما على المعلم إلا أن يلقّن معلومات، وبعد ذلك لا يهمّه منه شيء بعد خروجه من المدرسة، هل ذهب إلى المقهى ليقامر، أو إلى الحانة ليسكر، أو إلى أيّ مكان آخر ليفجر، بينما الواجب على المعلم المسلم في الابتدائي والثانوي والجامعي ألا تقتصر علاقته مع التلميذ على هذا، لأن العلم يقصد به التربية".(5)

فإذا لاحظ المعهد انحراف أحد الطلبة، سارع إلى علاجه "بالإقناع وبالوسائل اللينة"، فإذا لم يرتدع عقد له مجلسا تأديبيا يحضره كل الطلبة، ويلقي الشيخ بيوض كلمة توبيخية

---

(1) سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 66.

(2) المصدر نفسه، ص : 67.

(3) دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج3، ص : 33

(4) المصدر نفسه، ج3، ص : 31

(5) إبراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 40 41.

لذلك الطالب، ويبين له عواقب إصراره على انحرافه، ويتبع ذلك بعقوبة مادية " فيجلده إذا استوجب الجلد ".(1)

ويعدّ المعهد طلبته إعدادا اجتماعيا، فيوجب عليهم القيام بكناسة المعهد وتنظيفه، والقيام بمكتبته، وكتابة جريدة الشباب التي يصدرها، والقيام بحفلات الأعراس في المدينة، وهذا الواجب الأخير يمكّنهم من الاتصال المباشر بالجمهور " فيدرسونه، ويتعودون خدمته".(2)

وفي المعهد جمعية لكل سنة من سنواته، وظيفتها تشجيع الطلبة على البحث والنقاش، وتمرينهم على الخطابة والكتابة.(3)

وتدعيما لهذا التكوين الاجتماعي أنشأ المصلحون أفواجا كشفية عام 1943م، لتدريب الطلبة على أعمال الكشف، ولكن بطريقة غير منتظمة، فلما تأسست جمعية قدماء التلاميذ عام 1948 أسست كشافة الجنوب، واستمرت في نشاطها بعد الاستقلال، وفي أوائل السبعينات أوقفت السلطة المحلية نشاطها تعسفا، ثم استأنفت نشاطها بعد ذلك تحت غطاء منظمة الشباب، بأسماء مختلفة، منها فوج الحياة.

ومن أعمالها القيام بخدمات تطوعية في المشاريع الكبرى، كبناء المساجد والمدارس والسدود.(4)

وكان هذا التطور والتجديد في طرق التربية والتعليم في المدارس الابتدائية وفي معهد الحياة، استجابة لما كان يؤكد عليه الشيخ في دروسه وتوجيهاته من ضرورة مواكبة العصر وعدم الجمود على القديم، ومن هذه التوجيهات قوله في درس له في مدينة بنورة بتاريخ 29 سبتمبر1944 :" لا نرضى في مدارسنا ومعاهدنا وفي كل أعمالنا الأساليب العقيمة البطيئة، إننا في عصر الاتقان والسرعة، أصبح الناس يطيرون طيرانا، لا نرضى نحن أن نسير في التعليم

---

(1) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص : 32.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص : 34

(3) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 429.

(4) - سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 82-84

وفي أنواع جهادنا كلّها على حمر هزيلة بطيئة دبرة، لايليق بنا في التربية أن نجمد على طرق ووسائل عقيمة بالية، أكل عليها الدهر وشرب، هي من العصر الذى هرمت فيه أمتنا وقامت، وكانت تلك الأساليب من أسباب ضعفها وموتها".(1)

وبهذا العمل الذى قام به الشيخ بيوض بموازرة إخوانه في الإصلاح في المدارس الابتدائية ومعهد الحياة، استطاع أن يتجاوز بإصلاحاته الجانب الشكلى إلى مضامين التعليم نفسها، على خلاف ما كان سائدا في كثير من مدارس الاصلاح في العالم الاسلامى، حيث ظلّ مضمون التعليم " هو نفس المضمون منذ ستة قرون، برغم أن الأستاذ وتلاميذه يجلسون على الكراسى والقماطر "، (2) وكان لهذا الإهمال في تجديد المضامين آثاره السلبية، حيث لم تستطع هذه المدارس القيام بدورها المنوط بها، وظلّت أوجه النشاط بها متناغمة مع عالم ولّى وانقضى". (3)

وحدث هذا في بعض المدارس الإصلاحية بالجزائر، حيث توقّع المشرفون عليها أنه بإمكانهم أن يغيّروا عالما مشحونا بالأفكار" ببعض الاصلاحات السطحية، كإدخال الكراسى والمناضد ووسائل التعليم الحديثة إلى مدارسهم " ولم يعلموا أنّ هذه إن كانت خطوة أولى- فإن من السذاجة الاكتفاء بها ".(4)

يؤكد باحث جزائرى في سياق حديثه عن الأعمال التجديدية التى قام بها الشيخ بيوض هذه الملاحظة منبّها إلى أبعادها الفكرية فيقول :" لم تتغير أدوات العمل فقط، بل وتيرة التعليم (العطل السنوية في تواريخ ثابتة)، وكذلك المضامين التربوية ذاتها، لقد أضاف إبراهيم بيوض إلى الدروس الدينية والفقهية، الجغرافية والتاريخ والأدب والرياضيات، ولم يكن لهذا التجديد الحاصل في العشرينات قيمة أدواتية فقط، بل هو شحنة وضربة كبرى، لأنه يقود إلى علاقة جديدة مع الغرب، غير مبنية على خضوع غاضب أو صابر، بل دمج هجومى لما يصنع قوته".(5)

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح ، ج4، ص : 143.

(2) -(3) – مالك بن نبى، وجهة العالم الاسلامى، ص : 70.

(4) - المصدر نفسه، ص : 53.

(5) – عبد القادر حفناوى، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص : 50.

وعند زيارة الأستاذ مالك بن نبى لمنطقة ميزاب عام 1968 كتب مقالا سجّل فيه ملاحظة تلفت انتباهنا إلى ثمرة المجهود التحديدى الذى قام به الشيخ بيوض بمؤازرة إخوانه، وذلك عندما كتب يصف طلبة معهد الحياة فقال: " ولقد التقيت تلاميذ هذا المعهد، وهم يتصفون بالاجتهاد في الدراسة، ومتمسكون بتقاليد مجتمعهم، ومع ذلك يهتمون بمشاكل عصرهم، ويتناولونها دون التنازل عن تقاليدهم".(1)

ثم لكي لا تضيع هذه الجهود التى بذلها الشيخ بيوض وإخوانه في الإصلاح، وحتى تؤتي أكلها في الواقع، أرسل المتخرجون من مدارس الاصلاح في ميزاب والشمال، وكذا المتخرجون من معهد الحياة في بعثات دراسية إلى دول عربية وغربية لإتمام دراساتهم العليا، فأرسلت بعض المدارس الابتدائية تلاميذها إلى المدارس الثانوية الفرنسية، لإتمام دراستهم الثانوية، والانتقال إلى الجامعات الفرنسية للتخصّص في الطب وغيره، وأرسلت بعض هذه المدارس بعض خريجيها إلى معاهد تونس الثانوية، وانتقلوا منها إلى بعض الجامعات الأوروبية في سويسرة وإسبانيا وأمريكا، ووجّه معهد الحياة الكثير من خرّيجيه إلى الجامعات العربية الشرقية في تونس والقاهرة ودمشق وبغداد للتخصص في علوم اللغة والشريعة.(2)

وبعد حديثنا عن جهود الشيخ بيوض في تأسيس المدارس الحرة في ميزاب في الشمال، ثم عن جهوده في تطوير وتجديد برامج ومناهج التعليم بها، نختم حديثنا عن موقف الشيخ بيوض من مدارس التعليم الحر، بالحديث عن الجهود التى بذلها للمحافظة على هذه المدارس.

ونذكر في البداية أنّ كثيرا من الحركات استطاعت أن تنجز منجزات، وتنشىء مؤسسات تعليمية، لكنّ القليل من هذه الحركات من استطاعت أن تحافظ على هذه المنجزات أمام ضربات الأعداء المتتالية.

ومن هذه الحركات القليلة –فيما نعتقد– الحركة الاصلاحية التى قادها الشيخ بيوض في منطقة ميزاب،حيث كانت هذه الحركة تنجز، وتوفر من العوامل ما تحافظ به على

---

(1) - Malek Bennabi, L'invitation du M'Zab, Art, revolution africaine, N° 274, semaine du 20 au 26 mai 1968, p p : 23 - 24.

(2) محمد على دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص: 33

منجزاتها، ولذلك بقيت المؤسسات التي أنشأتها هذه الحركة إبان الفترة الاستعمارية تقوم بدورها بعد استقلال الجزائر، رغم الهجمات التي تعرضّت لها من قبل المعارضين للتيار الإصلاحي.

وكان لشخصية الشيخ بيوض بما توفر فيها من حنكة وذكاء، الدور الأكبر في المحافظة على هذه المنجزات أمام مكائد الاستعمار، وأمام محاولات المعارضين بعد الاستقلال.

وكان الشيخ بيوض يشعر بهذه القدرات التي أوتيها، فلما اقترح عليه بعض إخوانه عام1957 الخروج إلى تونس خوفا عليه من بطش المستعمر، رفض ذلك وقال: " أنا أرى أني قائم بأعمال مفيدة جدا للجزائر في حقل الثورة وحقل العلم، ولا مسوّغ لي للهروب مطلقا، ثم إني أعتقد أنني إذا خرجت من الجزائر، فلن تبقي -والله- فرنسا على مدرسة من مدارسنا في ميزاب وفي التل ولا المعهد، فقدّروا هذه الخسارة الكبرى، وفي مقابلة هذا إنكم تعلمون بمناوراتي للفرنسيين، وبتوفيق الله أحمي هذه المؤسسة [أي معهد الحياة] التي تخرج في كل سنة فوجا من رجال جزائر الغد". (1)

ويشرح الشيخ بيوض سياسته مع الاستعمار في هذا الباب قبل الثورة وإبانها فيقول: "كنت طوال أيام الثورة كما كنت قبلها من أول عمري مجتهدا بكل ما أوتيته من قوة في نشر التعليم الإسلامي العربي بمختلف درجاته الابتدائي والثانوي [...]، وكنت أداري الفرنسيين وأنافقهم بمختلف الأساليب لأدفع أذاهم عن المدارس، وعن الطلبة، ولقيت في ذلك من العنت الشيء الكثير، وهم يعتقدون أنّ الطلبة كلّهم أعداء فرنسا". (2)

ونلمس هذا الأسلوب الذكي في المحافظة على المنجزات دون التخاذل عن إتخاذ المواقف عندما يحين وقتها، في موقف الشيخ بيوض من قضية التجنيد الإجباري، حيث كتب عريضة احتجاج يندد ويستنكر فيها محاولة فرنسا تجنيد أبناء المنطقة عنوة، ناقضة بذلك بنود المعاهدة التي بينها وبين سكان ميزاب، وأمضى أهل البلدة كلهم على تلك العريضة، ولم يستثن الشيخ بيوض من ذلك إلا نفسه وطلبته، لأنه كان يدرك أن الاستعمار

---

(1) - إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص :41

(2) - المصدر نفسه، ص : 39.

سوف يتخذها ذريعة للقضاء على المعهد، وقد حاول رغم ذلك أن يربط العريضة بالشيخ، فاستقدمت إدارة الإحتلال أهل البلدة فاستجوبتهم لتحصل منهم على اعتراف تدين به الشيخ بيوض، فثبت أهل البلدة و لم يذكروا اسم الشيخ مطلقا.(1)

ثم إن الشيخ بيوض كان يستغل كل فرصة تتاح له للدفاع عن هذه المدارس، فلما استدعي لتقديم مطالب الأمة الميزابية إلى لجنة الاصلاحات عام1944 كان في مقدمة المطالب التي تقدم بها : " حرية التعليم العربي في الجزائر، والدفاع عن المدارس العربية الحرة".(2)

وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم دخول الشيخ إلى المجلس الوطني الجزائري سنة1948، حيث حاول أن يستغل موقعه كنائب عن ميزاب في الدفاع عن قضايا أمته، وعلى رأس هذه القضايا مدارس التعليم الحر. (3)

كما كان الشيخ بيوض يوظف النفوذ الذي كان لبعض التجار الميزابيين لتحقيق أغراض الاصلاح، والمحافظة على مؤسساته، ويتجلى ذلك مثلا في قضية الترخيص لجمعية الحياة، حيث رفضت إدارة الاحتلال في بداية الأمر منح رخصة لمؤسسي هذه الجمعية عام 1934، فتجاوز المصلحون هذه الادارة وطرحوا القضية على الولاية العامة في فرنسا عن طريق السيد خيزي عيسى بن عمارة أحد التجار الميزابيين بمسكرة، فأمرت الولاية العامة بمنح الرخصة عام 1937م.(4)

وبعد الاستقلال استمرت جهود الشيخ بيوض في المحافظة على هذه المدارس، أمام الهجمات التي كانت تتعرض لها من قبل من سمّاهم الشيخ بـ "اللائكيين المتحللين" ويمكن أن نلخص أسلوب الشيخ في رد هجماتهم في الخطوات التالية :

- الرد على الشبهات التي يثيرونها حول هذه المدارس، ومناقشتها مناقشة موضوعية، وبيان الخلفيات التي يخفيها أصحابها، حتى يكون المجتمع على بيّنة من أمرهم.

---

(1) دبوز، أعلام الاصلاح ، ج2،ص :184

(2) دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 27 28.

(3) - إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 97 98.

(4) - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 424.

وقد نجح الشيخ بيوض في هذا نجاحا كبيرا، باستغلاله لمنبر المسجد كوسيلة إعلامية في مواجهة حملاتهم الصحفية. (1)

– عزل هؤلاء المعارضين عن السلطات الرسمية، وذلك ببيان أن آراءهم لاتمثل التوجه الرسمي للحكومة الجزائرية، لأن الشيخ بيوض كان يدرك أن هذا اللوبي اللائكي إنما يقوم بحملاته الإعلامية بهدف دفع الحكومة إلى اتخاذ قرارات معينة، يقول الشيخ بيوض موضحا خطتهم : "وقد دأب هؤلاء منذ فجر الإستقلال الوطني على مطالبتهم بغلق هذه المدارس وإلحاقهابالتعليم الرسمي، حتى لايقوم عليها إلاّ الموظفون الرسميون، فكم نشروا من مقالات في الجرائد بهذا الصدد، وكم كتبوا من تقارير يزيفون فيها الحقائق على المسئولين، بأسلوب من الإغراء والإفتان دونه وساوس الشيطان". (2)

–الاتصال بالسلطات الرسمية لتقديم شروح حول القضايا التي يزيّفها هؤلاء المغرضون، وكثيرا مانجحت هذه الإتصالات والمساعي في رد كيدهم، كما حدث بعد الإستقلال مباشرة بعد صدور مرسوم 28 أكتوبر 1962م الذي يقضي بإلحاق المدارس الحرة بالتعليم الرسمي، حيث اتصل الشيخ بيوض بوزير التربية للدفاع عن استقلالية هذه المدارس، يقول الشيخ بيوض : "وفي الغدّاة مباشرة قابلته في مكتبه لأبيّن له بأن التعليم الذي نمارسه في مؤسّساتنا هو تعليم ديني محض نعتبره مكمّلا للتعليم الرسمي، إذ لانقوم به إلا في الأوقات الخارجة عن التعليم العمومي، ضرورة أنّ تلاميذنا منذ رجون في المدارس الرسمية بكاملهم، فما كان من سعادة الوزير إلاّ أن أجابني بأن هذا النوع من التعليم لايشمله المرسوم المذكور". (3)

وكما حدث أيضا عند صدور قانون توحيد التعليم لسنة 1976م، حيث أثمرت مساعي الشيخ بيوض مع الرئيس هواري بومدين، فصدر قرار رئاسي يوم 17 جويلية 1976

---

(1) – ابراهيم بيوض ، حديث الشيخ الإمام، ص : 27-35

(2) – المصدر نفسه، ص : 28

(3) – المصدر نفسه، ص : 33

يستثنى مدارس الميزابيين في الجنوب و الشمال. (1)

– التزام المرونة والحكمة في مواجهة مكائد المعارضين، وعدم اللجوء إلى العنف، لأن هؤلاء المعارضين كثيرا مايلجأون إلى أسلوب الإستفزاز، حتى يضعوا السلطة القائمة في موقف مواجهة لحركة الإصلاح ومنجزاتها.

يقول الشيخ بيوض مؤكدا التزامه بهذا المبدأ : "إننا نحمد الله تعالى على منّه وفضله إذ ألهم المسؤولين إلى اليوم فصمّوا آذانهم عمّا قدم إليهم من تقارير ضافية في هذا الموضوع، وإذا قدّر لهم أن تمتد أيديهم في يوم من الأيام لهذه المؤسسات سوف لا نألو جهدا في الطلب والإلحاح على إبقائها مهما كلّفنا ذلك من ثمن دونما هرج ولاعنف". (2)

بل كان الشيخ يوجّه تلاميذه حتى لايقعوا في فخ هؤلاء المعارضين، يقول الشيخ : "كثيرا ماوجهت بعض المخلصين من أبنائنا وإخواننا، وقد استفزّتهم تلك الأباطيل، فيحاولون المعاملة بالمثل في الرد والملاحاة، واجهتهم بالحكمة والتبصر لأخفف من سورة غضبهم وفورة حماسهم، بأن التعجّل في مثل هذه المواقف يأتي بعكس النتيجة أحيانا". (3)

– الإصرار على أن تبقى هذه المدارس مستقلة في مواردها المالية حتّى لاتتعرض لأية ضغوط من أيّ جهة كانت، يقول الشيخ بيوض : "كانت [هذه المدارس] و لم تزل معتمدة في نفقاتها في الإنشاء والبناء والتسيير على إشتراكات الأعضاء وتبرّعات المحسنين، و لم يدخل صناديق ميزانيتها درهم ولادينار من أيّ حكومة كانت، أو هيئة رسمية، لا في القديم ولا في الحديث". (4)

وقد أكد الأستاذ مالك بن نبي عند حديثه عن معهد الحياة– على هذا العامل فقال : "وبمجرد الوجود المادي للمعهد يعتبر خاصية من خواص تنظيم المجتمع الميزابي". (5)

---

(1) – بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 41.

(2) – المصدر نفسه، ص : 32.

(3) – المصدر نفسه، ص : 33

(4) – تركي رابح، التعليم القوميوالشخصيته الجزائرية، ص : 426

(5) - Malek bennabi, l'invitation du M'zab, revolution africaine, semaine du 20 au 26 mai 1968, p p : 23-.

ب)- مدارس التعليم الفرنسي.

لما احتلت فرنسا ميزاب عام 1882م أنشأت به مدارس ابتدائية للتعليم الفرنسي، بهدف تكوين جيل موصول باللغة والثقافة الفرنسية، مقطوع الصلة بلغته وثقافته العربية الإسلامية، وذلك لقناعتها أنّ الإحتلال الذي لايصحبه تعليم قويّ يجعل المحتلّ تابعا في ثقافته وسلوكه لمن احتله، احتلال لايمكن أن يدوم لفترة طويلة.

ومن هذه المدارس التي أنشأتها مدرسة بغرداية عام 1886م، ومدرسة بالعطف عام 1892، ومدرسة ببني يزقن في السنة نفسها، ومدرسة بمليكة عام 1897م.(1)

ولما رأت أن أغلب الميزابيين يشتغلون بالتجارة، فتحت مدرسة للتكوين المهني بغرداية عام 1896 تدرس فيها العلوم المتعلقة بالتجارة، وأضافت إليها فرعا لتعليم حرفة النقش على النحاس عام 1909م.

وفتحت المجال أمام المبشّرين لفتح مدارس خاصة، فأنشأوا مدرسة للأخوات البيض لتعليم الفتيات الخياطة والنسيج عام 1893م، ومدرسة للآباء البيض بغرداية عام 1903م.(2)

وقد اتخذ الميزابيون موقفا معارضا لهذا التعليم، فنفروا منه، ورفضوا دخول أبنائهم إلى مدارسه، لأنها --كما يعتقدون - إنما أنشئت لتلقين الكفر، ومحاربة الإسلام.

وقد حاولت سلطات الإحتلال إجبار أبنائهم على دخولها بقوة القانون، فلم يرضخوا، بل كانوا -إذا حلت السنة الدراسية- يهرّبون أبناءهم إلى الشمال، فأصدرت سلطات الإحتلال قانونا تمنع فيه التلاميذ من مغادرة ميزاب إلا برخصة.(3)

ويمكننا ملاحظة هذا النفور من هذه المدارس من خلال إحصائيات عدد التلاميذ بهذه المدارس في السنوات الأولى من القرن العشرين.

فمدرسة بني يزقن --مثلا- التي فتحت أبوابها عام 1892، لم يزد عدد التلاميذ بها عام 1908م على خمسين تلميذا، وبقي هذا العدد ثابتا إلى سنة 1910م، رغم أنّ عدد

---

(1)-(2) - يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 123.

(3) -- دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 34.

الأطفال الذكور الذين بلغوا سن الدخول إلى المدرسة كان يقارب 480 طفلا عام 1908 (1).

وإذا علمنا أنه في مدينة واحدة، كمدينة بني يزقن، كان العدد الإجمالي للتلاميذ في محاضرها ودور العلم بها حسب إحصاء 20 سبتمر 1908، هو 217 تلميذا، (2) ندرك العدد الكبير للأطفال الميزابيين الذين لم يدخلوا المدرسة الفرنسية، ودام هذا النفور إلى العشرينات من هذا القرن. (3)

وفي وسط العشرينات تبنّت الحركة الإصلاحية في ميزاب بقيادة الشيخ بيوض الدعوة إلى دخول أبناء ميزاب إلى هذه المدارس. (4)

والدوافع التي دفعت الحركة الإصلاحية إلى هذا الموقف هو إدراكها أنّ هذه المدارس أصبحت أمرا واقعا لايمكن القفز فوقه، فقد فرضت إدارة الإحتلال لغتها في جميع المجالات، فلم يعد بإمكان من يجهلها أن يقضي حوائجه مهما كانت بسيطة، أو يدافع عن حقوقه مهما كانت مشروعة إلا بها، ثم لأن إدارة الإحتلال تشترط فيمن يتقدم لأية وظيفة إدارية أن يكون حاصلا على الشهادة الإبتدائية من مدارسها، وكذلك لأن هذه المدارس تدرس العلوم الضرورية لمواكبة العصر. (5)

وانطلاقا من هذه الدوافع يمكننا أن نحدد الأهداف التي ترمي الحركة الإصلاحية إلى تحقيقها من خلال دعوتها إلى دخول هذه المدارس في هدفين اثنين :

الأول : وهو هدف سياسي اجتماعي، يتمثل في تمكين جماعة من أبناء الأمة من احتلال مناصب في مختلف الإدارات، لجعل الإدارة في خدمة الفرد الميزابي.

والثاني : وهو هدف علمي، له أبعاده الإجتماعية والإقتصادية، ويتمثل في توجيه عدد من التلاميذ المتخرجين من هذه المدارس إلى الثانويات والجامعات الفرنسية أو الأوروبية

---

(1) – يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 123.

(2) – المصدر نفسه، ص : 122 123.

(3) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ص : ج5، ص : 34

(4) – المصدر نفسه، ص : 34

(5) – المصدر نفسه، ج5، ص : 35

للتخصّص في العلوم الضرورية للحياة المعاصرة، كعلم الطب، والصيدلة، والقانون والتجارة، وذلك بهدف تحرير مجتمعهم من قبضة الأطباء اليهود والفرنسيين، وضمان إطارات كفأة للجزائر المستقلة. (1)

وحتى يشجع الشيخ بيوض عمليا سكان ميزاب عامة والقرارة خاصة على تسجيل أبنائهم في مدارس التعليم الفرنسي، كان يحضر بنفسه افتتاح السنة الدراسية، بمدرسة القرارة، ويسجّل التلاميذ من أسرته وعشيرته، ويبقى مع لجنة التسجيل إلى أن تنتهي أعمالها، حتّى لاترفض أحدا. (2)

ولما كان "العلماء الجامدون" عاجزين عن إدراك الأهداف البعيدة لهذا الموقف الذي وقفه الشيخ بيوض وإخوانه في الإصلاح من التعليم الفرنسي، أعلنوا معارضتهم لهذا الموقف واعتبروه مروقا من الدين، ودفعا بأبناء الأمة إلى الكفر والهلاك، ووجدوا في العامة من الناس آذانا صاغية في بداية الأمر. (3)

ولم ينتبه هؤلاء العلماء إلى الطريقة الحكيمة التي اعتمدها علماء الإصلاح للمحافظة على مقوّمات الشخصية العربية الإسلامية في نفوس التلاميذ الموجّهين إلى المدارس الفرنسية حيث وضعوا برنامجا تعليميا خاصا لهؤلاء التلاميذ خارج أوقات دراستهم في المدرسة الفرنسية، فيفتتحون يومهم بالدراسة بالمدرسة الحرّة ساعتين في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة الفرنسية، ثم يدرسون بها حوالي ثلاث ساعات في المساء بعد خروجهم منها.

وتركزّ المدرسة الحرّة في هذين الوقتين على ربط التلميذ بأصول الإسلام كتابا وسنة، وتزوّده بثقافة عامة تحفظ له دينه ولغته وتاريخه.

ففي الفترة الصباحية يحفظ التلاميذ حصّتهم من القرآن ويستظهرونها على المعلم، كما يحفظون بعض الأحاديث النبوية التي تشرح لهم لتشربها نفوسهم، وفي الفترة المسائية يدرسون "العقيدة، وفقه العبادات، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين، وتاريخ الجزائر

---

(1) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر...، ج5، ص: 36

(2) – المصدر نفسه، ج5، ص: 42

(3) – المصدر نفسه، ج5، ص: 43

والمغرب وجغرافيتهما، وجغرافية البلاد الإسلامية الأخرى، واللغة العربية والنحو الصرف والإنشاء والمحفوظات من الأدب العربي البليغ". (1)

ونتيجة لهذه الجهود التي بذلها المصلحون في ميزاب بقيادة الشيخ بيوض ازداد عدد التلاميذ المقبلين على التعليم الفرنسي فبلغ عددهم 750 تلميذا في السنة الدراسية 1932م-1933م. (2)

ومع تزايد عدد التلاميذ في أول الأربعينات طالب علماء الإصلاح بتوسيع المدارس الموجودة، وبناء مدارس جديدة من جهة، وطالبوا من جهة أخرى بترقية التعليم الفرنسي بهذه المدارس وتحسينه حتى يشمل جميع العلوم التي تدرّسها المدارس الفرنسية لأبناء الشمال، ذلك لأنهم لاحظوا أن هدف إدارة الإحتلال لم يكن هو تمكين أبناء الجزائريين من ثقافة وعلوم العصر، بل تلقينهم لغة وثقافة بسيطة تجعلهم صالحين للإستغلال والخدمة، بدليل أن التعليم في هذه المدارس كان عقيما، حيث تمرّ السنون العديدة دون أن ينجح تلميذ واحد في أغلب هذه المدارس في الشهادة الإبتدائية. (3)

ولما استدعي الشيخ بيوض من قبل لجنة الإصلاحات عام 1944 لتقديم مطالب الأمة الميزابية كان في مقدمة المطالب التي تقدم بها : "توسيع نطاق التعليم الفرنسي وترقيته". (4)

ولما تمكن المصلحون من السيطرة على المجالس البلدية سخّروها لتوسيع دائرة التعليم الفرنسي، فخصّصوا مبالغ معتبرة في ميزانية البلديات لبناء مدارس جديدة، وأنشأوا هيئات لمراقبة سير التعليم بها. (5)

وساهمت الجمعيات التي أنشأها المصلحون في هذا الإطار، كما فعلت جمعية "النور" التي فتحت مدرسة للتعليم الفرنسي بمدينة بنورة في وسط الأربعينات. (6)

---

(1) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 38-39.

(2) – يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 158.

(3) – دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 43

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص : 44.

(5) – المصدر نفسه، ج5، ص : 45.

(6) – المصدر نفسه، ج5، ص : 44.

ولما رأت العامة النتائج الحسنة التي عادت على ميزاب بدخول أبنائه هذه المدارس، ازدادت إقبالا عليها، واضطر العلماء الجامدون في آخر الأربعينات إلى الكفّ عن معارضتهم لدخول هذه المدارس. (1)

واستمر هذا الإقبال على هذه المدارس إبّان الثورة التحريرية إلى الإستقلال، وهذا إحصاء لعدد التلاميذ بهذه المدارس سنة 1956 يؤكد ذلك. (2)

البلدة	عدد الأقسام		عدد التلاميذ	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
غرداية	15	4	740	189
الصنابة	2		50	
مليكة	3		102	
بني يزقن	2		85	
بنورة	3		50	
العطف	4		166	
بريان	7		359	
القرارة	10		442	
ميزاب	50		2183	

(1) – دبوز، الأعيوم الأصلاح في الجزائر، ج5، ص : 46.

(2) – يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 206.

وأول مايلفت انتباهنا في هذا الإحصاء، هو الزيادة المعتبرة لعدد التلاميذ بهذه المدارس والتي بلغت 2183 تلميذا بعد أن كانت لاتتجاوز 750 تلميذا عام 1933م.

والملاحظة الثانية التي نخرج بها من هذا الإحصاء أنّ المدن التي كانت الغلبة فيها للتيار الإصلاحي ازداد فيها إقبال التلاميذ على مدارس التعليم الفرنسي بشكل واضح، بينما بقيت نسبة ازدياد عدد التلاميذ بهذه المدارس في المدن التي هيمن فيها المحافظون ضعيفة.

فمدينة القرارة، وهي مركز نشاط الشيخ بيوض والمصلحين لم يكن بها الاّ قسمان للتعليم الفرنسي في أول الأربعينات (1)، فأصبح عدد الأقسام بها حسب هذا الإحصاء عشرة أقسام، ووصل عدد التلاميذ بها إلى 422 تلميذا.

أما مدينة بني يزقن التي تعتبر مركز المحافظين، فلم يتجاوز عدد أقسام التعليم الفرنسي بها قسمان، وعدد التلاميذ 85 تلميذا.

وملاحظة ثالثة نخرج بها من هذا الإحصاء وهي أن نسبة دخول الفتاة الميزابية إلى هذه المدارس ضعيفة جدا، وبإستثناء مدينة غرداية التي سجّلت بها 189 تلميذة، فإن المدن الميزابية الأخرى خلت المدارس فيها من الإناث، وهذا يرجع إلى الموقف الذي اتخذه الجميع، سواء في ذلك علماء الإصلاح أو العلماء المحافظون، حيث رفضوا دخول الفتاة الميزابية إلى مدارس التعليم الفرنسي.

وهذا إحصاء آخر لسنتي 1958م و 1959م يؤكد نفس الحقيقة التي أشار إليها الإحصاء السابق. (2)

---

(1) – يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 206

(2) – المصدر نفسه، ص : 158 و 207.

السنة 1958			السنة 1959	
البلدة	عدد التلاميذ		عدد التلاميذ	
	بنون	بنات	بنون	بنات
غرداية	800	219	880	239
بريان	405	75	420	75
القرارة	553	25	611	40
العطف	190		237	
مليكة	109	7	140	16
بني يزقن	129		183	
بنورة	135		142	
مرماد			36	
ميزاب	3221	296	2649	370

والملاحظ أنه رغم اشتداد المواجهة بين الشعب الجزائري والإحتلال الفرنسي فإن عدد التلاميذ بهذه المدارس في تزايد مستمر، حيث قفز من 2183 سنة 1956م إلى 2617 سنة 1958م، ثم إلى 3019 سنة 1959م، أي بزيادة قدرها حوالي 400 تلميذا كل سنة، وهي زيادة كبيرة بالنظر إلى الظروف العامة التي كان يمر بها المجتمع الجزائري في تلك الفترة الحالكة من تاريخه.

هذا بالنسبة لموقف الشيخ بيوض من مدارس التعليم العام، أما بالنسبة لمدارس التعليم المسيحي التي كان يشرف عليها الآباء والأخوات البيض فقد كان موقف الشيخ بيوض منها واضحا، وهو رفض دخول أبناء ميزاب إليها، وقد اجتمع في هذا الموقف علماء الإصلاح والعلماء المحافظون لإدراكهم أن هدف هذه المدارس تبشيري محض.

ويمكننا ملاحظة آثار هذا الموقف من جهة في العدد المحدود لهذه المدارس التي تمركزت في غرداية، وفي الإقبال الضعيف عليها من جهة أخرى.

وهذا إحصاء لعدد التلاميذ بمدرسة الآباء البيض يؤكد لنا ذلك. (1)

السنة	عدد التلاميذ
1932	120
1933	150
1938	190
1956	259
1958	276
1959	312

أما مدارس التكوين المهني فقد كان موقف الشيخ بيوض منها إيجابيا، حيث دعا الميزابيين إلى إدخال أبنائهم إلى هذه المراكز لتطوير الصناعات والحرف والتجارة والفلاحة في منطقة ميزاب، وتخليص أنفسهم من هيمنة اليهود الذين كانوا يحتكرون بعض الصناعات كالحدادة والصياغة.

وكخطوة عملية أرسل الشيخ بيوض عام 1939 بعثة تتكون من أربعة طلبة من الضاية إلى مركز التكوين المهني بغرداية، واكترت لهم جمعية الحياة دارا يقيمون بها.

وعند عودة أحد أعضاء البعثة وهو السيد عبد الله حريز وقد حصل على الشهادة في حرفة النجارة تنازلت جمعية الحياة عن مدرسة قديمة لها ليستغلها كدار للنجارة وذلك سنة 1942، وساهم الشيخ بيوض في تمويله لينطلق في عمله، ثم في الدعاية لحرفته (2).

واستمرت دعوة الشيخ بيوض إلى دخول هذه المراكز، ففي خطبته في جمعية تلاميذ التلاميذ عام 1948 قال مخاطبا تلاميذه قادة الإصلاح في شتى مناطق ميزاب [illegible]

---

1) - يوصف من تكوين تاريخ [illegible] ص 158، 207

2) - عبد الله حريز، مقابلة شخصية، الضاية، 22 أوت 1993

مدرسة غرداية للصناعات، وستفتح في شهر أكتوبر الآتي مدرسة تجارية ستتلوها بعد قليل مدرسة فلاحية، فهل من سداد الرأي أن يتركها أبناء الوطن ليحتلها غيرهم ؟، وهل يتولى إدارات الأعمال بعد اليوم غير المثقفين ؟، وهل يكون الإنتاج بغير علم ؟، ثم إن طبيعة العمران تقتضي إختصاصيين كثيرين في شتى فنون العلم، فمن يكون هؤلاء في ميزاب في الغد القريب ؟".(1)

والخلاصة أن الشيخ بيوض في موقفه من التعليم الفرنسي، قام بعملية موازنة بين المنافع والمضار، فوجد أن التعليم الفرنسي رغم مافيه من مضار ومافيه من مخاطر على أبناء ميزاب، تتحقق به مصالح كبرى للأمة، إذا أحسن المصلحون تحصين التلاميذ بثقافة إسلامية تحفظ لهم شخصيتهم.

ونتيجة لهذا الموقف الحكيم للحركة الإصلاحية في ميزاب من التعليم الفرنسي، تمكن الطلبة الميزابيون الذين تلقوا تعليمهم ودراساتهم العالية باللغة الفرنسية من المحافظة على ثقافتهم وشخصيتهم، فهم في أغلبيتهم من حيث اللسان يحسنون التعبير عن أفكارهم باللغة العربية، ومن حيث الثقافة التي تحدد لهم القيم والمعايير التي بها يحكمون على الأشياء لم يذوبوا في الثقافة الفرنسية.

وهذا على خلاف ماحدث في الشمال، حيث كانت الفروق واضحة بين من تلقوا تعليمهم في المدارس الحرة، وأولئك الذين تعلموا في المدارس الفرنسية، في اللسان وفي الثقافة، مما نتج عنه صراع في صفوف الحركة الوطنية قبل الإستقلال، وكان له انعكاساته السلبية على وضع المجتمع الجزائري بعد استقلاله. (2)

ج)- مدارس التعليم الرسمي بعد الإستقلال :

يؤكد الشيخ بيوض أن المدرسة لايمكن أن تنجح في آداء دورها التربوي إلا إذا كانت

---

(1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص: 201.

(2) – لتفاصيل عن هذا الصراع وآثاره أنظر: عثمان سعدي، التعريب في الجزائر.

برامجها ومناهجها تعطى أهمية قصوى للدين، وتجعله في المقام الأول، وأن اكتفاءها بما توصل إليه علماء التربية من نتائج مع إهمال التوجيهات التي جاءت في الكتاب والسنة سوف لن يذهب بها بعيدا في باب التربية، يقول مؤكدا هذا المعنى : "فلا تربية تنفع في إصلاح سلوك الإنسان إلا إذا كانت مبنية على كتاب الله وسنة رسوله". (1)

وينتفذ الشيخ بيوض المسلك الذي سلكته الدولة الجزائرية في تعليمها بإهمالها لدور الدين في التربية فيقول : "وليعلم الجميع أن لاوجود للتعليم الديني بمفهومه الصحيح في مؤسسات التعليم المدنى"، وذلك لأن "برامج التعليم العمومي لاتعطى للمواد الدينية ماتستحقه من العناية في التوقيت والحصص"، ولأنه "على فرض وجود عينيات من النصوص الدينية في البرنامج، فإن القائمين على تطبيقه يعوز أغلبهم الحماس الديني والالتزام بتعاليمه". (2)

وسبب هذا التهميش لدور الدين في برامج التعليم، كما يؤكد الشيخ بيوض، صراع سياسي بين تيارين في حزب جبهة التحرير الوطني، تيار يدعو إلى إقحام مادة الدين في مختلف البرامج التعليمية وفي كل المستويات، وتيار آخر يدعو إلى إقصاء الدين حتى يبقى التعليم مدنيا صرفا. (3)

لذلك يدعو الشيخ إلى المحافظة على مؤسسات التعليم الديني لتكمل هذا النقص، فيقول: "ولذا فإننا لانحيد عن موقفنا من التعليم الديني، بل نتعصب له ولو ببذل الأرواح، لأننا نعتقد أن المصائب كلّها تهون إذا سلمت لنا عقائدنا واستقام ديننا". (4)

ورفض الشيخ بيوض بعد الإستقلال أن تسلّم مدارس الاصلاح ومعاهده للدولة الجزائرية، وتأسّف لموقف جمعية العلماء التي تنازلت عن مؤسساتها لتدمج في التعليم الرسمي. (5)

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 22.

(2) – المصدر نفسه، ص : 31.

(3) – بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 34 35.

(4) – المصدر نفسه، ص : 31.

(5) – بلحاج شريفي، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، 25 09 1993م.

وكلّما صدرت مراسيم أو قوانين لإلحاق هذه المدارس بالتعليم الرسمي إلا وبذل الشيخ بيوض جهودا كبيرة لتستثنى مدارس الميزابيين في الشمال والجنوب، وقد نجح في ذلك كما سبق أن ذكرنا.

والتعليم الرسمي كما يراه الشيخ بيوض هو تعليم "يهتم بتكوين إطارات مدنية كفأة تسدّ الفراغ الذي تركه الإستعمار في كلّ المجالات الحيوية للبلاد من أطباء وصيادلة ومهندسين، وموظفين سامين"(1)، لذلك كان من الضروري أن يدخل أبناء الميزابيين مدارسه، بشرط أن تعمل حركة الإصلاح من خلال مدارسها على تكميل النقص الموجود في هذا التعليم، بالتركيز على إكساب التلاميذ ثقافة إسلامية تحفظ لهم شخصيتهم العربية الإسلامية.

ولذلك استمرت المدارس الإبتدائية الحرة في ميزاب تستقبل التلاميذ قبل دخولهم إلى المدرسة الرسمية وبعد خروجهم منها، لتزويدهم بهذه الثقافة الدينية، يقول الشيخ بيوض مؤكدا هذا الموقف : "فما ذنبنا نحن إذا حاولنا أن نحتفظ بهذا التعليم الديني الذي نكّمل به ذلك النقص لأبنائنا المندمجين كلهم في المدارس الرسمية". (2)

كما يؤكد الشيخ بيوض على ضرورة أن يستمر معهد الحياة في القيام بدوره، "لأن التعليم المدني لاينتظر منه أن يخرج لنا حفظة قرآن ولامرشدين دعاة لدين الله، وحملة للواء شريعته". (3)

والخلاصة أنّ الشيخ بيوض عندما أدرك أن الأزمة التي يعاني منها المجتمع الجزائري هي في أصلها أزمة فكرية، رأى من اللازم أن تسلك الحركة الإصلاحية المنهج التعليمي التربوي في عملها الإصلاحي، فسلك بالحركة التي قادها هذا المنهج، وحدّد له أهدافا انطلاقا من فهمه لواقع مجتمعه، ثم استغل ماأمكن من الوسائل المتاحة للوصول إلى هذه الأهداف، محاولا التحديد والتطوير فيها.

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 35.

(2) – المصدر نفسه ص : 35

(3) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 35

وإذا أردنا تقييم عمل الشيخ بيوض في المجال التعليمي التربوي، بالنظر إلى الأهداف التي وضعها، يمكننا أن نقول أنه نجح في تحقيق الهدفين الذين وضعهما أمام ناظريه عند سلوكه هذا المنهج، فاستطاع أن يكوّن نخبة مثقفة تجمع في ثقافها بين الأصالة والمعاصرة، واستطاع كذلك أن يحافظ إلى حدّ بعيد على مقومات الشخصية العربية الإسلامية في الرقعة الجغرافية التي ركز فيها جهوده أي منطقة ميزاب خاصة، وفي الفرد الميزابي الذي يعيش خارج هذه المنطقة في الجنوب والشمال.

ومجرد زيارة لمنطقة ميزاب يمكن أن تعطينا صورة واضحة عن هاتين النتيجتين.

وتقييما لعمله التعليمي التربوي، يشير الشيخ بيوض إلى النتيجة الأولى التي حققها بقوله: "وربحت من مكثي في الجزائر ربحا وفيرا، لاهودرهم ولادينار، وإنما هو العديد من الشباب المثقف بالعربية، المتربى بالإسلام، وكفى بهذا ربحا". (1)

وأشار إلى النتيجة الثانية بقوله : "وهل كانت الجزائر المستقلة تتمتع بهذه الألوف المؤلفة من الطلبة والمعلمين، بل حتى من الجماهير التي تنطق بالعربية وتعتز بالإسلام، لولا هذا النوع من التعليم الحر الذي حافظ على أصالة هذه الأمة المغلوبة على أمرها في عهد الإستعمار البغيض".(2)

وتعتبر المحافظة على المنجزات التي أنجزتها الحركة بقيادة الشيخ بيوض من أهم النجاحات التي ينبغي أن تسجل لها، مقارنة بالحركة الإصلاحية في الشمال بقيادة جمعية العلماء التي فقدت جميع مؤسساتها مباشرة بعد الإستقلال.

---

(1) – محمد ناصر بوحجام، الشيخ بيوض والعمل السياسي، ص : 72.

(2) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 28.

الفصل الثالث :

منهج الإصلاح الإجتماعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- تمهيـــــد

لم يكن عمل الشيخ بيوض منحصرا في ميدان التعليم، بل شمل مجالات عدة، وذلك لاقتناعه أن الأزمة التي يعانيها المجتمع الجزائري وإن كانت في أصلها أزمة فكرية، فإن لها أعراضا سياسية واقتصادية واجتماعية، وإنما ركّز على العمل التعليمي لأنه يعتبره الوسيلة المضمونة لإحداث إصلاح اجتماعي شامل.

يقول الشيخ بيوض مقررا هذه الحقيقة : "لم يكن عملي خاصا بميدان العلم، ولكن يتناول جميع نواحي الأمة، ووظيفتي غسل العار عن الأمة، وتطهيرها من أدناسها بشباب صالح مثقف بالثقافة الصحيحة، أكفاء لكل ما يسند إليهم". (1)

وبحكم تأثر الشيخ بيوض بأفكار الشيخ محمد عبده، فقد كان يرى أن المأساة التي يعيشها العالم الإسلامي - ومنه الجزائر - ينبغي أن ينظر إليها كمشكلة اجتماعية، لاكمشكلة سياسية كما ذهب إلى ذلك الشيخ جمال الدين الأفغاني.

ويعتبر الشيخ بيوض الشعار الذي رفعته الحركة الإصلاحية والمتمثل في الآية القرآنية ﴿ **إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم** ﴾ [الرعد : 11] هو "القاعدة التي وضعها كتابنا العزيز للفرج مما تشكو منه الأمة من ويلات". (2)

ومما زاد قناعة الشيخ بيوض بضرورة سلوك هذا المنهج ماكان يراه من محاولات الإحتلال الفرنسي تفكيك شبكة العلاقات الإجتماعية للمجتمع الجزائري من خلال ترسيخيه لأسباب التفسخ الأخلاقي، والتحلل الإجتماعي، حيث كان يعمل على إضرام الفتنة بين قبائل التل والصحراء، وعلى بلو السكان باستهلاك الكحول، ونشر الفساد، وبث عقارب النزاع والفوضى بينهم، ويرى في ذلك الضمان الوحيد لتأسيس مستعمرة يملكها إلى الأبد، ويجعلها تابعة للمدنية الأوروبية. (3)

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص : 106.

(2) - المصدر نفسه، ج4،ص :147.

(3) - تركي رابح، الشيخ ابن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص : 26

ويؤكد الشيخ بيوض أنه مادامت شبكة العلاقات الإجتماعية مفكّكة فإنه لاأمل في أي إصلاح، وأن أسباب الفساد ومظاهره ستزداد تجذّرا في المجتمع، ففي مقال له كتبه عام 1931م يصف بعض مظاهر الفساد التي بلي بها المجتمع الجزائري، يقرر أن الذي مكّن لهذا الفساد هو الخلل الذي أصاب شبكة علاقات هذا المجتمع، فيقول : "وإن تفكك روابط الجزائريين والمصاب عظيم، وانفصام عراهم والخطب ملّم، وتنازعهم والبلاء بهم محيط، واختلافهم البيزنطي والخطر محدق [...]، لأمر تزهق به الأرواح". (1)

ثم إن هناك مبررا آخر دفع الشيخ بيوض إلى سلوك هذا المنهج، وهو اعتقاده بوجوب إقامة المجتمع الإسلامي، المجتمع الذي تعود مؤسساته في كل شؤونها إلى الله ورسوله، يقول الشيخ بيوض : "كل جماعة كتب الله لها العيش في مدينة أو قرية صغيرة أوكبيرة أو الوطن كله إلا وجب عليهم أن يكّونوا مجتمعا إسلاميا، ويعيشوا معيشة مسلمين في معاملاتهم وحركاتهم وسكناتهم". (2)

واستمرت قناعة الشيخ بهذا المنهج بعد الإستقلال، لأنه لاحظ أن السلطة في الجزائر لم تتبنى المنهج الإسلامي في تسيير شؤونها، بسبب توغل الكثير من "اللائكيين واليساريين المتطرفين" في مؤسساتها، فكان يرى أن من اللازم على الحركة الإصلاحية أن تستمر في اهتمامها بهذا الجانب لتحفظ المجتمع من التفسّخ الأخلاقي، والتحلّل الإجتماعي.

ويؤكد أنه حين تتمكن الحركة الإصلاحية من إصلاح الوسط الإجتماعي فإنها ستهيئ الجو لتصحيح الإنحراف الذي حدث في مسار السلطة، ويبصر الشيخ بيوض مجتمعه بهذه الحقيقة حين يخاطب أفراده قائلا لهم : "إن مايقع فيه الإنسان أن يعصي، ويلقى مسؤوليته على غيره، على المسؤولين، وعلى الحكومة لوشاءت لمنعت، ولوشاءت لأصدرت قرارا، لا، فكل واحد مسؤول عن نفسه، [...]، لا، لانحمّل ذنوبنا ومسؤوليتنا من تولّ أمورنا، لا، فكل واحد مسؤول عن نفسه". (3)

---

(1) – ابراهيم بيوض، كتاب حليل، مقال، مجلة الشباب، معهد الحياة، ع : 115، 03-04-1931.

(2) – ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 101.

(3) – ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 41

وهوبهذا التوجيه لم يرد أن ينفي الأثر الذي تتركه الحكومات بمؤسساتها المختلفة على المجتمع، وإنما أراد أن ينبّه إلى أن الحكومة بأشخاصها ومؤسّساتها هي جزء لايتجزأ من المجتمع، وأنها -كما يؤكد الأستاذ مالك بن نبي- : "آلية إجتماعية، تتغير تبعا للوسط الذي تعيش فيه، وتتنوع معه، فإذا كان الوسط نظيفا حرا، فما تستطيع الحكومة أن تواجهه بما ليس فيه، وإذا كان الوسط متسما بالقابلية للإستعمار، فلا بد أن أن تكون الحكومة استعمارية". (1)

وانطلاقا من هذه المبررات التي دفعت الشيخ بيوض لسلوك المنهج الإجتماعي في حركته الإصلاحية، حدّد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها بسلوكه لهذا المنهج، والمجالات أو الأطر التي يجب التحرك فيها لتحقيق هذه الأهداف.

وسنتحدث في مبحث أول عن أهداف المنهج الإجتماعي كما تصوّرها الشيخ بيوض، ثم نتحدث في مبحث ثان عن الأطر التي تحرّك فيهاوأرشد إلى ضرورة استغلالها للوصول إلى هذه الأهداف.

1)- أهداف المنهج الإجتماعي :

يمكن أن نحصر أهداف هذا المنهج -كما يراها الشيخ بيوض- في هدفين كبيرين :

أما الهدف الأول فهو المحافظة على المجتمع من الإنحلال الأخلاقي، والإنحلال الإجتماعي، فإن الشيخ بيوض يرى أنه كلما كان اهتمام حركة الإصلاح بهذا الجانب كبيرا، كلما كان بإمكانها المحافظة على طهارة المجتمع من المفاسد، وعلى شبكة علاقاته من التفكك.

يقول الشيخ بيوض موضحا هذه الحقيقة في سياق دفاعه عن النظم الإجتماعية التي تميزت بها منطقة ميزاب : "وماهذا الطهر الإجتماعي الذي نتمتع به، وما هذه التربية

---

(1) - مالك بن نبي، شروط النهضة، ت : عمر كامل المسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، الجزائر،1992، ص : 33

الفضلى لأجيالنا [...] إلا ثمرة هذا النظام، وفيض من بركاته". (1)

فالهدف من هذا المنهج بعبارة أخرى هو وضع ضوابط اجتماعية لضبط سلوك الفرد، من خلال ضغط المجتمع عليه، ليكيّف سلوكه بما يحقق مصلحة الجماعة، ويكف عن كل مامن شأنه أن يعود بالضرر عليها.

وهذه هي أول مرحلة من مراحل النهضة -كما يؤكد الأستاذ مالك بن نبي -، فإذا حاول المجتمع أن يتطور قبل المحافظة على كيانه وشخصيته "يتحول التطور إلى مجازفة، فأي خطإ بسيط يمكن أن يؤدي إلى الإنتحار، وإلى الوقوع في الهاوية، هاوية التسول، والإدمان، والدعارة، والتشرّد".(2)

أما الهدف الثاني من سلوك حركة الإصلاح لهذا المنهج فهو امتلاك القدرة على تعبئة المجتمع بشرائحه المختلفة في عملية البناء، واستغلال هذه القدرة بعد ذلك للمحافظة على المنجزات في شتى المجالات.

وكمثال على هذا الهدف، يرى الشيخ بيوض أنه لايمكن للحركة الإصلاحية أن تنجح في عملها التربوي إلا إذا استطاعت أن تعبئ المجتمع بجميع مؤسساته ودوائره ليعينها على النجاح في هذا العمل، وإلا حدث التناقض بين توجيهات المؤسسة التعليمية وبين ممارسات المجتمع، وعند ذلك تبوء جهود الحركة بالفشل، فالمجتمع -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "هو القاعدة الأولى لصرح التربية والتعليم الذي نبنيه في مدارسنا ومعاهدنا، إنه مع فساد المجتمع الذي تعيش فيه ناشئتنا لاتوجد المدرسة الناجحة، في التربية بالخصوص". (3)

وقد لاحظ أحد المتتبعين لسير الحركة الإصلاحية غياب هذا الفهم الشامل في العمل الإصلاحي لدى كثير من الحركات الإصلاحية، فقال : "فالفكرة الإصلاحية مثلا تستهدف إصلاح الفرد، ولكنا لانشمّ مطلقا رائحة مصلح حيث يلزم أن يوجد ناطق بفكرة الإصلاح، أي حيث يوجد موضوع الإصلاح نفسه، في المقاهي وفي الأسواق، وفي كل مكان تنكشف

---

(1) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 5

(2) Malek Bennabi, l'invitation du M'ZAB, Révolution Africaine, Semaine du 20 au 26 , p.p:24

(3) - دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 146-147

فيه العيوب الإجتماعية التي يدعو إلى إصلاحها، وكل مايقوم به المصلحون هو أن يكتفوا بتلقين بعض الأطفال دروسا طبق مناهج لاتدعو لشئ من الإصلاح، أو بتوجيه بعض العظات من فوق المنابر، إلى جمهور لم يدرسوه في بيئته وجوّه الذي ألفه، بل هو الذي يسعى ليحيط بالمنبر، فإذا بالطفل وقد أصبح متعلّما بقدر، وإذا بالفتى وهو يجيد الإستماع والمجاملة". (1)

ثم إن الشيخ بيوض يرى أن المنهج التعليمي التربوي الذي يهدف إلى تكوين قيادات إصلاحية لايكفي وحده لتمكين هذه القيادات من أداء دورها مالم يتبع بعمل اجتماعي الهدف منه التأليف بين قلوب هذه القيادات، بتوفير الإطار الذي يجعل عملها قويا في أسسه ومنطلقاته، متوافقا في سيره وخطواته، موحدا في أهدافه وأغراضه.

قال الشيخ بيوض -مخاطبا القيادات التي كوّنها في معهد الحياة- : "ولن نبلغ غرضنا منه [أي من المنهج التعليمي التربوي] حتى نضيف إلى تنوير العقول بالعلم، وتزكية النفوس بالدين، التأليف بين القلوب بالحّب الراسخ والوّد المكين، فألف مثقف في أمة تنافرت قلوبهم، وتخالفت أغراضهم، وتوزّعتهم الأهواء والشهوات، لن يكونوا على الأمة إلاّ وبالا، ومن سعادتهاألا يكونوا، لكنّ مائة متعلم جمع الله شملهم، وألف بين قلوبهم، فأحبّ بعضهم بعضا، فاتحدت مبادئهم وغاياتهم، وإن اختلفت منازعهم وبيئاتهم، يحيى الله بهم الأمة، ويخرجها من الظلمات إلى النور، ويرفعها مكانا عليا". (2)

وسلوك الحركة الإصلاحية لهذا المنهج الذي يهدف إلى إصلاح الدوائر التي تؤثر في سلوك الفرد، كفيل بتحويل هذه الدوائر إلى أطر تتمكن الحركة من تعبئة المجتمع في عملية البناء من خلالها، بتحفيز الأفراد على أداء واجباتهم، بل والإسهام في أعمال تطوعية قد لاتظهر فيها المصلحة الخاصة -مصلحة الفرد- في الآن.

---

(1) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص : 75.

(2) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ، ج3، ص : 197-198.

2)- أطر تحقيق أهداف المنهج الإجتماعي :

ننبه في البداية قبل الحديث عن هذه الأطر إلى أن إدراك أهمية المنهج الإجتماعي في العمل الإصلاحي أمر توصلت إليه كثير من الحركات التغييرية، ولكنّ القليل من تلك الحركات من استطاعت تخطّى هذا الإدراك إلى خطوات عملية، بتحديد الأطر التي تتمكن من خلالها من تحويل الفكرة المجرّدة إلى واقع ملموس.

ونرى أن من هذه الحركات القليلة التي وفّقت في ذلك الحركة الإصلاحية في منطقة ميزاب.

ومن خلال تتبعنا لأعمال الشيخ بيوض في الجانب الإجتماعي يمكننا تحديد الأطر التي تحركت فيها حركته لتحقيق أهدافها الإجتماعية في الأطر التالية :

أولا : المؤسسة التعليمية :

فأول مؤسسة يمكن للحركة الإصلاحية أن ترسخ من خلالها الوعي الإجتماعي في نفوس الأفراد -كما يرى الشيخ بيوض- هي المؤسسة التعليمية.

وقد لاحظنا في إطار حديثنا عن الأبعاد التي ينبغي أن تراعي في العمل التعليمي، أن الشيخ بيوض يؤكد على تكوين التلاميذ والطلبة تكوينا اجتماعيا، لأن المقصد من طلب العلم إنما هو خدمة المجتمع، فكان بناء على ذلك يزوّد طلبته بنصائح استقاها من تجربته الخاصة تعينهم على اكتساب هذا البعد في شخصيتهم.

ومن توجيهاته لهم قوله : "أحسنوا إلى من أساء إليكم، وارفقوا بالجهلة والأغبياء، وضعفاء النفوس، وألينوا القول لهم، فإذا جدّ الجد فاغضبوا غضبة مضرية لاتلين لكم فيها قناة، ولايفلّ حد، إنكم إذا فعلتم ذلك امتلكتم القلوب، وتحكمتم في النفوس، فسلس لكم قيادها"(1)،ويدعوهم للنزول إلى الميدان للتعامل مع مشكلات المجتمع وهو في حركته بقوله:

---

(1) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص : 207.

"المشاكل في ميدان الحياة كثيرة، والخلافات بين الأفراد والجماعات تحدث كل يوم في كل قرية وفي كل مدينة، فاقتحموا ميادين الإصلاح، فضوا المشاكل بالحلول المرضية، وسوّوا الخلافات بالعدل والحكمة، فإنكم بذلك تفرضون وجودكم، وتعّرفون بأنفسكم، وتحملون الناس على احترامكم، وتعلّمون الأمة كيف تنقاد للمثقفين". (1)

ويحذرهم من أن يكون الهدف من وراء أعمالهم هو طلب الزعامة، فيقول : "لاتكن غايتكم أن تسودوا، ولا أن تتصدروا، وإنما عليكم أن تعملوا الخير لأنه خير وكفى، فإذا حملتم على صدارة أو رئاسة أو سيادة، فلا تدفعوها فرارا من المسؤولية إن استشعر تم الكفاءة، بل أقدموا غير هيّابين ولا وكلين"، ويعطى لهم المثل من نفسه فيقول : "لقد كنت في فجر حياتي العملية أقوم بواجبي في المدرسة خير قيام، [...]، ثم أخرج إلى ميدان المسجد والسوق والعشيرة والميادين العامة، والمشاكل الخاصة، فأفض الخلافات، وأحل المشاكل، وأصلح بين المتخاصمين، وأواسي كل ذي حاجة، مدفوعا بعاطفة حب الخير للناس، وعاطفة الشفقة والرحمة التي أحس بها في نفسي قوية إلى حد لاأستطيع أن أقول معها (لا) لمستغيث أو مستعين أو مستنجد في كل ما أستطيعه، وكأنني والله أقوم بهذه الأعمال بطريقة آلية مطّردة الحركة، لاأشعر بكلفة ولامشقة، وانما عليّ أن أعمل بياض يومي وسواد ليلي حتى آوى إلى فراشي وكفى، لاأسأل عن عمل أجرا، ولم تخطر ببالي سيادة ولارئاسة ولازعامة". (2)

وكان الشيخ بيوض من خلال معهده يغرس في نفوس تلاميذه أن "مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد"(3)، ويحرص أن يكون تلاميذه على صلة مباشرة بمجتمعهم، يحتكون به في المناسبات المختلفة، ليتمكنوا من دراسته، وليتعودوا على خدمته.

وتدعيما لهذا البعد في تكوينهم أسست كشافة الجنوب عام 1948 لتكون إطارا يدربون فيه على الأعمال التطوعية في المشاريع التي تعود بالفائدة على المجتمع. (4)

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج3، ص : 206.

(2) – المصدر نفسه، ج3، ص : 207.

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص : 33.

(4) – سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 83

- ثانيا : مؤسسة المسجد :

والإطار الثاني الذي دعا الشيخ بيوض إلى تركيز الجهود فيه لترسيخ وعي اجتماعي في نفوس الجماهير لبلوغ الأهداف التي سلك من أجلها المنهج الإجتماعي هو المسجد.

فالمسجد كمؤسسة تلتقي فيها كل الشرائح الإجتماعية "رجالا ونساء، وشيبا وشبانا وكهولا" (1)، هو أنسب مكان لتربية أفراد المجتمع تربية إجتماعية.

ولقد حاول الشيخ بيوض من خلال دروسه المسجدية أن يستغل هذا الإطار أحسن استغلال، ويكفي للتأكّد من ذلك أن نلقي إطلالة على فهرست دروسه التي ألقاها في مسجد القرارة لنجد أن أغلب هذه الدروس عبارة عن توجيهات الهدف منها الإنتقال بالإنسان من حالة "الفرد"(2) الذي لا يعيش إلا لذاته، إلى حالة "الشخص"(3)، الذي يدرك أن له وسطا اجتماعيا ينبغي أن يراعيه في كل سلوكاته.

فقد اهتم الشيخ بيوض في دروسه بالأسرة لأنها الركيزة الأولى في البناء الإجتماعي، بصلاحها وتماسكها يصلح المجتمع وتقوى شبكة علاقاته الإجتماعية، وبفسادها وتفككها، يتعرض للفساد والتفكك، فتحدث عن الواجبات والحقوق في إطار الحياة الزوجية، وحاول تبصير المجتمع ببعض العوامل التي تسهم في تفكيك نظام الأسرة، فتحدث عن المشاكل الزوجية وأسبابها، وخصص مجموعة من الدروس فصّل فيها الكلام عن واجب الآباء تجاه الأبناء، وواجب الأبناء تجاه الآباء. (4)

وفي دائرة أوسع من الأسرة، تحدث عن دور الأفراد في المحافظة على المجتمع، موضحا التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع بقوله : "يجب على الإنسان أن يعرف أنه مربوط بالمجتمع، ينفعه ماينفع المجتمع، ويضره مايضر المجتمع، لايعيش بطريقة فردية كالبقر وسط البقر، أو كالنعجة وسط النعاج، أو أي حيوان وسط الحيوانات، هذا من جهة، ومن جهة

---

(1) - ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير الإسراء، ص : 29.

(2)-(3) - مصطلحان للأستاذ مالك بن نبي : أنظر كتابه : ميلاد مجتمع، ط3، دار الفكر، الجزائر، 1986، ص : 31.

(4) - انظر فهرست الدروس العامة للشيخ بيوض، مكتبة معهد الحياة، القرارة.

أخرى على المجتمع أن يعرف أن كل فرد فيه له علاقة بالمجموع، صلاحه ينفعنا، وفساده يضرنا".(1)

وشدّد في التحذير من بعض الآفات التي تتسبب في تفكيك شبكة العلاقات الإجتماعية مثل الغيبة والنميمة، وكذا من بعض الفواحش التي يؤدي انتشارها إلى هدم البناء الإجتماعي، كشرب الخمر ولعب الميسر، لأن القرآن الكريم يتحدث عن آثارها الخطيرة فيقول : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ [المائدة : 91]. (2)

وألقى الشيخ بيوض مجموعة من الدروس جعلها تحت عنوان "المجتمع المسجدي"، عرف فيها بقيمة المجتمع الميزابي، وأهمية نظمه الإجتماعية كنظام العشائر والنظام الديني للنساء، وتحدث عن دور الجماعة في التربية، وأوضح الفرق بين الحرية والفوضى في الحياة الإجتماعية، وقد جمع الأستاذ محمد ناصر بوحجام هذه الدروس في كتاب تحت عنوان "المجتمع المسجدي".

واعتمد الشيخ بيوض في ترسيخه للوعي الإجتماعي في نفوس الأفراد على الدين، لأنه كان يدرك بثقافته القرآنية أن التأليف بين القلوب إنما هو منحة من السماء، ويتحقق بالدين الذي من أعظم مهماته ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وألف بين قلوبهم، لو أنفقت مافي الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم** ﴾. [الأنفال : 63]، فكان من خلال درسه اليومي في التفسير ينبه المجتمع إلى الأسباب التي توطد العلاقات بين أفراده، والعوامل التي تسهم في إضعافها.

ويمكننا أن نلحظ ذلك بشكل واضح في تفسيره لسورة الحجرات، حيث أكد أن المحافظة على العلاقات الإجتماعية من خلال القيام بواجب إصلاح ذات البين يعدّ من أعظم الأعمال أجرا عند الله، وهو واجب ينبغي أن يقوم به كل فرد من أفراد المجتمع،

---

(1) - ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 40.

(2) - أنظر فهرست الدروس العامة ودروس رمضان للشيخ بيوض، مكتبة معهد الحياة، القرارة.

محولا بذلك قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ [الحجرات : 10] إلى عمل يومي يمارسه كل فرد في المجتمع. (1)

وإلى جانب ترسيخ الوعي الإجتماعي من خلال دروسه المسجدية، أكد الشيخ بيوض أن مهمة المسجد لاتقتصر على إقامة الشعائر التعبدية والدروس التعليمية ودروس الوعظ والإرشاد، بل إن من مهامه كذلك الإسهام في توطيد العلاقات الإجتماعية، فصحن المسجد الفسيح -كما يؤكد- : "يساعد المصلين على ربط علاقاتهم الإجتماعية، وتنسيق مصالحهم الدنيوية". (2)

ويعد الشيخ هذه المهمة من المهام الأساسية التي ينبغي أن يقوم المسجد بها، ويدعو إلى تغيير الصورة التي يحملها بعض أفراد المجتمع لدور المسجد، حيث يقصرونه على العبادة والذكر وتلاوة القرآن، مما يجعلهم ينزعجون من حديث الناس عن أمور الدنيا في صحن المسجد، يقول الشيخ موجّها : "لست ممن ينزعج لتلك الجماعات من الكبار والصغار التي تتلاقى في صحن المسجد لإنتظار صلاة العصر أو غيرها، ويكون لها أحيانا جلبة وضوضاء، لما يكون بينها من مناقشات لتبادل المصالح وربط المواعيد، بل أعتبر ذلك من الإنتظار للصلاة الذي يؤجر عليه المؤمن، مادام يحترم آداب المسجد، ويتجنب لغو الكلام". (3)

بل إن الشيخ بيوض يرى أن للمسجد دورا كبيرا في تحفيز أفراد المجتمع على آداء واجباتهم الإجتماعية، ولنداءاته في هذا المجال من التأثير في المجتمع ماليس لغيره من المؤسسات، فكثير من الحملات التطوعية والمشاريع العامة، ينبغي أن تنطلق من المسجد ليشارك فيها الجميع.

وقد تحرّج بعض المسؤولين في منطقة ميزاب من الدور الإجتماعي الفعال الذي يلعبه المسجد في حياة المجتمع الميزابي، لأنه -في ظنهم- ينافس المجالس البلدية في دورها، فدعوا

---

(1) – ابراهيم بيوض، تفسير سورة الحجرات، نقله من الشريط السمعي عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، وهو موجود بالمكتبة الخاصة بالقرارة.

(2) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 27.

(3) – المصدر نفسه، ص : 26.

إلى إبقاء المسجد مكانا للعبادة، وإبعاده عن التدخل في المصالح العامة التي تضطلع بها البلدية.

فرد عليهم الشيخ بيوض مبينا أن دور المسجد مكمل لمهام البلدية، فقال : "وقد أخطأ الذين ينادون بأن لادخل للمسجد في المصالح العامة التي تضطلع بها البلدية، وهم يتصورون أن ذلك يحدث نوعا من التنافس بينهما، وفي الحقيقة لامجال لهذا التنافس الموهوم، ولكنه فيما نعتقده تكامل وتعاون في سبيل المصلحة العامة، كما أمرت بذلك تعاليم الإسلام، وماكانت المساجد يوما حجر عثرة في البناء والإصلاح والتشييد في هذه المنطقة، ولا في غيرها من بلاد الله، ولكنها ظلت دائما تزجى صفوف المؤمنين للقيام بالحملات التطوعية، وتساعد هؤلاء المسؤولين في مهمتهم لوكانوا يعقلون". (1)

- ثالثا : الهيئات الإجتماعية :

أدرك الشيخ بيوض أنه إذا أريد للحركة الإصلاحية أن تحدث إصلاحا اجتماعيا يمس قطاعات المجتمع المختلفة، فينبغي ألا تكتفي بالحركة داخل المؤسسة التعليمية، ومؤسسة المسجد، بل لابد لها من البحث عن أطر أو هيئات أخرى تنقل بها الوعي الإجتماعي الذي يتلقاه الأفراد في هاتين المؤسستين من إطار المبادرة الفردية إلى إطار الجهد الجماعي المنظم. ونظر الشيخ بيوض فوجد في المجتمع الميزابي هيئات وضعت أساسا للقيام بهذا الدور، فدعا إلى المحافظة عليها، وتفعيل نشاطها إلى أن يوجد البديل الأحسن منها.

فإذا كانت حركة الشيخ بيوض قد هدفت إلى تغيير المفاهيم والتصورات، فإنها بالنسبة لهذه الهيئات الإجتماعية اكتفت بضرورة المحافظة عليها من التفكيك، لأن أي محاولة للبحث عن بديل عنها في ظروف كان المجتمع فيها معرضا لهجمات الإحتلال الفرنسي تعد مجازفة غير مضمونة العواقب.

وينطلق الشيخ بيوض في دعوته إلى المحافظة على هذه الهيئات من التجربة التاريخية

---

(1) ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 46

الطويلة التي مرت بها هذه الهيئات والتي برهنت على صلاحيتها للبقاء والإستمرار، يقول الشيخ بيوض :"ونحن لانشك في صلاحية هذا النظام [أي هذه الهيئات الإجتماعية]، لأن بقاءه ورسوخه لعشرة قرون من الزمن لهو الدليل القاطع على ذلك". (1)

وكذلك من التجربة الواقعية التي أثبتت أن كثيرا من الإيجابيات التي يتمتع بها المجتمع الميزابي ثمرة للدور الفعال لهذه الهيئات، يقول الشيخ بيوض : "وما هذا الطهر الإجتماعي الذي نتمتع به، وماهذه التربية الفضلى لأجيالنا، ومانمتاز به من جد ونشاط وحب للعمل، إلا ثمرة هذا النظام، وفيض من بركاته". (2)

وهذه الهيئات التي دعا الشيخ بيوض للمحافظة عليها، وحاول عمليا تفعيل نشاطها هي: مجلس العزابة، مجلس العشيرة، جمعية الشباب، المجلس الديني للنساء، ومجلس عمى سعيد.

وفيمايلي نعرّف بهذه الهيئات، منبهين إلى جهود الشيخ بيوض في المحافظة عليها وتطويرها، لتكون إطارا أمثل لتحقيق أهداف المنهج الإجتماعي.

ونشير في البداية إلى أن هذه الهيئات ظهرت بعد سقوط الدولة الرستمية الإباضية، حيث حاول الإباضية تنظيم أنفسهم بهدف إقامة دولتهم من جديد فقاموا بثورات كثيرة، لكنها باءت بالفشل، ولما أيقنوا أن أسلوب الثورات لم يعد ناجعا لإقامة هذه الدولة، لجأوا إلى أسلوب آخر للمحافظة على مذهبهم وتراثهم ومجتمعهم، فأنشأوا المجالس والمدارس (3)، ومع مرور الزمن تطورت هذه المجالس إلى أن صارت هيئات اجتماعية على الشكل الذي لا تزال عليه إلى يومنا. (4)

---

(1) - ابراهيم بيوض، حديث الإمام، ص : 50.

(2) - المصدر نفسه، ص : 50.

(3) - عوض محمد خليفات، النظم الإجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان، ط1، عمان، 182، ص : 20

(4) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة : ج1، ص : 194.

أ) - مجلـس العزابـة :

ويأتي على رأس هذه الهيئات الإجتماعية مجلس العزابة، وهو أعلى هيئة توجد في كل مدينة من مدن ميزاب وتعتبر الهيئات الأخرى هيئات مساعدة له.

و "العزابة" في اللغة جمع مفرده"عزيب" وهو الرجل الذي يتعد عن أهله وماله، وينقطع لعمله الذي يعطى نفسه له، وقيل إن كلمة "عزابة" من "العزوب" أي العزلة والإنفراد والإبتعاد. (1)

واكتسب هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي معنى خاصا، حيث يقصد به "الإنقطاع والبعد، عن ملذات الحياة الدنيا وزخرفها، والإنصراف لخدمة أتباع المذهب الإباضى دون أجر" (2).

ويعود تأسيس هذا المجلس إلى العقد الأول من القرن الخامس الهجري، حيث تمكن أحد مشايخ الإباضية -وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر-(3) من وضع نظام دقيق لهذا المجلس، وهو ماعرف بسير الحلقة أو نظام العزابة.

وكانت هذه الهيئة في هذه المرحلة عبارة عن هيئة تعليمية تربوية، بعيدة عن السلطة والسياسية، هدفها نشر الإسلام، والدعوة إلى المذهب الإباضى، وتطبيق مبادئه ميدانيا.

ثم تطور نظام هذه الهيئة مع مرور الزمن، فكانت تضاف إليه من حين لآخر تنظيمات جديدة، وصلاحيات جديدة حتى أصبح نظاما تربويا إداريا واجتماعيا شاملا. (4)

ويتكون هذا المجلس -في الغالب- من اثني عشر عضوا، ولايتجاوز هذا العدد إلا لضرورات عملية (5)، وله مقر خاص بالمسجد يجتمع فيه أعضاؤه "كل يوم بعد صلاة

---

(1) - عوض محمد خليفات، المرجع السابق، ص : 27.

(2) - المصدر نفسه، ص : 27.

(3) - ولد بمدينة فرسطا في ليبيا، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ثم انتقل إلى جربة (تونس) للدراسة بها، ثم رحل إلى منطقة ميزاب، توفي عام 440هـ . مكبر من سعيد أعوشت، وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص : 92 99

(4) - الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، ص : 28 29.

(5) - محمد ناصر، حلقة عزابة ودورها في بناء المجتمع المسجيدي ، ص : 12.

الصبح في الشتاء وأول الربيع، وبعد صلاة العصر في الفصول الأخرى".(1)

وللدخول في هذا المجلس ينبغي أن تتوفر في المرشح مجموعة من الصفات العقلية والخلقية منها: "العلم، والورع، وصفاء الطوية، والإخلاص والشجاعة، وحصافة العقل، وحسن التدبير، كما يشترط أن يكون من حفاظ القرآن، ومن عمّار المسجد". (2)

وبحكم أن هذا المجلس جاء لكي يخلف الإمامة التي اختفت بسقوط الدولة الرسمية، فإن مهامه تمس شؤون البلدة كلها، السياسية والثقافية والإجتماعية والإقتصادية، فهو "أعلى سلطة في المكان الذي يوجد فيه، وهو يمثل سلطة الإمام، ويقوم مقامه في جميع مهامه وواجباته، باستثناء إقامة الحدود". (3)

وأولى المهام التي يقوم بها تعيين من يقوم بالوظائف الدينية، كالمفتي، والإمام، والمؤذن، وناظر الأوقاف، ومؤدب الصبيان. (4)

وله مهام تعليمية وتربوية، حيث يتولى الإشراف على المدارس الحرة، (5) كما أن له مهاما اجتماعية، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، حيث يلعب دورا كبيرا في ضبط حركة المجتمع في كلّ أحواله، حتى لاتخرج عن الشرع، في الأفراح والأتراح (6)، فيحدّد المهور ويساعد الشباب على الزواج، ويجمع الزكاة ويتولى توزيعها على المستحقين (7)، وله دور فعال في المحافظة على شبكة العلاقات الإجتماعية، حيث يفصل في الخصومات، ويحل المشكلات، ويصلح ذات البين. (8)

ويحافظ على نظافة الوسط الإجتماعي، ففي حالة تمرد فرد وعدم احترامه لمبادئ

---

(1) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ص : 2044.

(2) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 194.

(3) – محمد ناصر، حلقة العزابة ...، ص : 17.

(4) – المصدر نفسه، ص : 18.

(5) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 197

(6) – المصدر نفسه، ج1 ص : 199

(7) – محمد ناصر، حلقة العزابة ، ص : 24 30.

(8) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ، ج1، ص : 193 194.

الجماعة يقدم له النصيحة، فإن أصرّ على انحرافه أعلن البراءة منه في المسجد، ليقاطعه المجتمع مقاطعة كلية، حتى يرجع عن غيّه، ويعلن توبته أمام الناس في المسجد، ومن نتائج هذا النقد الذاتي الذي يقوم به العزابة، كما يؤكد الأستاذ مالك بن نبي : "أننا لانرى في ميزاب أيّ وجه من وجوه التشرد كما في المناطق الأخرى". (1)

وللعزابة مهام اقتصادية، حيث يراقبون الأسواق والمجازر (2)، ويشرفون على توزيع مياه السيول بين الفلاحين بالعدل، كما يسهمون في توجيه التخطيط العمراني للمحافظة على أصالة الفن المعماري للمنطقة. (3)

ثم إن لهذا المجلس مهامًا سياسية، كاتخاذ القرارات والمواقف التي من شأنها المحافظة على المجتمع من تعسفات الحكام ومظالمهم، كما فعل في قضية التجنيد الإجباري الذي اعتبره خرقا لمعاهدة 1853م التي كانت بين فرنسا وميزاب، فأعلن معارضته له، واستمر يعبئ المجتمع لمقاومته حتى تراجعت عنه سلطات الإحتلال.

كما كان يراقب الإدارات المحلية ويعلن البراءة من المسؤولين فيها، في حالة ممارستهم لما يخالف الشرع ويضر بالمجتمع، كما فعل مع قائد القرارة الذي فتح دورا للعهر والقمار.(4)

وقد كان لهذا المجلس في ميزاب قبل الإحتلال الفرنسي سلطة كبيرة في المجتمع، حيث كانت القوانين المسنونة تعطى مايشبه الحصانة في عصرنا للعزابي، وتعاقب بأشد العقوبات من يتجرأ على إهانته، فينص أحد هذه القوانين على أن "من تعرّض لعزابي وقت قيامه بواجبه ينفى من المدينة أربعة أعوام". (5)

وبحكم هذه السلطة المخوّلة له، كانت له قدرة كبيرة على تعبئة أفراد المجتمع والخروج بهم في مظاهرات لتغيير بعض المفاسد في المدينة، وإعلان البراءة من مرتكبيها، كما فعل مع

---

(1) - Malek bennabi, l'invitation du M'Zab, revolution africaine, semaine du 20 au 26 mai 1968, p.p 23

(2) – عوض محمد خليفات، المرجع السابق، ص : 45.

(3) – محمد ناصر، حلقة العزابة ...، ص : 33.

(4) – المصدر نفسه، ص : 46

(5) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 206

حاكم القرارة الذي ارتكبت في عرسه بعض الموبقات، فأعلن البراءة منه، فهجرته المدينة كلّها، فاستنجد هذا الحاكم بالحاكم العسكري، وأوهمه أن ماقام به العزابة ثورة على سلطة الدولة، فاعتقل العزابة في سجن تعظيمت، (1) فثارت المدينة كلها لاعتقالهم، وأغلق المسجد فلم تصل فيه صلاة الجماعة أياما، ونظمت مظاهرات، حتى اضطر الحاكم العسكري إلى إطلاق سراحهم لتهدئة الوضع. (2)

وللدور الفعال الذي كان لهذه الهيئة في ضبط المجتمع الميزابي، وقدرتها على تعبئته، تعرضت لمحاولات تفكيك من قبل الإحتلال، ثم من قبل المعارضين للتوجّهات الإسلامية للمجتمع الميزابي بعد الإستقلال.

وكانت المحاولات الأولى في عهد الإحتلال الفرنسي، حيث حاولت السلطات الإستعمارية بإحضارها لمؤسسات جديدة : كالنادي العسكري، والمكتب العربي، والبلدية الأهلية أن تزحزح هذه الهيئة تدريجيا عن توجيه المجتمع والإشراف عليه، لكنها فشلت في خطتها أمام حكمة العزابة ودهاء المصلحين، و"بقيت هيئة العزابة دون مساس تقريبا، وحاصرت المجتمع الميزابي في محافظة صارمة". (3)

وبعد دخول الشيخ بيوض مجلس العزابة في القرارة عام 1340هـ/1922م، حاول بأفكاره الإصلاحية والتجديدية أن يحيي هذا المجلس ويبعثه من ركوده وجموده، وحاول استثمار عضويته فيه لإحياء بعض السنن التي تركت في ميزاب، ومحاربة بعض البدع التي استحدثت، لكنّ هذه المحاولات قوبلت بمعارضة شديدة من قبل بعض أعضاء المجلس، خاصة رئيس المجلس، الذي يقول الشيخ بيوض عنه : "لقد أرادنا أن نجمد، وأن نكون مع الجامدين، ولكنّ الوقت يتطور، ونحن علينا أن نتطور بحكم الضرورة". (4)

وبلغت هذه المعارضة ذورتها عندما حاول الشيخ بيوض إحياء سنة إقامة صلاة العيد في

---

(1) - مركز حصص للتعذيب في الجنوب يشبه (تزولت) و (البرواقية) في الشمال.

(2) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج2، ص : 194 - 195.

(3) - عبد القادر حفاول، الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ص : 49.

(4) - دبوز، أعلام الأصلاح في الجزائر، ج4، ص : 250.

المصلّى عام 1357هـ/1938م، وخشي المصلحون حدوث فتنة بين العزابة، يستغلها أعداء الإصلاح والحكام العسكريون لتدجين هذا المجلس "بعزل المصلحين منه، وتولية أذنابهم من الضعفاء شؤونه، فقرروا لتفويت الفرصة على الإستعمار وأذنابه عزل رئيس العزابة.

واستغل أعداء الإصلاح هذا القرار فدفعوا هذا الرئيس إلى إغتيال الشيخ بيوض، لكنّ المصلحين استطاعوا بحكمتهم التحكم في الوضع، واستثماره لفائدة الإصلاح فحددوا مجلس العزابة، وعزل الجامدون كلية منه. (1)

ومن الإصلاحات المهمة التي أدخلها الشيخ بيوض على مجلس العزابة تغيير الطريقة التي كان يتخذ بها القرار داخله، حيث كان حق الإدلاء بالرأي والمساهمة في اتخاذ القرار مخوّلا لرئيس المجلس والأعضاء الأربعة السابقين في دخول المجلس، يقول أبو عمار عبد الكافي : "من الحلقة أربعة رجال من السابقين في الهجرة، الحل والعقد عليهم، [...]، والمشورة كلها راجعة إلى الشيخ، والباقون من العزابة ساكتون، ينظرون بأعينهم، ويحفظون ماتقول تلك الأربعة هم وشيخهم" (2)، فجعل الشيخ بيوض الأمر شوري بين أعضاء المجلس كلّهم، يدلي كل واحد منهم برأيه ثم يتخذ القرار بعد ذلك، مستندا إلى فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، حيث استشاره أصحابه هل يقاتلون المشركين داخل المدينة أم يخرجون لمواجهتهم خارجها، فلما رأى صلى الله عليه وسلم أن الأغلبية أشارت بالخروج، سار على رأي الأغلبية. (3)

وهدف الشيخ بيوض من هذا الإصلاح هو تجنيب هذه الهيئة الجمود على الآراء القديمة، وفتح الأبواب أمام الآراء الجديدة التي يحملها الداخلون الجدد إلى هذه الهيئة، وكذلك مشاركة أكبر عدد ممكن من العقول في القضايا المطروحة للنقاش في المجلس، بما يجعل المجلس أقرب إلى الصواب فيما يتخذه من قرارات، ويقفه من مواقف.

وبعد الإستقلال فقدت هذه الهيئة الكثير من المهام التي كانت لها في السابق، خاصة

---

(1) - انظر تفاصيل أكثر عن هذا الصراع : محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 221 254

(2) - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، ص : 30.

(3) - سعيد شريفي، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، 25-09-1993م.

المهام السياسية والقضائية، قال الشيخ يحي معمر : "ولايزال [أي نظام العزابة] معمولا ببعض بنوده، وأما مايتعلق بالجوانب السياسية والقضائية، فقد تولته الدولة بعد الإستقلال"(1).

ويؤكد مسؤول الثقافة ببلدية غرداية هذا الأمر فيذكر أنّ : "هذا النظام فقد نوعا من عموميته وشموليته بعد الإستقلال، لأنه قديما كان يتولى كل شيئ، فقد كان عبارة عن دولة بدون سياسة، فأصبح نفوذه ينحصر خاصة في المجال الإجتماعي كتنظيم الأعراس.

والحقيقة أن المصلحين استفادوا من الأطر الجديدة كالمجلس البلدي والمجلس الولائي للقيام بالمهام السياسية والإقتصادية التي كانت مسندة إلى العزابة في السابق، فقد نجد الشخص الواحد عضوا في مجلس العزابة، وهو في نفس الوقت عضو في المجلس البلدي أو المجلس الولائي.

ورغم هذا الإنحسار في مهام مجلس العزابة بعد الإستقلال، فإنه لم ينج من هجمات المعارضين لحركة الإصلاح، الذين كانوا يهدفون إلى تفكيك هذا المجلس تفكيكا كاملا، ليسهل عليهم جرّ المجتمع وراء أفكارهم، وتخليصه من قبضة هذا المجلس.

وكخطوة أولى بدأ هؤلاء المعارضون بشن حملات إعلامية لتشويه صورة هذه الهيئة لدى الرأي العام، بالتركيز على سلبياتها وتضخيمها، والوسوسة للمسؤولين بأن هذه الهيئة تنافس بسلطتها سلطة الدولة.

وأشاعوا عبر وسائل إعلامهم أن مجلس العزابة نظام رجعي "أكل عليه الدهر وشرب" وأنه أصبح "مصدرا للعنصرية والتفريق بين الإباضية والمالكية، وقد أفرط في الأخذ بالأساليب الدينية العتيقة في مناهج تربيته، وذلك بحمل الشباب على حفظ القرآن ودراسة الحديث والفقه، مما يعدّ مضيعة لأعمارهم".(2)

وطلبو من الدوائر الرسمية أن تحصر مهام العزابة في الإشراف على بعض الشعائر الدينية مثل "الآذان، والإقامة، والصلاة، وغسل الأموات" وإبعادهم عن المراكز التي تمكنهم من

---

(1) -- علي يحي معمر، الإباضية، ص : 45

(2) -- ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 28.

التأثير في المجتمع وتوجيهه، كمنبر المسجد والمدارس الحرة، بتعيين من يتولى ذلك من قبل الحكومة، أو على الأقل بفرض رقابة على نشاطهم فيها، (1) أو جعل هذا المجلس "مزدوجا بين الطائفتين، وتكوين جمعيات مختلطة للإرشاد وتوجيه الجماهير". (2)

ولكنّ هذه الحملات لم تصل إلى الهدف المنشود منها بفضل الجهود التي كان يبذلها الشيخ بيوض في الرد عليها بردود موضوعية، وتبصير الجماهير بأهمية هذا المجلس في حياتهم الإجتماعية، ثم بفضل ماكان لبعض الميزابيين من أنصار الإصلاح من نفوذ في المجتمع و في مؤسسات الدولة.

ومازالت هذه الهيئة تؤدي دورها الإجتماعي في المجتمع الميزابي إلى يومنا هذا.

ب) مجلس العشيرة.

حافظ المجتمع الميزابي على العلاقات النسبية بين أفراده، فجعل لكل عشيرة مجلسا ممثلا لها، يشكل من أعيانها ممن يجمعون بين "العلم والورع والصلاح والعقل"، ويختار المجلس رئيسا له ليمثله في المجلس البلدي، وفي الغالب يكون عضوا في مجلس العزابة. (3)

ويقوم هذا المجلس على أساس إسلامي، ويستمد شرعيته من تركيز القرآن الكريم على وجوب الإهتمام بذوى القربى قبل غيرهم، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ [الأنفال : 75]، وقوله تعالى : ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ [البقرة : 215]، فهو يعمل "بما أمر الله به العشائر، وهو قيام الجماعة المسلمة بواجباتها نحو أفرادها". (4)

وتخصّص لهذا المجلس دار تسمى "دار العشيرة"، يعقد فيها إجتماعاته مرة كل شهر، وإذا

---

(1) إبراهيم بيوض، حديث الشيخ الامام، ص : 46.

(2) المصدر نفسه، ص : 55.

(3) دبور، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج2، ص : 234.

(4) دبور، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 283.

دعت الضرورة كل يوم لمتابعة قضايا العشيرة والنظر في شؤونها. (1)

أما عن وظائف هذا المجلس فهي كثيرة، منها الوظيفة التربوية حيث يتكفل بإعانة الطلبة النبغاء الفقراء على مواصلة تعليمهم، كما يعين المدرسة في القيام بدورها فيحضر أعضاؤه افتتاح الموسم الدراسي، ويتابعون أمور تلاميذ العشيرة. (2)

كما يفرض رقابة على سلوكات أفراد العشيرة، فإذا زاغ أحد عن الدين، يستدعيه المجلس إلى دار العشيرة فيعظه، فإن أصر على خطئه جمع أبناء العشيرة كلهم لإخبارهم بذنبه، وقد يعاقبه عقوبة بدنية، فإذا تمادى يرفع أمره إلى مجلس العزابة ليعلن البراءة منه ليقاطعه جميع أفراد المجتمع. (3)

وأغلب وظائف المجلس الأخرى ذات طابع اجتماعي، فهو الذي يهتم باليتامى والأيامى والسفهاء والمجانين من أبناء العشيرة، ويتولى قسمة الإرث بين مستحقيه،(4) واستجابه لقوله تعالى : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسع عليم** ﴾ [النو : 32]، يقوم هذا المجلس بإعانة أبناء العشيرة على الزواج، فيجهّز دار العشيرة بكل مايلزم لإقامة الأعراس الجماعية لتخفيف التكاليف على الفقراء منهم.(5)

ومن مهامه الإجتماعية الحد من انتشار البطالة بين أبناء العشيرة، فإذا تعطّل أحدهم يجد له المجلس عملا، لذلك "ترى التاجر أو الفلاح الذي لايسع عمله إلاّ عاملين يستخدم ثلاثة أو أكثر" (6)، وإذا أفلس أحدهم في تجارته يلجأ إلى هذا المجلس "فيعينه ويقرضه، ويأخذ بيده لينهض، لذلك قلّ من يعلن الإفلاس من التجار الميزابيين". (7)

---

(1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة .. ، ج1، ص : 234.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص : 237

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص : 235-236

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص : 235 236

(5) – المصدر نفسه، ج1، ص : 234.

(6) – المصدر نفسه، ج1، ص : 236

(7) – المصدر نفسه، ج1، ص : 237.

وقد حاول الإستعمار أن يزحزح هذا المجلس عن أداء وظائفه هذه، فأتى بمؤسسة البلدية كمؤسسة بديلة عنه، لكنه لم ينجح في ذلك، وحافظ هذا المجلس على وجوده لأنّ نظام البلديات الذي يقوم على أساس الجوار في السكن "لايضمن من الحقوق مايكون بالعشيرة".(1)

وبعد الإستقلال تعرض هذا المجلس إلى حملات تشويه من قبل المعارضين لتيار الإصلاح بهدف تفكيكه، حيث زعموا أن هذا المجلس جعل ولاء السكان للعشيرة لا للوطن، مما يحول دون تحقق الوحدة الوطنية، وساهم في ترسيخ العنصرية بين العشائر، وأذكى الكثير من الفتن بينها.(2)

وزعموا أنه لاداعي لبقاء هذا المجلس، مع وجود أجهزة الدولة الحديثة، لأنّ وجوده يخلق ازدواجية في الجهات التي تشرف على تسيير أمور المجتمع، كما أشاعوا أنه يعتبر سلطة عدلية موازية لمحاكم الدولة الجزائرية، لأن من مهامه : "اتخاذ محاكم للحكم بين المواطنين"، وفي هذا عدم اعتراف بالمحاكم الوطنية الرسمية.(3)

وفي إطار رده على هذه الحملات، كان الشيخ بيوض بين الحين والآخر يلقي دروسا يبين فيها فوائد هذا المجلس، ويستغل الفرصة للرد على افتراءات هؤلاء المعارضين، فبين في دروسه هذه أن الوحدة الوطنية التي يتشدق بها هؤلاء المعارضون، لاتعني زوال الفوارق والمميزات التي يتميز بها سكان المنطقة عن غيرهم لأن "الإختلاف بين طوائف البشر في أمزجتهم وطبائعهم من السنن العمرانية في الأرض، فليس من الخير للعمران البشري أن يعاكس هذه السنة الفطرية" (4)، وفند بأدلة تاريخية كثيرة أن يكون هذا النظام هو السبب في النزاعات التي تحدث بين العشائر، فقال مؤكدا : "وماكان هذا النظام العشائري عندنا

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة..، ج1، ص : 233

(2) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 61.

(3) – ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 78-79.

(4) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 46

يوما سببا لخصومة أو فتنة بين أتباع هذه العشيرة أو تلك في المجتمع الإباضي، أو بينها وبين العشائر الأخرى في المجتمع المالكي"(1)، وأكد أن سبب الخصومات التي تقع إنما هو النزاع حول مصالح مادية كما يحدث في أي مجتمع.

ورد الشيخ بيوض على زعم المعارضين أن هذا النظام ينمي العنصرية بين أفراد المجتمع، فبين المقصد من هذا النظام والأسس التي قام عليها قائلا : "لايعني نظام العشائر عندنا سوى ذلك المقصد الإجتماعي الفطري الذي أشار الله تعالى إليه في قوله : ﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات : 13]، فقد أصبح المواطنون بفضل وعيهم الإجتماعي اليوم لاينظرون إلى العشيرة إلا بتلك النظرة التكاملية التي تتعاون فيها مجموعة العشائر لبناء صرح المجتمع المتكامل المتوازن". (2)

وإن كان الشيخ بيوض في سياق رده على هؤلاء المعارضين يتغاضى عن بعض سلبيات هذا النظام، والتي يؤكدها أحد تلاميذه بعيدا عن أجواء الصراع فيقول : "إننا إذا انتقدنا شيئا من هذا النظام الإسلامي العظيم، فتحمّس بعض الجهلة لقبائلهم تحمسا زائدا، وأنانيتهم، فيقعون في الحسد والعصبية الجاهلية التي حرمها الله". (3)

أما بالنسبة لتهمة أن وجود هذا النظام يسبّب إزدواجية في السلطات في المجتمع، فيرد الشيخ بيوض بكل موضوعية أن هذا النظام أثبت فعاليته في وقت كانت الدولة الحديثة بأجهزتها غائبة عن هذا الوطن، وحتى بعد قيام نظام الدولة الحديثة في العهد الإستعماري، "فهل استطاع الناس أن يستغنوا عن هذه التنظيمات الداخلية على مستوى العشائر والأسر وهل استطاعت الدولة بأجهزتها القضائية أن تقوم مقام المجلس العائلي في معرفة الأسر وما يصلح لها" (4)، ويجيب الشيخ بأن الواقع العملي للمجتمع يثبت عكس ذلك، فكم "من

---

(1) ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 61

(2) المصدر نفسه، ص : 62

(3) محمد علي دبور، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 238

(4) ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 62

مواريث تنازع ذوو الحقوق الشرعية فيها، و لم تستطع المحاكم أن تفصل بينهم، إلا أن ترجع القضايا إلى المجلس، وتلتمس منه العون والمساعدة في إصلاح ذات البين، وإعطاء كل ذي حق حقه". (1)

ثم إن الخدمات التي يقدمها هذا المجلس للمجتمع مازالت الدولة الحديثة بأجهزتها عاجزة عنها، أو يكلفها القيام بها الكثير من الأموال، فهذا المجلس -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "هو القائم على مراعاة أو اصر القربى في محيط كل عشيرة بما يقدمه من خدمات اجتماعية لأبنائها، من كفالة الأيتام، ومواساة الأرامل، وإسعاف العجزة والمرضى، واستئناس الشاردين، وإرشاد الضالين". (2)

وبهذه الخدمات يعين هذا المجلس الدولة في بعض مهامها، ويخفّف عنها الكثير من الأعباء.

وينفى الشيخ بيوض أن تكون مؤسسات الدولة الحديثة بديلا لهذا المجلس، فيقول: "وهل يعقل أن نعوّض هذا النظام، ونقول للناس قطّعوا أرحامكم، واستغنوا عن رهطكم وقبيلكم، لأن لكم من المؤسسات العامة بديلا عنها، يراعي مصلحتكم، ويضمن حقوقكم".(3)

أما عن زعمهم أن هذا النظام يمثل سلطة قضائية موازية لمحاكم الدولة فينفي الشيخ بيوض أن يكون من مهام مجلس العشيرة الحكم بين أفراد العشيرة وتقرير عقوبات في حق المخطئين منهم، ويحصر دور المجلس في الجانب الإجتماعي فيقول : "وأما ما زعم من قضية المحاكم الخاصة، فلعل الذين كتبوا عنها يقصدون بذلك مجالسنا العائلية التي تسمى عندنا العشائر، والتي يجتمع أعيانها أحيانا لإصلاح ذات البين إذا ما شجر خلاف بين أبنائها،[...]، وهو نظام إجتماعي ورثناه عن سلفنا الصالح وحافظنا عليه، وكان مثل هذا النظام موجودا في بعض مناطق الجزائر كبلاد القبائل واندثر، وليس فيه أي مس بالعدالة

---

(1) - بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 63

(2) - المصدر نفسه، ص : 62

(3) - المصدر نفسه، ص : 63

أو سيادة الدولة". (1)

وبفضل هذه الجهود التي بذلها الشيخ بيوض وإخوانه في الإصلاح استمر المجتمع الميزابي في محافظته على مجالسه العشائرية إلى يومنا هذا.

ج)- جمعية الشباب :

وتسمى بالميزابية "إمصوردان"، وهي جمعية تتكفل بتأطير الشباب في المجتمع الميزابي، ويدخلها كل شاب بعد زواجه إذا توفرت فيه شروط العضوية، ويستمر فيها إلى مرحلة الشيخوخة.

ويتولى رئاستها الكهول والشيوخ الذين حنّكتهم التجارب، وجمعوا بين الصلاح والحكمة، وينتخبون انتخابا حرا.

وعمل هذه الجمعية هو تكوين الشباب تكوينا عمليا، وترسيخ صفات الرجولة فيهم : كالعمل لله، والشجاعة، ومراقبة سلوكاتهم لتحقيق الإستقامة فيهم. (2)

ومن المهام الأساسية التي يقوم بها أعضاء هذه الجمعية التناوب على حراسة المدينة في الليل، وفي قيلولة الصيف، ومراقبة الجو الأخلاقي العام في المدينة، فإذا لاحظوا مايخالف الدين أبلغوا مجلس العزابة بالأمر. (3)

وكانت هذه الجمعية محل نقد وتشويه من المعارضين لتيار الإصلاح، حيث أوحوا إلى المسؤولين أن الشيخ بيوض قد أنشأ شرطة محلية وهو مايعدّ تجاوزا خطيرا لسلطات الدولة، ومسّا بهيبتها. (4)

وسدّا لهذه الثغرة، وحفاظا على هذه الجمعية، اتفق المصلحون مع إدارة الأمن الوطني على صيغة لترسيم عمل هذه الجمعية، حيث تُقدَّم أسماء حراس كل يوم وليلة إلى إدارة

---

(1) - ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 80-81.

(2) - عوض محمد خلفيات، المرجع سابق، ص : 94.

(3) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 239.

(4) - ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 78.

الأمن، وتعطى لهؤلاء الحراس بطاقات خاصة عليها ختم الإدارة. (1)

وقد أوضح الشيخ بيوض مهام هذه الجمعية للوفد الوزاري الذي زار ميزاب سنة 1967م للتحقيق في بعض التهم التي أتهم بها الشيخ بيوض فقال : "وأما مايتعلق بالأمن الوطني، فليس لنا شرطة خاصة، وإنما هو نظام لنا منذ قرون عديدة، يحرس بمقتضاه أفراد متطوعون داخل القرى ليلا ونهارا بالتناوب، وذلك للمحافظة على عائلات الغائبين من أبناء ميزاب الذين قد تطول غيبتهم سنين في طلب الرزق، [...]، وليس لهؤلاء الحراس إلا مجرد المراقبة، فليس لهم أن يعاقبوا أحدا بضرب أو سجن مثلا". (2)

وحاول هؤلاء المعارضون -بدعوى تطبيق تعليمات الحزب- تفكيك هذا النظام، وذلك بدعوة الشباب إلى الإنخراط في الإتحادات التي أنشأوها لصرفهم عماهم فيه، (3) لأنهم ظنوا كما يقول الشيخ بيوض : "أن الشباب هم مناط الأمل في تحقيق مايصبون إليه، فراحوا يقتلون له في الدلو والغارب، ليستميلوه إليهم". (4) ولما عجزوا عن إقناعه بمنطق العقل، حاولوا استدراجه بما يحرك غرائزه، يقول الشيخ بيوض : "ولطالما دفعوا هذا الشباب إلى التمرد، وزيّنوا له العصيان بدعوى حرية التفكير، واستقلالية الشخصية، وحرّ شوهم للانفلات من القيود الإجتماعية في إشباع نزواتهم، وهم في ذلك مزوّدون بكثير من المغريات التي يميل إليها الشباب". (5)

ورغم هذه الوسائل التي استخدموها والأساليب التي سلكوها، لم ينجحوا في استدراجه، ويرجع الشيخ بيوض سبب فشلهم إلى الحصانة التي اكتسبها هذا الشباب في المؤسسات التعليمية والتربوية، وإلى انعدام الثقة بينهم وبين شباب ميزاب المسلم الذي عرف نواياهم، وأدرك مقاصدهم، وساعده في ذلك منبر المسجد وصوت العشيرة، فهما -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "الوقر الذي صمّ آذان الشباب عن سماع أصواتهم،

---

(1) -ابراهيم بيوض، أعمالي في الجزائر، ص : 81.

(2) - بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 81.

(3) - المصدر نفسه، ص : 85.

(4) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 64.

(5) - المصدر نفسه، ص : 64.

والحجاب الذي يحول بينهم وبين هذه الفئة الواسعة من المجتمع، وتلك هي العقدة التي لم يجدوا لها حلا إلا بالتقويض والتخريب للمؤسسات، وتوهين من يقوم عليها بالتهديد والوعيد". (1)

د)- المجلس الديني للنساء :

ويسمى بالميزابية "تمسيردين" أي مجلس الغسالات، وسمي كذلك لأنّ من وظائفه تغسيل الموتى من النساء والأطفال. (2)

ووجود هذا المجلس في المجتمع الميزابي منذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي أو قبل ذلك (3)، دليل على الخطوات الجبارة التي خطاها هذا المجتمع في تنظيمه لشؤونه، لأن إنشاء مجلس أو تنظيم ينظم شؤون النساء، ويشرف على تنسيق جهودهن لدفع حركة الإصلاح في الوسط النسوي، كان من القضايا الكبرى التي اعترضت طريق الحركة الإصلاحية، وماتزال تعترض سير الحركة الإسلامية في أواخر القرن العشرين، مما دفع أحد الدعاة المعاصرين إلى جعل هذه المسألة من الأولويات التي ينبغي أن تهتم الحركة الإسلامية بحلها في المرحلة القادمة.(4)

ويدل وجود هذا المجلس على وعي كبير بالدور الخطير الذي تلعبه المرأة في البناء الإجتماعي، الدور الذي ينبغي أن يوضع له إطار يوجّهه حتى يتوافق السير، وتتحد الأهداف التي تعمل الحركة الإصلاحية لبلوغها، وتتمكن المرأة من المساهمة بجهودها في عملية الإصلاح.

---

(1) - بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 64.

(2) - ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 167.

(3) - عوض محمد خليفات، مرجع سابق، ص : 51.

(4) - يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص : 64

ويتشكّل هذا المجلس من نساء يختارهن "العزابة" لعلمهن وورعهن وصلاحهن، ويحرص العزابة أن يمثل هذا المجلس كل العشائر. (1)

ولهذا المجلس وظائف عديدة، منها الوظيفة التعليمية التربوية حيث "يساعد مجلس العزابة في تثقيف المرأة الميزابية، وتربيتها تربية دينية صحيحة"(2)، ويتولّ مراقبة النساء في الشوارع "في لباسهن وأحذيتهن ومشيتهن".(3)

ومن وظائفه الإجتماعية، أنه يقوم بإصلاح ذات البين بين العائلات (4)، ويشرف على الأعراس ليمنع النساء من الإسراف والبدع فيها (5)، ويراقب احترام النساء لمقدار الصداق الذي يحدّده العزابة، فإذا وجد فيه شيئا زائدا طرحه جانبا ورفضه (6)، ويتولّ إبلاغ أوامر العزابة إلى الوسط النسوي، ويحرص على تنفيذها. (7)

وتجتمع المجالس الدينية للنساء لمنطقة ميزاب في مؤتمرات سنوية، تناقش فيها قضايا المرأة، ودورها في الإصلاح، تسمّى مؤتمرات "لاإله إلا الله"، وفي أحد هذه المؤتمرات إبان الإحتلال الفرنسي، قرّرت هذه المجالس مقاطعة كل مايتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها.(8)

وقد تعرّض هذا المجلس -كما تعرضت باقي المجالس- لهجومات المعارضين لحركة الشيخ بيوض الإصلاحية، لأنه لم يعمل على إخراج المرأة الميزابية من وضعيتها المأسوية -كما يزعمون-، وبالغوا في التهويل حتى حكموا على المجتمع الميزابي "بالشلل في نصف تركيبته البشرية، واتهموه بالعطل في طاقاته الحيوية". (9)

---

(1)-(2) - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 228.

(3) - ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 107.

(4) - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص : 228.

(5) - ابراهيم بيوض، المجتمع المسجدي، ص : 167.

(6) - المصدر نفسه، ص : 111-112.

(7) - المصدر نفسه، ص : 167.

(8) - يوسف بن بكير، تاريخ بني ميزاب، ص : 177.

(9) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 71

وحاولوا زرع نظام بديل لهذا المجلس، فدعوا نساء المنطقة إلى الإنخراط في اتحادهم النسوي، وزعموا أن الإنخراط في هذا الإتحاد هو الضامن للمرأة الميزابية أن تستعيد حقوقها، ودورها الإجتماعي، وكم تأسفوا -كما يقول الشيخ بيوض- : "لغياب نسائنا عنها، إذ يفوتهن الخير الكثير -فيما يزعمون- لما يمكن أن أن يستفدن منه في مجال التربية والتكوين". (1)

لكن دعوتهم لم تجد لها صدى في الوسط السنوي بسبب النظم الإجتماعية المحكمة التي تضبط حركة المجتمع الميزابي، فالنساء في هذا المجتمع -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "لايجتمعن إلا في ديارهن أو في المساجد" (2)، فاستشاطوا لذلك غضبا، وحاولوا أن يستخدموا مالديهم من سلطان لإجبار المرأة على دخول اتحادهم، قال الشيخ بيوض : "وتأزّم الوضع حتى كاد يفضي إلى نوع من الإجبار والقسر بسلطة القانون، ولولا لطف الله، لوقع في ذلك مالا تحمده عقباه". (3)

وكرد على حملاتهم التشويهية لوضع المرأة الميزابية، ألقى الشيخ بيوض دروسا أوضح فيها الدور الكبير الذي تلعبه المرأة في المجتمع الميزابي، في المجال التربوي والإجتماعي والإقتصادي. (4)

ولايزال هذا المجلس مستمرا في أداء وظائفه في الوسط النسوي الميزابي إلى اليوم.

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 71.

(2) – ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 85.

(3) – ابرهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 71.

(4) – المصدر نفسه، ص : 69 75.

(5) – نشأ في قرية أجيم بجربة، ثم رحل إلى ميزاب بطلب من أهلها عام 850هـ/1450م، فكون فيها نهضة علمية وثقافية، وأصلح بين العشائر والمدن، توفي عام 898هـ/1498م.

يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، ص : 78

هـ)- مجلس عمى سعيد :

وسميّ بهذا الإسم اعترافا وتخليدا للمجهود الذي بذله الشيخ عمي سعيد علي الجربى(5)، مع اثنيين من العلماء وفدوا إلى ميزاب فأحيوه بعلمهم وذلك في أول القرن العاشر الهجري، واتخذ مقر المجلس قريبا من قبره. (1)

وهو مجلس تميزت به منطقة ميزاب دون سائر المناطق التي وجدبها الإباضية، ولا يذكر تاريخ محدّد لتأسيسه، ويكتفي أحد الباحثين بالإشارة إلى أنّ الوثائق الخاصة بهذا المجلس والتي لاتزال مخطوطة -تؤكد أن أول وثيقة صدرت عنه تعود إلى عام 867هـ/1467م. (2)

ويتكوّن المجلس من كبار علماء المنطقة وكبار العزابة، لذلك يسمى بمجلس "العزابة الأعلى"، وينتخب من توفرت فيه مواصفات القيادة العلمية والسياسية من أعضاء المجلس رئيسا له، فيمثل القيادة الروحية لمنطقة وادي ميزاب، ويدعى شيخ ميزاب. (3)

ويهتم المجلس بالقضايا الكبرى التي تمس الوادي بأكمله، وهو الهيئة التشريعية التي تختار الأراء الفقهية الصحيحة التي يعود إليها القضاة في أحكامهم، خاصة في المسائل الخلافية، وكان من صلاحياته قبل إحتلال ميزاب وضع القوانين التي تضبط حياة المجتمع في شتى المجالات، يقول الأستاذ محمد علي دبوز : "وقد سن المجلس قوانين كثيرة قبل الإحتلال الفرنسي، وبعده بزمن يسير تسمى (اتفاقيات عمى سعيد)".(4)

ويعتبر المجلس بمثابة محكمة عليا، ترفع إليه القضايا التي يرى أصحابها أن القضاء لم يعطهم حقهم فيها، فيكوّن المجلس لجنة للنظر فيها من جديد، فإذا تبين أنّ القاضي حكّم الهوى أو قبض رشوة يوبّخه ويعاقبه، وقد يعزله عن ممارسة القضاء، ويعلن البراءة منه.(5)

---

(1) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص : 241.

(2) - عوض محمد خلفيات، النظم الإجتماعية والتربوية، ص : 53.

(3) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص : 241

(4) المصدر نفسه، ج1، ص : 243

(5) المصدر نفسه، ج1، ص : 242

ومن مهام هذا المجلس الإشراف على الحياة الدينية للميزابيين، بتعيين العلماء الأكفاء للوعظ والإفتاء في مدن ميزاب ومن مهامه كذلك متابعة أوقاف الميزابيين في الخارج.(1)

وفي كلمة جامعة إنّ مجلس عمى سعيد -كما يؤكد محمد على دبوز-: "هو الرأس المفكّر لكل المدن الميزابية إذا حزّبها أمر، وهو الجامعة التى توحّد جهودها ".(2)

وقد أدرك الاستعمار الدور الخطير لهذا المجلس فعطّله عن أداء مهامه، وعمل المصلحون طيلة فترة الاحتلال الفرنسى لبعث نشاطه، فكان من المطالب التى تقدم بها الشيخ بيوض للجنة الاصلاحات عام 1944:" إعادة مجلس الاستئناف الميزابى المسمى بمجلس عمى سعيد"،(3) لكنّ سلطات الاحتلال لم تستجب لهذا الطلب.

وبعد الاستقلال، -وفي سنة 1963- تمكّن الشيخ بيوض من بعث نشاط هذا المجلس، وانتخب رئيسا له إلى يوم وفاته (4)،فاستأنف نشاطه لكن في إطار محدود جدا، حيث انحصرت مهامه في توعية المجتمع وتثقيفه.(5)

والخلاصة أنّ الشيخ بيوض أدرك أهمية هذه الهيئات كإطار تتحرك فيه الحركة الإصلاحية لإحداث إصلاح اجتماعى شامل، فدعا إلى المحافظة عليها، لكن المحافظة التى لا تعنى الجمود الحرفي على أشكال تنظيمية معيّنة إذا دعت الضرورة إلى تطويرها، يقول الشيخ بيوض: " إذا دعت الضرورة يوما لبعض الإضافات أو التعديلات الجزئية فيه [أي في هذا النظام الاجتماعى]، فإنّنا لا نتردد في ذلك ما وجدنا فيه خيرا ونفعا ".(6)

أما التخلّى عن هذه الهيئات بحجة أنها قديمة، واستبدالها بمؤسسات الدولة الحديثة، فمنطق لا يقبله الشيخ بيوض، لأنّ لهذه الهيئات جذورها في تاريخ المسلمين، ولها وظائفها التى لا يمكن أن تغطيها الدولة الحديثة بأجهزتها ومؤسساتها، ويعلن الشيخ بيوض بكل

---

(1) - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج1، ص : 242.

(2) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص : 244

(3) - ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة ص : 59

(4) - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ص : 229.

(5) - دبوز، نهضة الجزائر ...، ج1، ص : 243

(6) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام ص : 50

وضوح رفضه لهذا المنطق قائلا : " أمّا أن يجيء أحمق ليزهّدنا في ما بين أيدينا من هذه الأنظمة الأصيلة، واصما إيانا بالرجعية والجمود، فحبذا وكرامة إذا فعل بنا ذلك ضال، ونحن على هدي رسول الله وخلفائه الراشدين، ألا فليعلم الثقلان أننا لن نرضى بغير منهج الله ورسوله سبيلا، ولا لنظمنا وتقاليدنا الإسلامية بديلا ".(1)

ويقرّر الشيخ بيوض في النهاية بكلّ ثقة واطمئنان أنّ صمود هذا النظام الاجتماعي لقرون من الزمن، لهو الدليل على صلاحيته للاستمرار والبقاء، و" كلّ التحديات التي تعمل لتقويضه سوف يكون مآلها الخيبة والفشل -بحول الله-، لأنه نابع من أصالتنا، وضارب في جذور تاريخنا، و لم تجد البلاد منه إلا الخير والبركة ".(2)

- رابعا : الجمعيات الحديثة :

كان الشيخ بيوض يدرك أن الهيئات الاجتماعية التي تميزت بها منطقة ميزاب لا تستطيع لوحدها المحافظة على المجتمع والدفع به قدما في ركب الإصلاح، فدعا إلى تدعيمها بالاستفادة من الأشكال التنظيمية الحديثة، مثل الجمعيات الثقافية والاجتماعية.

يقول الشيخ مقررا ذلك: "لا ندّعي الكمال في ما نحن عليه،[...]، ولا نستنكف من الاستفادة والاقتباس من تجارب الآخرين في التنظيم الاجتماعي".(3)

ويرى الشيخ بيوض أنه كلّما استطاعت الحركة الإصلاحية أن تعدّد مواقعها كلّما كان لها نفوذ أكبر في المجتمع، وكلّما تمكنت من المحافظة على مكتسباتها، ويؤكّد أنه :"لولا هذا السعي في طرق عدّة في الدفاع وجلب المنافع لوجد أعداء الإصلاح والأمة فرصهم للقضاء علينا ".(4)

وفي هذا الإطار دعا الشيخ بيوض إلى إنشاء جمعيات ذات طابع ثقافي واجتماعي،

---

(1) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 50

(2) – المصدر نفسه، ص : 50.

(3) – المصدر نفسه، ص : 63.

(4) – محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 104

بهدف جعل خطوات المصلحين منسجمة في سيرها، متقاربة في أهدافها المرحلية والاستراتيجية.

فغياب التنسيق -في نظر الشيخ- هو الذى جعل سير الحركة الإصلاحية قبل العشرينات متسّما بالارتجالية، فقد "سار الناس في هذه المدة الطويلة بخطوات مريضة عرجاء".(1)

ويعترف الشيخ إنصافا لرجال الإصلاح في هذه المرحلة، أنّ جو الكبت والقهر الذي كانت تعيشه الجزائر قبل الثلاثينات من هذا القرن هو الذي حال دون تنظيم أعمالهم، "فلو كانو أحرارا لكان وادي ميزاب على غير ما هو عليه".(2)

ويدعو الشيخ بيوض إلى استغلال الظروف الجديدة التى أصبحت الجزائر تعيشها في الثلاثينات فيقول: " يجب أن نعمل بجد حتى نستدرك ما فاتنا، يجب مضاعفة السير حتى نطوي في مرحلة واحدة ما كنا نسيره فى مراحل، يجب وضع الخطط لإنشاء الجمعيات والمدارس والنوادى، ويجب تغذيتها بالأموال، والتعاون المخلص والسير الحثيث ".(3)

ويحدّد الشيخ بيوض منهجية عمل هذه الجمعيات في إطار المرحلة الجديدة التى دخلتها الحركة الإصلاحية، فيقول: " يجب أن يكون عملنا معشر المصلحين مبنيا على السكون لا على كثرة الكلام والضوضاء والمباهاة، نحتاج إلى الرأي السديد، والعزيمة الصادقة، والإرادة القوية، والسير المتواصل في الداخل والخارج، في سكون وسر كأننا لا نعمل شيئا، لافخر ولا تبجّح، ولا اعتراض للذين يخالفوننا إلا إذا اعترضوا سبيلنا، وسدّوا طريقنا، هنالك يجب دوسهم، والمرور على جثثهم، يجب السكون والكتمان، فالكتمان سر النجاح".(4)

ويؤكد الشيخ بيوض أنّ عمل الجمعيات التى أسست في منطقة ميزاب كان في أول أمره سرّيا، ثمّ رأى المصلحون في أواخر العشرينات ترسيم جمعياتهم، والخروج بها إلى

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج4، ص: 77

(2) - المصدر نفسه، ج4، ص: 77.

(3) - المصدر نفسه، ج4، ص: 77.

(4) - المصدر نفسه، ج4، ص: 78.

العلانية " حتى تعترف بها الحكومة، وترعى حقوقها، فإنّ ذلك أرفع لصوتهم، وأقوى لمقامهم في الدفاع ".(1)

و لم يقتصر نشاط هذه الجمعيات على المجال الثقافي، بل شمل كلّ مجالات الحياة الإجتماعية، فقد اعتنت بالتعليم، كما اعتنت بالتجارة، كما كان لها مشاركات في القضايا السياسية التى كان لها تأثير مباشر على حاضر المجتمع ومستقبله.(2)

وقد استوعبت هذه الجمعيات منطقة ميزاب جغرافيا، حيث أنشأ المصلحون في كل مدينة من مدن ميزاب بل وفي مدن الشمال التى أقاموا بها جمعية ترعى شؤون الإصلاح فيها، بالتنسيق مع غيرها من الجمعيات.

وفيما يلى نعرّف ببعض هذه الجمعيات وأعمالها، حتى نأخذ صورة واقعية عن الحركة الجمعوية في ميزاب، والنتائج التى حققتها :

- **جمعية الاصلاح :**

أنشئت بمدينة غرداية في 14 أفريل 1928م، ونشطت في السر، ثم أصبحت رسمية بتاريخ 24 ديسمبر 1928م، وهي أول الجمعيات الميزابية خروجا إلى العلانية.

وازداد نشاط هذه الجمعية وتنامت فعاليتها بعد انخراط طلبة الشيخ بيوض المتخرجين من معهد الحياة في صفوفها.

ساهمت في تقديم خدمات معتبرة للحركة الإصلاحية والمجتمع في ميدان التعليم والاجتماع، ومن أهم منجزاتها مدرسة الإصلاح بغرداية.(3)

- **جمعية الحياة :**

أنشئت بمدينة القرارة، وانعقد مجلسها التأسيسي بتاريخ 24 جويلية 1937م، وتولّى رئاستها قبل الشيخ بيوض كل من الشيخ بكير العنق والشيخ الحاج عمر بن يحي.

أشرفت على الحركة الإصلاحية في القرارة، فأنشأت مدرسة الحياة، وتكفلت بمعهد

---

(1) -- دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج2، ص : 230

(2) - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ج2، ص : 230

(3) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج2، ص : 247-250

الحياة، وهي المخطّط والمنفّذ لكل مشروع خيري في القرارة، بل هي العقل المفكر للحركة الإصلاحية في ميزاب قبل إنشاء جمعية قدماء التلاميذ. (1)

- **جمعية النور :**

أنشئت بمدينة "بنورة" سنة 1945م، وأسهمت في دفع حركة التعليم بهذه المدينة، فأنشأت مدرسة "النور" سنة 1962م، كما ساهمت في مشاريع إقتصادية، فأسّست شركة "فتح النور" للبيع بالجملة في الجزائر العاصمة، واستطاعت أن تنافس بها اليهود في الميدان التجاري، وتزحزحهم عن احتكار تجارة الجملة.

كما كان لها دور كبير في تأييد الثورة التحريرية، الأمر الذي عرّضها لنقمة جيش الإحتلال الذي دمّر محلها وأتلف جميع سلعها بتاريخ 27 ماي 1962.

استطاعت بعد الإستقلال ن تبعث نشاطها التجاري من جديد. (2)

- **جمعية النهضة :**

كانت في أول أمرها جمعية خيرية تنشط في السرّية في مدينة العطف، ثم صارت رسمية عام 1945م.

والسند القوي الذي زاد من فعالية نشاطها هم طلبة الشيخ بيوض، (3) ومن منجزاتها مدرسة النهضة بمدينة العطف .

- **جمعية الفتح :**

وتسمى كذلك الجمعية الخيرية الوطنية، أنشأها المصلحون في مدينة بريان بتاريخ 1 أغسطس 1928م، فنشطت في السرية، و لم تخرج إلى العلانية إلا عام 1946م.

وقد قامت بأعمال عظيمة في ميدان التعليم والإصلاح والسياسة، وكان وشعارها : الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيئ. (4)

---

(1) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج2، ص 255.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص : 238 239.

(3) - المصدر نفسه، ج2، ص : 242 244.

(4) - المصدر نفسه، ج2، ص : 250 255.

جمعية الإستقامة :

ظهرت نتيجة لجهود المصلحين في مدينة بني يزقن عام 1946م، وساهمت في توسيع رقعة التعليم العصري الحر، فأنشأت مدرسة حرة في بني يزقن عام 1947م، و لم تعترف بها الحكومة الإستعمارية إلا عام 1948م. (1)

جمعية النصر :

وهي من الجمعيات المتأخرة في الظهور مقارنة بسابقاتها، حيث لم تظهر إلى الوجود إلا في عام 1960م، وذلك بمدينة مليكة.

ساهمت في دعم الجانب التعليمي بمليكة، فأسّست بها مدرسة عصرية وناديا ومكتبة عامة. (2)

كما أسّس الميزابيون في أغلب مدن الشمال التي أقاموا بها جمعيات، منها ماجعلوه فرعا لجمعيات موجودة بميزاب، كما هو الشأن بالنسبة لجمعية الإستقامة في مدينة قالمة التي تعدّ فرعا لجمعية الإستقامة ببني يزقن. (3)

وبعد أن تأسست بعض هذه الجمعيات، واثبتت فعاليتها، فكّر المصلحون - وعلى رأسهم الشيخ بيوض- في مشروع لتوحيد هذه الجمعيات، بتنسيق جهودها، وكانت الخطوة الأولى توحيد البرامج التعليمية بين المدارس الإبتدائية التي تشرف عليها. (4)

وقد بذل الشيخ بيوض جهودا معتبرة لإقناع المصلحين ومناصريهم في ميزاب بمشروع الوحدة، فكان في دروسه التي يلقيها في كل مدينة وفي محادثاته مع المصلحين، يركّز على هذا الموضوع.

ويذكر الشيخ عبد الرحمن بكلّي -ممثل حركة الإصلاح في مدينة بريان- أنّ من المواضيع التي دار حولها النقاش والتشاور عند زيارة الشيخ بيوض لبريان عام 1944م :

---

(1) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج2، ص : 240.

(2) - المصدر نفسه، ج2، ص : 240.

(3) - تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص : 425.

(4) - المصدر نفسه، ص : 245.

"محادثات ودية تكون إن شاء الله الحجر الأساس لبناء الوحدة في هذه الربوع". (1)

- **جمعية قدماء التلاميذ :**

وكإطار لتوحيد الجهود، والتنسيق في الخطط والأعمال، أنشأ المصلحون جمعية قدماء التلاميذ في أوت 1948م.

في البداية كان الإنخراط في هذه الجمعية خاصا بقدماء التلاميذ المتخرجين من معهد الحياة، ثم توسّع لكي يشمل جميع التلاميذ المتخرجين من المدارس والمعاهد الإسلامية. (2)

وأوضح الشيخ عدّون -أحد قدماء التلاميذ- الهدف من إنشاء هذه الجمعية في الكلمة التي ألقاها في المؤتمر الأول لهذه الجمعية عام 1948م فقال : "نجتمع في هذا اليوم في مؤتمر لهذه الجمعية لتنفّذ أغراضها الأساسية، من جمع أشتات الأعضاء، والمحافظة على الروابط المتينة التي تكونت في زمن الدراسة، وبث تعاليم الأستاذ [يقصد الشيخ بيوض] في نفوسهم، وفي المجتمعات التي يتصلون بها، وخدمة المشاريع بجميع الوسائل، والمشاركة في الإصلاح العام بقدر الإستطاعة، والنزول في ميادين الكفاح والجهاد الوطني في نظام وخطط مرسومة تحقق الغاية المطلوبة، وتضمن النتيجة المرغوبة، ذلك هو الغرض الذي حملنا على عقد هذا المؤتمر". (3)

ولتحقيق هذه الأهداف، كان للجمعية مؤتمرات سنوية يجتمع فيها أعضاؤها لدراسة قضايا الإصلاح، مراجعة ونقدا للخطوات السابقة، وتخطيطا للمراحل المقبلة. (4)

وفي هذه المؤتمرات كان الشيخ بيوض يحدّد مجالات العمل الإصلاحي وآفاقه المستقبلية، كما فعل في خطبته في المؤتمر الأول، حيث أوضح الدور الذي ينبغي أن تلعبه الحركة الإصلاحية في الجنوب، في إطار المتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، في المجال الثقافي والإقتصادي والسياسي، ويزوّد تلاميذه الذين دخلوا ميادين الإصلاح بتوجيهات تدخل في

---

(1) - دبوز، أعلام الأصلاح في الجزائر، ج4، ص : 188.

(2) - سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 80.

(3) - دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج3، ص : 192.

- سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 71 77.

(4) - المصدر نفسه، ص : 81.

إطار الوعي الحركي الذي يعينهم على السير المتزن والبصير للنجاح في مشاريعهم.(1)

وبتأسيس هذه الجمعية تحوّل العمل الإصلاحي من عمل محليّ تستقّل به كلّ جمعية في المدينة التي تنشط بها، إلى عمل مؤسّساتي يكتّل جهود المصلحين في منطقة ميزاب كلها، لكي يكون سير الحركة منسجما ومتوافقا، وتكون الأهداف المرحلية القريبة مشتركة أو متقاربة.

قال الشيخ بيوض -مؤكدًا هذا التحول- في المؤتمر الأول لهذه الجمعية : "هذه كلمتي إليكم جملة أما الخطط والبرامج، فكلّما حدث حادث أوجدّ أمر رسمنا له خططه، وهيأنا برامجه، ثم بعثنا إليكم بالإرشادات أو بالأوامر إلى مراكزكم". (2)

وقد ساهمت هذه الجمعية في تطوير التعليم الإبتدائي والثانوي في مناهجه وبرامجه، كما كان لها مساهمات معتبرة في قضايا الإصلاح عامة، كما ساندت العمل الثوري خارج إطارها بكل ماكانت تملك من إمكانات، دعاية وتوعية وبتقديم مساعدات مادية.

واستمرت في نشاطها حتى عام 1963، حيث هاجمتها السلطة العسكرية في مؤتمرها العام بالقرارة، ففرّقت المجتمعين بالقوة، وحظرت كلّ اجتماع لها في المستقبل، وكان ذلك بإيعاز من بعض "الحزبيين المنحرفين" كما يسمّيهم الشيخ عدّون، الذين كانوا يعارضون حركة الإصلاح، ويعملون للقضاء على جميع مؤسساتها. (3)

وبعد إنفراج الأوضاع أعيد تأسيس الجمعية كجمعية محلية دائرة نشاطها مدينة القرارة حتى يرخّص لها رسميا، لكنها من الناحية العملية -كما يؤكد الشيخ عدون- كانت ولاتزال العقل المدبر للحركة الإصلاحية في الجنوب، ولمؤسساتها في الشمال.(4)

واستمرت هذه الجمعيات في نشاطها بعد الإستقلال، وهي لاتزال موجودة إلى يومنا هذا.

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ص : 81.

(2) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة...، ج3، ص : 208.

(3) – سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوره، ص : 81.

(4) – المصدر نفسه، ص : 82.

ويمكننا أن نقرر من باب التقييم أنه ماكان لهذه الجمعيات أن تكون لها هذه الفعالية في ميادين الإصلاح لولا العمل التعليمي التربوي الذي قام به الشيخ بيوض في العشرينات، حيث كوّن القيادات التي كانت الركن الشديد الذي استندت إليه في جميع أعمالها.

ثم إن فعاليتها ترجع كذلك إلى فكر الشيخ بيوض، وهو فكر حنّكته التجارب، وشحذته ميادين العمل، ولم تستحوذ عليه الأمور النظرية والمثالية.

وهذا ما نستشفه من مقال كتبه الشيخ بيوض في جريدة الأمة يوضح فيه أن وضع الخطط وتحديد الأهداف القريبة والبعيدة قبل الانطلاق في أي عمل يعدّ أهم ضمانة للنجاح فيه.

وبدأ مقاله بانتقاد العقلية الشرقية، فأكد أنها عقلية تميل إلى التنظير، ويغيب فيها المنطق العملي، فقد "عرف الشرقيون بالتبريز في التفكير والتخيّل والنظر، وبالتقصير في التحقيق والتطبيق" (1).

ثمّ أكد أنّ هذا القصور في العقلية الشرقية كان السبب في إخفاق أهل الشرق في كثير من أعمالهم، "فكم من مشاريع ماتت في المهود لأنّ خططها لم ترسم على حقائق عملية، وأهدافها لم تحدّ بالواقع والممكن القريب، بل رسمت على نظريات خيالية اعتاضت على التطبيق، واستعصت عند التحقيق، واتخذت لها الأحلام والأماني أهدافا، فطاشت السهام ولم تقرطس، فضاع الوقت، وخسر العمل، وفاتت الفرصة" (2).

ثمّ بيّن المنهج الصحيح الذي ينبغي أن تسير عليه المجتمعات الشرقية عامة، والحركات الإصلاحية خاصة، إذا أرادت بلوغ غاياتها والنجاح في مشاريعها، فقال: "إبعاد الغاية وإعلاء المطمح شيئ نبيل وسياسة حكيمة لبعث الهمم، وحمل النفوس على الدأب في السعي، والاستعداد للشقة البعيدة، لكنّ الشروع في العمل يقتضي تقريب الغاية، ونصب الغرض على حدّ الممكن القريب، حتى إذا أدرك أتخذ نقطة ارتكاز، ثم الأسمى، واتخذ غاية

---

(1) إبراهيم بيوض، الفرقان بين أهل السنة والسادة الباروني ماذا والأمر شكيب أرسلان، مقال، جريدة الأمة، ع 02،157 03 1938

(2) المصدر نفسه.

قريبة، فرسمت الخطط لإدراكها، واستؤنف السير، وهكذا دواليك، تلك هي سياسة المراحل التي هي أسدّ وأحكم ماسارت عليه الأمم الناهضة" (1).

وبيّن أنّ الأهداف القريبة إنّما تحدّد انطلاقا من واقع المجتمع وما يمرّ به من تغيرات، فـ "لقد تكون الظروف قد قرّبت البعيد، وأمكنت من المتعذر، ومهّدت السبيل في المرحلة الثانية بينما الناس سائرون في الأولى لم يوّفوا بعد غايتها، فالأقدار جارية باطّراد، والليالي حبالى ينتجن ما لم يكن في الحسبان، وخطط الأعمال تتكيف بالظروف المحيطة، وتتأثر بالملابسات إلى حدّ بعيد" (2).

ولذلك "كان قصر رسم الخطط على الغايات القريبة، والأهداف الدنيا في المراحل الأولى، وإرجاء مابعدها إلى بعد الانتهاء إليها أهدى وأقوم سبيلا" (3).

- خامسا : مؤسسات الدولة الحديثة :

لقد لاحظ الشيخ بيوض التأثيرات السلبية التي تنجم عن تولّي غير الأكفاء للوظائف في المؤسسات التي جاء بها الإستعمار، خاصة مؤسسة البلدية التي لها علاقة مباشرة بالمجتمع حيث كان "القياد" ورقة في يد الإستعمار يسوم بها المجتمع سوء العذاب، وهم -كما يؤكد الشيخ بيوض- : "أنكى وأشد إضرارا من الحكام المستعمرين" (4).

ودامت منطقة ميزاب على هذه الحال، يتهرب الأكفاء الأمناء فيها من تولّي المسؤوليات في المجالس البلدية حوالي أربعة وستين عاما (5)، بسبب فتوى بعض العلماء بتحريم تولي المسلم وظائف في الحكومة الفرنسية، لأنها حكومة كافرة ظالمة، محتجين على فتواهم بحديث: "لعن الله الظلمةوأعوانهم وأعوان أعوانهم". (6)

---

(1) -إبراهيم بيوض، الفرقان بين أميري السيف والبيان...مقال، جريدة الأمة، ع: 157، 02-03-1938م.

(2) (3) - المصدر نفسه.

(4) - دبوز، أعلام الأصلاح في الجزائر، ج5، ص: 53.

(5) - المصدر نفسه، ج5، ص: 49

(6) - سبق تخريجه في ص: 50

وبعد تولّ الشيخ بيوض لمشيخة المسجد في القرارة عام 1924م، دعا الأمة إلى تولّ الوظائف الحكومية، وذلك لتسخيرها فيما يخدم المجتمع، ودفع ماأمكن من المضارعنه، لأنه -كما يؤكد- : "إذا كان القايد [رئيس المجلس البلدي في ميزاب] صالحا فإنه يدفع نصف البلاء عن بلده، وإذا كان فاسدا يضاعف بلاء الإستعمار على بلده، بل يكون نارا في يد الإستعمار يشوينابها". (1)

ويؤكد الشيخ بيوض على ضرورة تولّ الأكفاء لهذه الوظائف مبينا الهدف من ذلك فيقول :"إن تولّى الصالحين للوظائف، سيما القضاء والعضوية في المجالس البلدية يضمن حقوق الأمة، يدافعون عنها، فتنالها كلّها أو الكثيرمنها، ويدفعون عنها الظلم، فيزول كله أو أكثره، فإذا فرضت الحكومة من الغرائم على الأمة مالا تطيقه دافعوا عنها وطالبوا الحكومة بإنقاص غرائمها، وكذلك في جلب المنافع، ودفع المضار الأخرى". (2)

واحتدم الصراع بين الشيخ بيوض والعلماء الذين أفتوا بحرمة تولّى هذه الوظائف، وكان الإستعمار يستغل موقف هؤلاء العلماء من حيث لايشعرون، قال الشيخ بيوض : "وأوحت [أي إدارة احتلال] إليهم بمعارضتنا، والإصرار على فتوى التحريم، فازدادوا ضراوة في معارضتنا". (3)

وكان النصر في نهاية المطاف لصالح الشيخ وتيار الإصلاح بعد إقامة الحجة والبرهان، قال الشيخ : "وأفحمناهم بقوة الحجة، وجعلنا الأمة تعتقد أن تولّ وظائف الحكومة نصره للأمة والدين، ودفع للبلاء عنهما، وهو واجب على الأمة يجب أن تقوم به"، (4) وكان ذلك في آخر الأربيعنات وأول الخمسينات كما يؤكد الشيخ نفسه. (5)

وبحكم أنّ الدخول إلى الإدارة الفرنسية، يتطلب كفاءات معينة لايتحصل عليها إلا

---

(1) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 53.

(2) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 53-54.

(3) – المصدر نفسه، ج5، ص : 54.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص : 51.

(5) – المصدر نفسه، ج5، ص : 54.

بالدخول إلى المدرسة الفرنسية، دعا الشيخ بيوض الميزابيين إلى تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية، لأن فيها -كما يؤكد- : "علوم الحياة الضرورية في كل ميادين الحياة" و"فيها اللغة الفرنسية التي هي لغة الإدارات كلها في الجزائر"، ثم لأنّ "هذه الوظائف الحكومية المهمة لايتقدم إليها إلا من حصل على الشهادة الإبتدائية من المدارس الفرنسية". (1)

وكان المصلحون يرشّحون الأكفاء منهم في الإنتخابات البلدية، وكان الشيخ بيوض يشارك في الحملات الإنتخابية بخطبه وتوجيهاته، ويلزم تلاميذه بحضور هذه الحملات في القرارة. (2)

واستطاع حزب الإصلاح أن يحقق إنتصارات كبيرة في الإنتخابات البلدية، والفضل في ذلك يعود إلى القيادات التي كونها الشيخ بيوض، وأحسن توجيهها، ثم إلى النفوذ الكبير الذي كسبه في المجتمع، حيث كان له قاعدة شعبية عريضة تناصر أفكاره وزعماءه. قال الشيخ بيوض -مقررا هذه الحقيقة على مسامع تلاميذه : "لقد قضيتم في معاهد الدراسة سنوات تلقيتم فيها ما أهّلكم للكفاح في ميادين الحياة، ثم قضيتم في هذه [أي في ميادين الحياة] سنوات عرّكتكم فيها أحداث وعركتموها، سيما سنوات الحرب الأخيرة، ثم جاءت معركة الإنتخابات التي كانت للناس فتنة، كشفت معادنهم، فأشعرتكم قيمتكم، وأظهرت للناس خطركم، إن الفضل في الفوز الذي أحرزه حزب الإصلاح في الإنتخابات يرجع أكثره إلى جهود الشباب". (3)

والمؤسسة الثانية التي دعا الشيخ بيوض إلى دخولها بعد المجالس البلدية هي المجلس الجزائري، فبعد صدور القانون الأساسي للجزائر في 20 سبتمبر 1947 الذي ينص في مادته الخمسين على إزالة الحكم العسكري عن أراضي الجنوب وضمّها إلى الشمال، وعلى إنشاء المجلس الجزائري، انقسم الميزابيون إلى فريقين، فريق يدعو إلى المشاركة فيه، وفريق يرفض ذلك لأنه يعتقد أنّ ضمّ ميزاب إلى الشمال يعني القضاء على شخصية الميزابيين، (4)

---

(1) دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 35.

(2) دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ص : 24 25

(3) دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص : 205

(4) يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، ص : 210.

يقول أحد هؤلاء المعارضين لدخول المجلس الجزائري : "فإننا لانقبل هذا الإدماج أبدا لأن ذلك يضر بعوائدنا وديانتنا التي تعهدت لنا دولتنا الفرنساوية باحترامها، وعدم التدخل فيها، لأننا أمة هادئة، تحب العافية، ولانريد التدخل في أي انتخاب مهما كانت صفته، ولا المشاركة في أي مجلس كان، ولا الدخول في أيّ حزب من الأحزاب مهما كانت صبغته".(1)

ويردّ الشيخ بيوض على هؤلاء حجتهم فيقول : "إننا وطنيون جزائريون، لسنا أجانب كما يدّعي بعض المتهوّسين، فلا يمكننا أن ننفصل عن إخواننا في النظم العامة المشتركة، ولا أن نتحلّل ونذوب ونتنازل عن الخصائص والمميزات، على أن للوطن حقوقا مشتركة يتساوى فيها أبناؤه، وإن اختلفت مذاهبهم". (2)

ويدعو الشيخ بيوض إلى تدقيق النظر في كل مادة من مواد هذا القانون للإستفادة القصوى منه، في تحقيق أهداف الإصلاح ودفع مشاريعه إلى الأمام، والمحافظة على المجتمع الميزابي بمميزاته، يقول الشيخ بيوض : "هنا يدق موقفنا، فنحتاج إلى الكثير من اليقظة والإنتباه والحذر، وإلى تدقيق الملاحظة في كل مادة مما يسن في هذا النظام الجديد، حتى نستطيع التوفيق بين النظام المشترك وبين الخصائص والمميزات، ويكون بينهما تلاؤم وانسجام".(3)

ويؤكد الشيخ بيوض أن هذا المجلس الذي ستنشئه إدارة الإحتلال سيكون له دوره الخطير، وتأثيراته المباشرة على المجتمع، فيقول : "هذا الدستور الذي وضعته فرانسا للجزائر، وأنشأت به هذا المجلس الجزائري، ووضعت الجزائر في وضع جديد، له حسناته وسيئاته، وهو بدء انقلاب كبير، وهو خطوة أولى في طريق تطور الجزائر إلى أوضاع مختلفة متتالية، ستجتازها البلاد حتما قبل أن تصل إلى غايتها، [...]، حقا إن هذا لهذا المجلس سيادة في ميادين شتى، سيكون له فيها الأثر البليغ، وستتناولنا مقرراته، ويمسنا من قريب لامن بعيد في

---

(1) – محمد بن عيسى بن ابراهيم، مذكرات ووثائق رسمية وادي ميزاب، ص : 57

(2) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص : 204.

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص : 204.

شتى شؤوننا الحيوية". (1)

ومن الأدلة على خطورة هذا المجلس رغم عيوبه الكثيرة كما يؤكد الشيخ أن إدارة الإحتلال حاولت توجيهه وتدجينه حتى لايكون فيه إلا من ترضى عنه، و"لو جد رجالا أكفاء مخلصين لخدموا به البلاد خدمة جلّى" .(2)

وجرت الإنتخابات لهذا المجلس يوم 4 أفريل 1948، فترشح عن منطقة ميزاب ثلاثة مرشحين، الشيخ بيوض عن حركة الإصلاح ، ومفدى زكريا عن حزب حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية، وعيسى بن عمر باعلى مترشح حر، ففاز الشيخ بيوض ب 52% من الأصوات، ودخل المجلس الجزائري نائبا عن منطقة ميزاب. (3)

وهذه النتيجة تعطينا صورة عن القاعدة الجماهرية العريضة التي كانت تناصر حزب الإصلاح بقيادة الشيخ بيوض.

واستطاع الشيخ بيوض بنيابته في هذا المجلس أن يحقق مكاسب كبيرة لحركة الإصلاح في مزاب والشمال، وأول هذه المكاسب أن هذه النيابة فتحت أمام الإصلاح أبوابا كانت موصدة، يقول الشيخ بيوض : "إني لأنفع أمتي بهذا اللقب [أي لقب النائب] خارج المجلس كذلك، فإن الحامل للقب النائب تفتح في وجهه أبواب كانت موصدة، وتصغى إليه آذان كانت تتصامم". (4)

ثم إنّ وجود الشيخ في هذا المجلس –كما يؤكد مجموعة من مجاهدي القرارة– يعتبر "دعما لانتصار وانتشار التعليم العربي والديني، وتعميمه قدر الإمكان بواسطة المدارس والمعاهد التابعة لجمعية العلماء في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب". (5)

وتتضح خطورة هذا الموقع الذي احتله الشيخ بيوض بشكل خاص في قضية فصل الصحراء عن الشمال، حيث لعب الشيخ بيوض كنائب عن ميزاب دورا سجّله التاريخ له،

---

(1) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج2، ص : 203.

(2) – المصدر نفسه، ج2، ص : 203

(3) – يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، ص : 210 211

(4) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج3، ص : 206.

(5) – ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 97-98.

فتمكّن بحنكته ودهائه أن يفوّت الفرصة على إدارة الإحتلال التي حاولت اللعب بهذه الورقة، فكان يؤكد طيلة فترة نيابته على أن الصحراء لايمكن بحال من الأحوال أن تفصل عن الشمال، كما فعل عام 1951 وهو يخاطب لجنة النواب الفرنسيين، موضحاهم المبررات الموضوعية لذلك، فبدأها بالمبرر التاريخي حيث قال : "إننا نحن الميزابيين جزائريون منحدرون من أصل جزائري، ولنا في قلب الجزائر الشمالية آثار عظيمة، وتاريخ مجيد، وذكريات لاتنسى، ومن ذا الذي ينسى الدولة الرستمية في (تيارت)، [...]، لكنّ تقلبات الدهر دفعتنا إلى هذه الزاوية من جنوب الجزائر على أبواب الصحراء فاستوطناها، و لم تنقطع علاقتنا بالشمال أبدا، كما أنها لم تتصل بالجنوب أبدا، ويستحيل أن تتغير هذه الحالة فيما يستقبل من الزمان". (1)

ثم المبرر الإقتصادي فقال : " إن حياتنا ومصادر عيشنا ومنابع اقتصادنا كلّها في الشمال، فالميزابيون كلّهم منذ ولادتهم متجهون إلى الشمال منذ أقدم العصور، تشهد بذلك الآلاف المؤلفة من أبناء ميزاب المنبثين في العمالات الجزائرية الثلاثة، لطلب الرزق بالتجارة، [...]، ولو انقطع مدد الشمال عن ميزاب يوما واحدا لمات أهله". (2)

ويختم الشيخ بيوض خطابه أمام هذه اللجنة بقوله : "وربما تطرق أسماعكم أصوات أخرى تخالف هذه الحقيقة، فلتعلموا سلفا أنها لاقيمة لها، سببها أغراض لاتخفى، واستفتاء حقيقي للشعب يثبت صحة ماقلنا". (3)

وسلكت سلطات الإحتلال بداية من 1959م مسالك شتّى لدفع سكان الصحراء لقبول فكرة الإنفصال عن الشمال، وتكوين جمهورية مستقلة.

منها مسلك الإغراء، فقد أرسل "ديغول" مستشاره أو ليفى قيشار olivier guichard إلى الصحراء للتفاوض مع زعمائها، فكان له لقاء مع الشيخ بيوض -قال له فيه : "إني

---

(1) – بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 72.

(2) – المصدر نفسه، ص : 72

(3) – المصدر نفسه، ص : 73.

مبعوث إليك من طرف رئيس الجمهورية الجنرال دي غول للمفاوضة معك في شأن مستقبل الصحراء واستقلالها، فهي تملك الموارد الضخمة من الغاز والبترول، وهي متاخمة لموريطانياالجمهورية الإسلامية المستقلة، وبذلك تكون جارة وصديقة لها، ونحن في عونكم جميعا، وأخبرك أن الجنرال خط هاتفه مفتوح في الإليزي ينتظر الجواب "فرد عليه الشيخ بيوض بكل رزانة وحكمة : "وهل من حقي تقرير مصير شعب كامل"، فأجابه : "نعم" فقال الشيخ : "هذا حق من حقوق الشعب، ولذلك فمن الحكمة يجب استفاء شعبي في هذا الشأن". (1)

ثم سلكت سلطات الإحتلال مسلكا آخر حيث حاولت دفع أعضاء المجلس العمالي(2) للمصادقة على فصل الصحراء عن الشمال.

وأحسّ الشيخ بيوض بخطورة المؤامرة، فاتّصل ببعض الممثلين في المجلس، وأخذ منهم العهد على رفض قضية فصل الصحراء إذا طرحت.

وانعقد المجلس، وطرحت القضية فقام الشيخ بيوض وقال : "إن مهمّة هذا المجلس هي بحث المسائل الإقتصادية والإجتماعية، وليس من صلاحياته التدخل في المسائل السياسية، كفصل الصحراء مثلا، ولايتأتي ذلك إلا باستفتاء شعبي"، وغادر الشيخ الجلسة وتبعته الأغلبية من الأعضاء. (3)

وبعد الفشل الذريع الذي منيت به السلطات الإستعمارية أمام حكمة وحنكة الشيخ بيوض، لجأت إلى أساليب إجرامية دنيئة، ليس هذا مقام الحديث عنها، لأننا في هذا المبحث نريد التأكيد على توغل التيار الإصلاحي -بقيادة الشيخ بيوض- في مؤسسات إدارة الإحتلال، وماحققه هذا التوغل من نتائج إيجابية للحركة الإصلاحية خاصة، وللمجتمع عامة.

---

(1) - بيوض، أعمالي في الثورة،ص : 64.

(2) - مجلس استشاري أنشأته سلطات الإحتلال سنة 1960، ويعنى بدراسة المشاريع التنموية في عمالة الواحات، ومناقشة الميزانية السنوية، وكان الشيخ بيوض عضوا فيه.

(3) - ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 64-66.

وإضافة إلى الفوائد التعليمية والإجتماعية والسياسية التي جناها حزب الإصلاح من نيابة الشيخ بيوض في المجلس الجزائري، تحققت فوائد إقتصادية للمنطقة، فقد جاء في تقرير لنخبة من مجاهدي القرارة، أنّ عضوية الشيخ في المجلس كانت "دعما قويا، وتعزيزا للحركةالوطنية في مختلف المجالات، بما في ذلك مقاومة بعض أنماط الاحتكار لفائدة بعض الشركات الإحتكارية الفرنسية لثروات الوطن الجوفية الباطنية أو الخارجية الظاهرية".(1)

فقد رفض الشيخ بيوض احتكار شركة لاريجى "la regie" لتوزيع المياه، وطالب أن يسند توزيع المياه إلى النقابات التي أنشأها المصلحون لتوزعها مجانا مع احترام قوانين الحكومة. (2)

وقد استقال الشيخ بيوض من هذا المجلس -كغيره من النواب الوطنيين- تأييدا للثورة التحريرية. (3)

واستمرت قناعة الشيخ بيوض بضرورة وجود كفاءات التيار الإصلاحي في مؤسسات الدولة بعد الإستقلال، فشغل منصب مندوب الشؤون الثقافية في الهيئة التنفيذية للحكومة المؤقتة(4)، وكان يحثّ تلاميذه على عدم التردد في تحمل مسؤوليات في مؤسسات الدولة إذا كانوا يلمسون في أنفسهم الكفاءة والمقدرة، باستثناء مؤسسة حزب جبهة التحرير الوطني التي رفض الشيخ بيوض دخول تلاميذه فيها -خاصة في الستينات-، لأنه كان يرى أنها انحرفت عن الأهداف التي رسمتها لنفسها إبان الثورة التحريرية، وقد خالفه بعض تلاميذه في هذا الرأي ودخلوا الحزب وناضلوا في صفوفه. (5)

---

(1) - ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، ص : 97

(2) - محمد بن عيسى بن ابراهيم، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص : 37

(3) - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، ص : 228.

(4) - المصدر نفسه، ص : 2929

(5) - الشيخ سعيد شريفي، مدير معهد الحياة، مقابلة شخصية، الجزائر العاصمة، 25-09-1993، والسيد باسليمان سليمان، من تلاميذ الشيخ، مقابلة شخصية، القرارة، سبتمبر 1993، وهو ممن خالف الشيخ بيوض ودخل صفوف الحزب.

- سادسا : المجال الإقتصادي :

كما كان الشيخ بيوض يدرك خطر مؤسسات الدولة الحديثة، ويدعو إلى استغلالها كأطر لتحقيق أهداف الحركة الإصلاحية، كان يعي وعيا تاما مالجانب الإقتصادي من آثار في حياة الفرد والمجتمع، خاصة بالنسبة للمجتمع الجزائري الذي كان معرّضا لتحطيم اقتصادي مقصود وشامل من قبل إدارة الإحتلال، لضمان تبعيته الكاملة والدائمة.

ورأى الشيخ بيوض أنه إذا أريد لحركة الإصلاح النجاح في المحافظة على المجتمع من الإنحلال الأخلاقي والإجتماعي، وتوجيه طاقاته في اتجاه البناء، فلابد أن تهتم بهذا الجانب الحيوي من حياة المجتمع.

ففي أول درس له ألقاه بمسجد القرارة -عند توليه مشيخه المسجد عام 1924م- دعا الشيخ بيوض إلى "إنشاء الشركات الإسلامية لتعمير الوطن"، (1) وتوسيعا لدائرة الوعي بهذه القضية المهمة، كان الشيخ بيوض يقوم بجولات في مدن ميزاب ومدن الشمال يدعو فيها إلى"النهضة في التجارة والفلاحة، ومقارعة اليهود والمعمرين الأوروبيين فيها بأساليبهم العصرية النافعة". (2)

وإذا سافر إلى مدن الشمال -حيث يتمركز عدد كبير من التجار الميزابيين- ركز في دروسه على ضرورة " إنشاء الشركات الإسلامية لتجارة الجملة، وتحسين تجارة التفصيل". (3)

وقد بدأت دعوة الشيخ -كما أسلفنا- إلى الاهتمام بهذا المجال في العشرينات، وبدأت آثارها الإيجابية تظهر في الأربعينات "لما نزل إلى ميدان التجارة في الشمال والجنوب أفواج من الشباب المثقف الذي كوّنته مدارس الإصلاح"، فأنشئت شركات للتجارة بالجملة في شتى الميادين "في الأقمشة، والمواد الغذائية، والأوعية، والعقاقير، وفي مواد البناء والتجارة وغيرها". (4)

---

(1) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص : 61.

(2) - دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص : 173.

(3) - دبوز، أعلام الاصلاح في الجزائر، ج5، ص :58.

(4) - المصدر نفسه، ج5، ص : 59

وقد أسهمت هذه الشركات في تكوين قاعدة مادية معتبرة للحركة الإصلاحية، فكانت تموّل جميع مشاريعها العلمية والإجتماعية، كبناء المدارس والمساجد والنوادي، وإرسال البعثات العلمية، كما تتولى الدفاع عن قضايا الإصلاح وقياداته بمالها من نفوذ ماديّ. (1)

ومن المواقف التي استطاع الشيخ بيوض بها تخليص التاجر المسلم من هيمنة اليهود، فتواه بجواز شراء مكس الأسواق، فقبل صدور هذه الفتوى كان مكس الأسواق يعرض للبيع فيشتريه اليهود، ويمتنع المسلمون لاعتقادتهم بحرمة ذلك، وقد استغلّ اليهود هذا الوضع فسيطروا على أسواق ميزاب المهمّة، فكانوا "يأخذون من الباعة أضعاف ماقرّره القانون، فأثروا وجمعوا أموالا كثيرة بامتصاص دماء المسلمين". (2)

فدعا الشيخ بيوض إلى تغيير الوضع فقال : "إلى متى ونحن صابرون على الظلم ؟، إنّ المكس ضريبة واجبة في الأسواق، فيجب أن نتولّاه لنرفع الظلم وغطرسة اليهود على المسلمين". (3)

فأنشأ المصلحون في القرارة لجنة منهم فاشترت مكس السوق عام 1929م، واستمرت في شرائه كل ثلاث سنوات لمدة تسع سنين حتى طأطأ اليهود رؤوسهم، وعرفوا أقدارهم. (4)

وتشجيعا لبعض القطاعات، أعفى المصلحون من ضريبة المكس المنتوجات الفلاحية، لتشجيع الفلاحين، والمنسوجات الصوفية تشجيعا للمرأة الميزابية. (5)

و لم يفهم العلماء الجامدون، مقصد الشيخ بيوض من فتواه، فازدادت معارضتهم له، يقول الشيخ في شأنهم : "مساكين هؤلاء المعارضون، إنهم لايفهمون الدوافع والنتائج الحسنة لشراء المكس، وأنها الرأفة بالفقير، ودفع الذلّة عن الأهالي المسلمين". (6)

---

(1) - دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 60.

(2) - المصدر نفسه، ج5، ص : 72.

(3) - المصدر نفسه، ج5، ص : 73.

(4) - المصدر نفسه، ج5، ص : 73.

(5) - المصدر نفسه، ج5، ص : 73 74.

(6) - المصدر نفسه، ج5، ص : 75.

والمجال الثاني الـذي دعـا الشـيخ بيـوض إلى الإهتمـام بـه –بعـد التجـارة– هـو النقـل، لتخفيف أعباء السفر على المسافرين عـبر منـاطق الجنـوب، ولإعطـاء دفـع للعمـل التجـارى بإحكام الصلة بين الشمال والجنوب.

ففي درسه الأول في مسجد القرارة عام 1924، دعا الشيخ بيـوض إلى إنشـاء شـركات للنقل، وأثنى على مشروع السيد عبد الله بوكـامل، الـذي أنشـأ شـركة للنقـل بتوجيـه مـن بعض المصلحين. (1)

وقد كان هذا المشروع محلّ نقد لاذع مـن قبـل العلمـاء الجـامدين الذيـن كـانوا يفتـون بحرمة إنشاء شركات النقل لأنها: "تحمل الخمر والمومسات والحكام واليهـود والنصـارى"، فلما دعا الشيخ بيوض إلى إنشاء مثل هذه الشركات قـامت قيـامتهم، وأعلنـوا البراءة منـه، وأعلنوا في العامة "أن بيوض مارق من الدين". (2)

وأشاد الشيخ بيوض في الثلاثينات بالجهود التي بذلهـا السيد عيسـى بـن عمـارة خبزى والسيد حمة قريشى لإنشاء شركة مكوّنة من حافلة كبيرة وشاحنة لنقل البضـائع علـى خـط بسكرة– غرداية، مرورا بيتقـورت والقـرارة، واسـتمر هـذا المشـروع ثماني سـنوات رغـم الصعوبات التي واجهته،ثم توقّف بسبب أزمة الوقود في غضون الحرب العالمية الثانية. (3)

ثم أنشأ السيد عيسى بن عمارة خـبزى والشيخ بيـوض بمسـاهمة مـن صفـوة المصلحـين بالقرارة شركة نقل قدّمت خدمات كبيرة لسكان الجنوب (بسكرة، أولاد جلال، تيقورت، القرارة، مدن ميزاب)، رغم الصعوبات التي واجهتها في سنوات الحرب العالمية الثانية. (4)

وثالث ميدان دعا الشيخ بيوض إلى تطوير طرق العمل فيه، هو ميـدان الفلاحـة، الـذي يعتبر من المصادر الإقتصادية المهمة لمنطقة ميزاب بعد التجـارة، بـل إن رحلـة الميزابيين منـذ القديم إلى الشمال للتجارة كان الهدف منها توفير المال الكافي للقيام بالفلاحة في المنطقة.

---

(1) –دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 69.

(2) – المصدر نفسه، ج5، ص : 70.

(3) – المصدر نفسه، ج5، ص : 60.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص : 60 61.

وكخطوة عملية، أنشأ الشيخ بيوض والسيد عيسى بن عمارة خبزى وجماعة من المصلحين في الأربعينات شركة لحفر الآبار الأرتوازية في القرارة، لمنافسة بعض الشركات الفرنسية التي أرادت أن تحتكر هذا الميدان، مثل شركة لاريجى "la regie".(1)

وطالب الشيخ بيوض -كنائب عن ميزاب في المجلس الجزائري- بإعطاء حق توزيع المياه لأعضاء النقابات التي أنشأها المصلحون عوض استئثار شركة"لاريجي" بها. (2)

وكان الشيخ بيوض يدرك أنه لايمكن لهذه الشركات التجارية أو الصناعية أو الفلاحية أن تنافس مشاريع اليهود والمعمرين إلا إذا كان المديرون لها مؤهلين للإستفادة من أحدث مبتكرات العصر في أعمالهم، فدعا إلى دخول مراكز التكوين المهني التي تؤهل للنجاح في هذه المجالات، ففي خطابه التوجيهي لقدماء التلاميذ عام 1948 قال الشيخ : "أما في الميدان الثقافي فقد فتحت مدرسة غرداية للصناعات، وستفتح في شهر أكتوبر الآتي 48م مدرسة تجارية ستتلوها بعد قليل مدرسة فلاحية، فهل من سداد الرأي أن يتركها أبناء الوطن ليحتلها غيرهم؟، وهل يتولى إدارات الأعمال بعد اليوم غير المثقفين ؟، وهل يكون الإنتاج بغير علم؟، ثم إن طبيعة العمران تقتضى اختصاصيين في شتى فنون العلم، فمن يكون هؤلاء في ميزاب في الغد القريب ؟". (3)

وكخطوة عملية أوفد الشيخ بيوض مجموعة من الطلبة إلى غرداية لتعلّم حرفتي النجارة والحدادة بأساليب عصرية في مدرسة أنشئت خصيصا لذلك. (4)

ويؤكد الشيخ بيوض أنه لايمكن لحركة الإصلاح أن تتقدم خطوة إلى الأمام، في تحريرها للمجتمع من قيود المستعمر، وأن تحافظ على ما أنجزته بعملها التعليمي التربوي، مالم تكن الهيمنة في المجال الإقتصادي لأبناء المجتمع المؤمنين برسالة الإصلاح، يقول الشيخ بيوض : "إننا إن لم نندفع إلى العلم بقوة واعتناء، عاد الأمر علينا وبالا، إننا نطلب أن يكون أمر

---

(1) – دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص : 61

(2) – محمد بن عيسى بن ابراهيم، مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب، ص : 37

(3) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ...، ج3، ص : 201

(4) – انظر الفصل الثاني من هذا البحث، ص: 123

بلادنا بأيدينا، فهل أعددنا له مدبرين، وهيأنا له مديرين ؟". (1)

و لم يكن الشيخ بيوض يكتفي بمعالجة الواقع القائم في ميزاب في حاضره، بل كان يدعو تلاميذه إلى التفكير في مستقبل المنطقة، والتحوّلات التي يمكن أن تتعرض لها، ووضع الخطط والمشاريع لمواجهتها.

ففي إطار تحليله للوضع الإقتصادي في منطقة ميزاب، والتحولات المستقبلية المحتملة، وماينجرّ عن هذه التحولات من تأثيرات أخلاقية وإجتماعية، يقول الشيخ بيوض : "إن ميزاب سيصبح بعد قليل بلادا منتجة مصدّرة، بحكم عذوبة مائه، وطيبة تربته، ونشاط أهله، وهذا يقتضي بطبيعته مؤسسات وهيئات للتصدير، فإنه لايستهلك عشر نتاجه، وسواء كانت المشاريع فيه أهلية أم أجنبية، فإن طبيعة العمران المستبحر ستجلب إليه أخلاقا من مختلف العناصر والجماعات، وطلاب الأعمال، ورواد الاستغلال، يفدون إليه بمنازعهم وأهوائهم، وبعوائدهم وأدوائهم، ولابد من الإحتكاك والإختلاط، فلا محيص إذن من العدوى"، ثم يطرح الشيخ بيوض السؤال على تلاميذه : "فبأي وسيلة يحافظ ميزاب على تراثه العزيز ؟"، ويعتقد الشيخ أن الأمر يحتاج إلى تفكير وتخطيط، لكنه يؤكد أنه "إن لم يكن عمل عظيم جدّى سريع لكسب الناشئة حصانة دينية خلقية قوية، كان الذوبان والانحلال لاقدّر الله". (2)

والخلاصة أن الحركة الإصلاحية في ميزاب بسلوكها للمنهج الإجتماعي، بالخطوات التي ذكرنا استطاعت أن تتجاوز بإصلاحاتها المجال التعليمي إلى إصلاح اجتماعي مسّ كل مناحي الحياة.

واستطاعت هذه الحركة أن تحقق الأهداف التي سلكت من أجلها هذا المنهج فارتفعت بالمجتمع الميزابي إلى مستوى عال من السموّ الأخلاقي، والترابط الإجتماعي، الأمر الذي لاحظه الأستاذ مالك بن نبي عند زيارته لمنطقة ميزاب عام 1968م، حيث قال : "لانرى في

---

(1) دبوز، نهضة الجزائر الحديثة، ج3، ص 201

(2) المصدر نفسه، ج3، ص 200

ميزاب أيّ وجه من وجوه التشرد كما في المناطق الأخرى، فلا نرى أي سكير في منطقة غرداية -رغم كونها مقصدا للسياح، مما يجعلها عرضة للإنحرافات الأخلاقية- ولانرى أيضا انحلالا اجتماعيا، حيث لانجد أن الفرد في المجتمع يجد مايدفعه إلى التسوّل، فلم أر متسولا واحدا في ميزاب أيام إقامتي بها". (1)

كما نجحت هذه الحركة في تعبئة المجتمع في عملية البناء، فأضحى كل فرد يعمل من أجل المجموع، وكلّ المجموع يعمل من أجل الفرد، هذه هي : "القاعدة السحرية التي تحكم هذا المجتمع، وتسمو به" كما يؤكد مالك بن نبي. (2)

وتحوّل العمل التطوّعي في هذا المجتمع إلى عمل يومي يمارسه الأفراد دون كلفة، فاستطاع الميزابيون أن ينجزوا إنجازات ضخمة برأسمال محدود، منها أكبر سد في مدينة بريان سنة 1947م، حيث شارك أهل المدينة -وفي شهر رمضان- في إنجازه، "فكانوا يخرجون في الليل بعد صلاة التراويح، فيسرجون صفوفا طويلة من المصابيح القوية، فيبيتون وهم يعملون لله مع البنائين إلى وقت السحور، وظلّت المدينة على هذا في رمضان، وفي كلّ ليلة تعيّن طائفة من رجالها للعمل في السد، فلم ينقض رمضان حتى كان السدّ قد انتصف بناؤه". (3)

وكثير من المشاريع في منطقة ميزاب أنجزت بتعبئة أفراد المجتمع، وتكتيل جهودهم، والزائر للمنطقة لايخفى عليه ملاحظة ذلك.

ثم إن هذه الحركة بنفوذها السياسي والمالي استطاعت أن تقدّم خدمات كبيرة للمجتمع الميزابي، وتفوّت الفرصة على الذين كانوا يريدون استغلال أوضاعه من المعمّرين واليهود، بالإضافة إلى مساهمتها في دفع حركة الإصلاح الثقافي خطوات كبيرة إلى الأمام، ببناء المدارس وتمويل الجمعيات الثقافية، والدفاع عن رموز الإصلاح ومنجزاته.

ويبقى أن نلاحظ في الأخير أنه رغم الإيجابيات التي أشرنا إليها، عجزت هذه الحركة

---

(1) -Malek Bennabi, l'invitation du M'zab,Révolution Africaine, Semaine du 20 au 26 mai, pp:24
(2) -Ibid, pp: 23

(3) – دبوز، نهضة الجزائر الحديثة ..، ج1، ص : 184.

أن تشعّ بإصلاحاتها خارج دائرة المجتمع الميزابي، فبقيت هذه الإصلاحات حبيسة هذا المجتمع، ولم تنقل إلى غيره، وهذا رغم الجهود التي كان يبذلها الشيخ بيوض حيث كان كما يشهد رئيس الحكومة الجزائرية المؤقته السيد بن يوسف بن خدة- : "يسعى دائما لتوحيد الشعب الجزائري سواء في توجيهاته التربوية أو في دروسه العامة، و لم يألُ جهدا في دعوة الإخوة الإباضيين إلى الالتحام ببقية أفراد الأمة، بمثل ترغيبهم في أداء صلاة الجماعة في المساجد المالكية بمختلف المدن والأحياء لإحباط الفكرة الإستعمارية الهدامة "فرق تسد"، الشيئ الذي لم يكن موجودا قبل عهده". (1)

3)- موقف الشيخ بيوض من بعض القضايا الإجتماعية :

ونختم هذا الفصل بالحديث عن آراء الشيخ بيوض في بعض القضايا الإجتماعية التي كانت مطروحة على المثقفين في عصره، ونركز على قضيتين هما :

قضية المرأة وقضية توزيع الثروة.

- أولا : قضية المرأة

وأول هذه القضايا التي أسالت الكثير من الحبر، وشغلت الكثير من المثقفين قضية المرأة، التي يعتبرها الشيخ بيوض من أعوص القضايا التي واجهت المجتمع البشري عبر تاريخه الطويل، وتأتي في الترتيب مباشرة بعد قضية العقيدة، يقول الشيخ بيوض : " والمرأة هي أكبر مشاكل الإنسان، وهي مشكلة المشاكل التي مرضت الإنسانية بسببها ولاتزال، ولعله أكبر مرض بعد مرض العقيدة". (2)

ويحدّد الشيخ بيوض أهمّ المحاور التي دار عليها النقاش في موضوع المرأة بقوله : "ماحقيقتها ؟، وما حقوقها ؟، وما واجباتها ؟، مامكانتها في العالم ؟ كيف تعامل ؟، هل

---

(1) – ابراهيم بيوض، أعمالي في الثورة، (ملحق وثائق تاريخية)، ص : دون رقم.

(2) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 111.

تعامل كالرجل سواء بسواء ؟ أم دونه درجة ودرجات ؟، أوفوقه درجة ودرجات ؟، [...]، هل تعد كالرجل، فتحترف مايحترفه الرجل وتترك حرفتها الطبيعية "الأمومة" ؟، هل تحتجب وتستر عورتها، أم تسفر حتى تكشف عن جسمها مالا يجوز ؟". (1)

وقبل أن يدلي الشيخ برأيه في هذه المواضيع يحدّد المصادر المرجعية التي يستقي منها آراءه في مصدرين اثنين، أولهما الوحي متمثلا في القرآن والسنة، حيث يقول "فنحن بفضل الله لا نعتمد في ردنا إلا على أدلة القرآن والسنة، والله يقول : ﴿ **وما كان لمومن ولامومنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ [الأحزاب : 36]". (2)

وثانيهما عصر الخلافة الراشدة، فهو العصر الذي ينبغي أن يقاس به حاضر المسلمين لأنه العصر الذي كانت فيه " المثالية القرآنية والتوجيهات الربانية هي الفيصل في كل القضايا التي اختلف فيها الناس، وتنوّعت مواقف الحضارات من طرحها، وكانت قضية المرأة من أكثرها مثار جدال". (3)

وفيما يلي نعرض لآراء الشيخ بيوض في ثلاث مسائل تتعلق بموضوع المرأة :

المسألة الأولى : عمل المرأة

يرى الشيخ بيوض أن الدور الأساسي للمرأة هو دورها كربّة بيت، تكوّن للمجتمع أبناء صالحين، ويرى أن تخلّى المرأة عن أداء هذا الدور وخروجها إلى مجالات أخرى، هو الذي عرّض الأسرة –كخلية أولى للبناء الإجتماعي– إلى التمزّق، وعطّل دورها الأساسي في تربية النشأ، مما نجم عنه آثار سلبية كثيرة، يذكر الشيخ منها : "نضوب الحنان والعاطفة الأبوية، واستفحال الأمراض والأوبئة الفتاكة من جراء الاختلاط والشذوذ الجنسي، وبالتالي انهيار الضوابط الإجتماعية في غياب الوازع الديني والخلقي". (4)

---

(1) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 112.

(2) – ابراهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 81.

(3)، (4) – المصدر نفسه، ص : 73

ولكي تؤدي المرأة وظيفتها كربة بيت ومربية أجيال، يرى الشيخ بيوض وجوب تزويدها بثقافة صحيحة تؤهلها للنجاح في ذلك، ولايتحقق ذلك إلا إذا وجهت البرامج الدراسية لخدمة هذا الهدف في تكوين الفتاة، يقول الشيخ بيوض في إطار حديثه عن المجهودات التي بذلتها حركة الإصلاح في ميزاب لضمان هذا التكوين : "فنحن الألى قدروا لهذا النصف من المجتمع من التربية والتكوين وفق ماهيأ الله إليه المرأة في تدبير شؤون الأسرة، وتربية الأجيال". (1)

ويقرر الشيخ بيوض أن للمرأة أن تمارس وظائف أخرى إذا كانت ظروفها الخاصة، أو وضع مجتمعها يقتضي ذلك بشرط ألا يتعارض ذلك مع واجبها الأساسي، فيقول : "نحن لا ننكر مبدأ حق العمل للمرأة متى دعت إليه وضعيتها الإجتماعية، أو اقتضت ذلك الظروف الخاصة للأمة، وإنما الذي لايمكن أن نتساهل فيه هو إهمالها للأسرة، وحضانة الأولاد، والقيام على شؤون البيت، ذلك الواجب المقدس للمرأة، والذي لايمكن أن يعوّضها فيه الخدم والحواضن الأخرى، مهما تخصّصن في هذه المهمة، وأخلصن في عملهن، لأنه سيبقى ذلك الفراغ النفسي الروحي الذي لايمكن أن تملأه غير الأم، بحنانها الفطري، وحبّها الغريزي". (2)

وكحلّ لهذه المشكلة العويصة يوجّه الشيخ بيوض المجتمع بمؤسساته ومسؤوليه إلى ضرورة توفير الأجواء المناسبة لعمل المرأة حتى لاتخلّ بواجبها الأساسي، فيعود ذلك بالأضرار الوخيمة على المجتمع، فهو يرى أنّ المرأة " لا تقوم إلا بما يناسبها من الأعمال، بعيدة عن أعين الطامعين، مصونة في حرزها الأمين".(3)

وللحركة الإصلاحية في ميزاب تجربة رائدة في توظيف المرأة الميزابية، دون اللجوء إلى المسلك الذي سلكته المجتمعات الغربية، وذلك بهدف تمكين المرأة الميزابية من الجمع بين دورها التربوي ودورها الإجتماعي الإقتصادي.

---

(1) - ابراهيم بيوض، حديث الشيخ بيوض، ص : 71.

(2) - المصدر نفسه، ص : 76.

(3) - المصدر نفسه، ص : 75.

يقول الشيخ بيوض موضحا هذا المسلك : "إن بيوتنا لاتكاد تخلو من المناسج وآلات الطرز والخياطة، لتشغيل النساء اللاتي اكتسبن المهارة وتكوين البنات المتمرنات على مستوى كل أسرة، لأن من أوكد الواجبات عندنا أن يتولين بأنفسهن إنتاج ما تحتاجه الأسرة من أنواع الزرابي والطنافس والسجاجيد والأكسية، [...]، ولكم أن تتصوروا ماتوفره المرأة في الجانب الإقتصادي من حياة الأسرة". (1)

وخطا المصلحون خطوة أخرى لجعل هذا النشاط الإقتصادي للمرأة الميزابية يتعدى نفعه الأسرة إلى المجتمع، فأطّروه وأنشأوا له تعاوينات خاصة تختص بمتابعته، وتنسيق العمل فيه، بتوفير المواد الأولية اللازمة له، ووضع خطط وبرامج للتسويق والإشهار، من خلال إقامة المعارض والأسواق لهذه المنتوجات.

فظهرت مؤسسة العطف التي احتلت مكانا مرموقا في المعارض الجهوية والوطنية، واشتهرت كل قرية من قرى ميزاب في نوع من الأكسية والحلل، ففي صناعة الزرابي بلغت بني يزقن الذروة، واشتهرت بريان بصناعة الجبة والحائك، وغرداية والقرارة بالقشابية، كما تميزت مليكة ببرانسها الوبرية. (2)

كما أن للمرأة الميزابية بالإضافة إلى هذا النشاط عمل في الفلاحة، حيث تعين زوجها في كثير من أعماله. (3)

ويفضل الشيخ بيوض هذا المسلك في توظيف المرأة، على المسلك الذي سلكته المجتمعات الغربية، وسارت عليه أكثر المجتمعات العربية والإسلامية، وذلك بالنظر إلى الأثار التي نجمت عنهما في الحياة الاجتماعية، وكذلك بالنسبة لإقتصاد الأسرة، ويعقد الشيخ بيوض موازنة بين المسلكين فيقول : "وإذا حاولنا في المجال الإقتصادي أن نوازن بين ما يمكن أن توفره المرأة بعملها خارج البيت لمدخول الأسرة، وبين مايتطلبه غيابها عنه من نفقات للخدم والحواضن، زائدة على الإنفاق الضروري للإيواء والإطعام والكساء

---

(1) - بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 75.

(2) - المصدر نفسه، ص : 77

(3) - المصدر نفسه : 78.

والعلاج، فسوف لانجد الفارق كبيرا، [...]، والأدهى في أمر المرأة العاملة أن تتذلل بزينتها وجمالها لدى المسؤولين عنها أورفقائها في العمل طلبا للخطوة والترقية، فإنها حينئذ لاتكتفي بما توفره من مدخولها الخاص، بل تغدو عالة على زوجها في توفير ماتتطلبه الحياة المترفة الماجنة من مواد التطرية وأنواع الحلل والحلي الفاخرة". (1)

- المسألة الثانية : لباس المرأة

ومن القضايا التي ركّز عليها الشيخ بيوض في دروسه عن المرأة، وأوضح حكم الإسلام فيها، قضية الزي، أو لباس المرأة، ذلك أن التيار التغريبي طرح قضية السفور على أنها المظهر الذي ينبغي أن تلتزمه المرأة المؤمنة بالتقدم والتطور، وشنّ هذا التيار حملة شنّع فيها بلباس المرأة الميزابية، الذي يرونه دليلا على التخلف والرجعية والمهانة، فعند رؤيتهم للمرأة الميزابية -كما يقول الشيخ بيوض- : "ملفوفة بملاءتها الصوفية الخشنة على الطريقةالأولى للحجاب الإسلامي، يتصورون التخلف والجهل، ويتوهمون المهانة والذل، أو يتهمونها بالنفاق والخداع". (2)

ويرجع الشيخ بيوض سبب هذه النظرة التي يحملها هؤلاء للحجاب الإسلامي إلى بعدهم عن المفاهيم الإسلامية التي "ليس لها وزن في تفكيرهم، عندما أصبحوا كالببغاوات يردّدون شعارات أسيادهم، ويطرحون إشكاليات لم تكن يوما من صميم واقعهم". (3)

ويعجب الشيخ بيوض من محاولات هؤلاء المغرّبين فلسفة الأمر، ليردوا الباطل حقا بتزيينه، وذلك عندما يزعمون أن التزام المرأة بالحجاب يغرى الرجل بها أكثر مما لو كانت سافرة، لأن أحب شيئ إلى الإنسان مامنع منه، قال الشيخ بيوض : "وأطالوا القول في هذا وأطنبوا، وزيّنوه وجعلوه قاعدة فلسفية، وهي باطلة قطعا ويقينا، لأن الفسق منتشر فيهم،

---

(1) - ابرهيم بيوض، حديث الشيخ الإمام، ص : 75.

(2) - المصدر نفسه، ص : 75.

(3) - المصدر نفسه، ص : 75.

وبلوغهم أعماق قرار التسفل والدناءة والخسة يدل على بطلان فلسفتهم". (1)

ويقرر الشيخ بيوض أن خالق الإنسان -وهو أعلم بالإنسان من نفسه- قد حسم المسألة، وبيّن مايثير غرائز الإنسان وما لا يحركها،يقول الشيخ : "فخالق الرجل والمرأة، وخالق الغرائز، وخالق المؤثرات والمثيرات للغرائز، وهو الله اللطيف الخبير، العليم بكل شيئ، وحده -لاغيره- يعلم ما يكبت الغريزة ويثيرها، وما يحركها ومايمنعها، وقد علم أن انكشاف المرأة للرجل يثير شهوته مهما عفّت أو عفّت". (2)

والدليل العملي على بطلان دعواهم -كما يؤكد الشيخ بيوض- هو حال المجتمعات التي تكاد المرأة فيها أن تكون دون لباس، يقول الشيخ بيوض : "ولو كان كلامهم صحيحا لكانت البلاد السافرة أقلّ فسقا وأكثر عفافا، ولكنّها بلاد لايعرف فيها والدولده، ولا مولود والده". (3)

ويتعجب الشيخ بيوض أن يصدر مثل هذا الكلام عن أناس يزعمون أنهم مسلمون، فيقول : "وليس الغريب أن يقول هذا الكلام مشركون من أهل الكتاب، لايؤمنون بالقرآن، أو أن يقوله ملحد لا يؤمن بإله أو رسول، ممن يقول الأرحام تدفع والأرض تبلع، وإنما الغريب أن يقول هذا علماء وزعماء وأمراء وسلاطين مسلمون، يزعمون أنهم من أتباع محمد". (4)

- المسألة الثالثة : المساواة بين الرجل والمرأة

يرى الشيخ بيوض أن الدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، دعوة تخالف نصوصا صريحة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما**

---

(1) - ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 129.

(2) - المصدر نفسه، ص : 130.

(3) - المصدر نفسه، ص : 126.

(4) - المصدر نفسه، ص : 132.

فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ [النساء : 34]، وقوله تعالى : ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن وللرجال عليهن درجة** ﴾ [البقرة : 228].

ويعلق الشيخ بيوض على هاتين الآيتين بقوله : "ومن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا إلا خالق المرأة وخالق الرجل، وخالق هذا المخلوق هو العليم بالطباع والغرائز التي أودعها في كل منهما، ومبلغ كل غريزة ومنتهاها، وقوتها وضعفها، [...]، فهل يستطيع غير الله أن يحكم بأن هذا خير من هذا؟، كل من تكلم في هذا الموضوع غير الله فإن ضلاله أكثر من صوابه". (1)

ويشرح الشيخ معنى التفضيل الذي أشارت إليه الآيتان فيقول : "وهذا التفضيل منه مايبدولنا ومنه مالايبدو، وليس المراد بالتفضيل الكسب وقوة البدن فقط، وإنما يرجع إلى أعماق أعماق الغرائز التي ركبت في الرجل والمرأة، وإلى أصول الطباع التي ركزت فيهما". (2)

ويعتبر الشيخ بيوض أن هذه النصوص القرآنية قد حلّت هذه المشكلة العويصة التي تخبطت فيها الإنسانية كثيرا، فيخاطب بكل ثقة الإنسانية أن تعود إلى كتاب الله، فيقول : "إن مشكلتكم التي تتخبطون فيها وألّفتم فيها ملايين الكتب والنشريات، تعالوا إلى كتاب ربكم تجدوا الدواء في قارورة صغيرة فيها ثلاث أو أربع حبّات ﴿ **ولهن مثل الذي عليهن وللرجال عليهن درجة** ﴾، لم يقل درجات بالجمع حتى لايتفوّق الرجل ولايستبدّ ويدّعي أنه إله المرأة ويتجاوز الحد، وإنما قال : ﴿**عليهن درجة**﴾، قدر التفوّق الفطري والغريزي الذي يعلمه الله". (3)

- ثانيا : قضية توزيع الثروة

لقد عاصر الشيخ بيوض الفترة التي تألّق فيها الفكر الإشتراكي، وفرض نفسه على

---

(1) (2) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 126.

(3) – المصدر نفسه، ص : 127.

كثير من البلدان العربية والإسلامية، في الخمسينات والستينات والسبعينات من هذا القرن العشرين.

وقد جاء هذا الفكر كرد فعل على الرأسمالية المتوحشة التي تفننت في استغلال الإنسان بأبشع الأساليب.

وقد دفعت هذه المعايشة الشيخ بيوض أن يدلي بوجهة نظره في هذه المشكلة التي يعتبرها أحد الأمراض المزمنة التي أصيبت بها الإنسانية، حيث يقول : "والمرض المزمن الأخر الذي فرّق العالم إلى كتلتين هو مرض الرأسمالية والإشتراكية، أو ما يمكن أن نلخصه في توزيع الثروة، وتوزيع المال في هذا العالم، هل يترك الأمر فوضى، فيكون الناس طبقات، أغنياء ومتوسطين وفقراء، فيتكون نظام الطبقات، أم تجمع الثروة عند الدول ، ولاتكون ملكية فردية أبدا".(1)

ويرى الشيخ بيوض أن شفاء هذا المرض، وحل هذه المشكلة، موجود في كتاب الله، وفي شريعته التي أرسل بها محمدا صلى الله عليه وسلم، مستدلا بقوله تعالى : ﴿ **ونـنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾. [الإسراء : 82].

ويقرر أن حل المشكلة لا يكمن في الشيوعة التي تحاول إزالة نظام الطبقات، لأن ذلك حلم قديم بدأ مع "مزدك" الفارسي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ويبدى ملاحظة طريفة عندما يربط بين منطلقة فارس والمذهب الشيوعي حين يقول : "ومن الغريب أن يكون مولد هذه المشكلة في روسيا منذ ألف وخمسمائة (1500) سنة، إلا أنها انتشرت الآن أكثر".(2)

لكنّ هذا الحلم –كما يؤكد الشيخ بيوض– لم يتحقق، ولن يتحقق، لأنه يناقض سنة الله في خلقه، هذه السنة التي جاءت في قوله : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ [الزخرف : 32].

---

(1) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 112

(2) – المصدر نفسه، ص : 113

يقول الشيخ بيوض - مقررا هذا المعنى- : "وجاء بعض يحاولون ولا يزالون لإزالة الطبقات عن البشر، وقالوا : يجب أن نكوّن عالما ذا طبقة واحدة، ونحن على يقين بأنهم لن يستطيعوا لأن الله تعالى يقول : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم** ﴾، نحن لاغير، ليس إليكم أيها الناس، ولالرؤساء الحكومات اليوم، ولازعماء المذهب الماركسي، ولا لزعماء المذهب الرأسمالي، فلن تستطيع يد أن تهدم ما بنته يد الله، ولا أن تعدّل فيه، ثم ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾، تعالى أنت يافلان فاجعلهم درجة واحدة، ويخرب العالم ويفنى". (1)

ويلاحظ الشيخ بيوض أن الدول التي تبنت هذا المذهب الذي ينادي بإزالة الطبقات، وقعت في طبقية أقبح وأشنع من نظام الطبقات، "إنها الدكتاتورية، وهي عند الأمم الشيوعية أقبح وأشنع ألف مرة من ديكتاتورية الغرب الديمقراطي". (2)

ويقرر الشيخ بيوض في النهاية أن حلّ هذه المشكلة يكمن في النظام الإقتصادي الإسلامي، الذي يعترف بنظام الطبقات من جهة، ويوفر الضمانات التي تحدّ من سلبياته من جهة أخرى.

يقول الشيخ بيوض : "وقد وضع الله حلا ودواء لمشكلة الطبقات بقوله في كتابه : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ [الزخرف : 32].

الآية تقرر أنّ العالم لايصلح إلا بالطبقات التي فيه، [...]، وبين السبب في هذه الطبقات ﴿ **ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾، فلو استوى الناس في هذا العالم لما خدم أحد الآخر، ولتوقف هذا التقدم العمراني". (3)

ويشير الشيخ إلى بعض الضمانات التي يقدّمها النظام الإقتصادي الإسلامي للحدّ من التأثيرات السلبية لنظام الطبقات، فيذكر أن الإسلام نهى عن الأثرة، وعن أكل القوي مال الضعيف، وعن غمط الحقوق، ودعا إلى الإحسان وإعطاء الفقراء والمساكين، بل أوجب في

---

(1) - ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن تفسير سورة الإسراء، ص : 133.

(2) - المصدر نفسه، ص : 133.

(3) - المصدر نفسه، ص : 133.

مال الأغنياء حقا يأخذه المحتاجون كل عام، وحرّم الربا الذي يعتبر أكبر آفة في الدنيا تركّز الأموال في أيدي فئة قليلة من الناس، يزداد ثراؤها باستغلال حاجات الناس، والظروف الصعبة التي تمر بهم. (1)

ويؤكد الشيخ بيوض أن التزام هذا النظام كفيل بحل هذه المشكلة التي عجز العقل الإنساني عن إيجاد حلّ عادل لها، فيقول : "فلو صدق الأغنياء في إخراج زكواتهم من أموالهم، ووضعوها في مستحقيها لاستغنى الفقراء، ولخفت وطأة البؤس في العالم، ولما كان هناك جائع يطلب الخبز، أو عريان يطلب ثوبا". (2)

هذه بعض القضايا الإجتماعية التي أدلى فيها الشيخ بيوض برأيه، وحدّد منها موقفه، ونلاحظ أن الشيخ بيوض في مناقشته لهذه القضايا ينطلق من نصوص الوحي كتابا وسنة، ويعتبرها مصدرا معرفيا ملزما لكل إنسان مؤمن، ثم يعمل العقل كمصدرثان للمعرفة، في تفسير تلك النصوص، وفي الإشارة إلى الحكم والمصالح التي جاءت لتحقيقها في حياة الناس.

---

(1) – ابراهيم بيوض، في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، ص : 134.

(2) – المصدر نفسه، ص : 134.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــــــة

إن الحديث عن حركة الإصلاح في منطقة ميزاب بقيادة الشيخ إبراهيم بيوض حديث في موضوع بكر، لا أدّعي أنني ألممت بكل جوانبه، وأعطيته حقّه من الدراسة والبحث، وحسبي أن أكون قد فتحت بابا أمام الدارسين جديرا بالتعمق وتوسيع مجال الدراسة فيه ليشمل الحركة الإصلاحية في ميزاب بمراحلها المختلفة التي مرت بها، والتي لا يعدّ العمل الذي قام به الشيخ بيوض إلا حلقة واحدة ضمن حلقاتها المتتابعة والمتعاقبة.

ويمكن أن ألخص أهم ما توصلت إليه من نتائج في دراستي لمنهج الإصلاح في حركة الشيخ بيوض في النقاط التالية :

أولا : إنّ الشيخ بيوض جمع في عمله الإصلاحي بين الفكر والعمل، فقد كان عالما بالدين عقيدة وشريعة، ملتزما بمقتضيات هذا العلم في فكره وسلوكه، لكنه لم يكتف بذلك، بل سعى ليجعل من هذا العلم واقعا في حياة مجتمعه، في ثقافته واجتماعه واقتصاده وسياسته، وكان يرى هذا السعي واجبا دينيا يأثم بتركه.

وهذا الربط بين الفكر والعمل يمثّل درجة عالية من الوعي بلغها الشيخ بيوض، وقصر عنها الكثير من العلماء ممن اكتفوا بالتبحّر في علوم الشريعة دون أن يكون لعلمهم أثر إجتماعي يذكر، إلاّ مساهمات محدودة في تصحيح بعض التصورات.

ثانيا : اتسمت حركة الشيخ بيوض بالواقعية، سواء في تقويمها لواقع مجتمعها إبّان الإحتلال أو بعد الإستقلال، حيث حرصت على أن يكون هذا التقويم مبنيّا على الوقوف المباشر على الواقع، وذلك من خلال الأطر العديدة التي كانت تستغلّها لتتعرف على هذا الواقع وتدرسه دراسة عميقة، أو في تحديد المناهج التي سلكتها لإصلاح ماحلّ بمجتمعها من فساد، حيث ركّزت على المنهج التعليمي لتكوين قيادات لدفع حركة الإصلاح في شتى

مجالات الحياة الإجتماعية، ورفع مستوى الوعي عند الجماهير، وسلكت المنهج الإجتماعي لإحداث إصلاح شامل في الدوائر التي لها تأثير مباشر في حياة الفرد وسلوكاته.

ثالثا : كما تميزت هذه الحركة بالشمول، فقد قوّمت الواقع تقويما شاملا، و لم تكتف بلفت النظر إلى جانب من جوانبه، كما كان الشأن بالنسبة لبعض الحركات الإصلاحية التي ركّزت في تقويمها على حالة المجتمعات التي تحركت فيها في السياسية أو في العقيدة.

وهذا التقويم الشامل دفع الحركة إلى تحديد بديل شامل لإحداث إصلاح شامل في كافة المجالات.

وهذا الشمول -كما يؤكد الأستاذ عبد المجيد النجار- "من شأنه أن يكسب تجربة الإصلاح توازنا وتكاملا يؤمن معهما إهمال جانب من جوانب الفساد يمكن أن يستشري ويتضخم فيأتي بالنقض على سائر الجوانب الأخرى التي تحقّق فيها الإصلاح، وكم من تجربة إصلاحية كان مآلها الفشل بسبب اقتصارها على معالجة جانب وحيد من الواقع وإهمالها لسائر الجوانب الأخرى". (1)

رابعا : ويمكن أن نسجّل من النتائج المهمة لهذه الدراسة لحركة الإصلاح في منطقة ميزاب ما اتسمت به من جمع بين المحافظة والتجديد، فقد تعاملت هذه الحركة مع الواقع بإتزان كبير، بعيدا عن منطق ردود الأفعال، فلم ترفضه رفضا كليّا، بل وجدت فيه مؤسسات كانت تقوم بدور سواء في المجال التعليمي أو في المجال الإجتماعي، فعملت على المحافظة عليها، وحاولت التطوير فيها.

ففي المجال التعليمي حافظت الحركة على مؤسسات التعليم الديني الحر، وبذلت جهودا جبارة لبقائها مستقلة عن الهيئات الرسمية، سواء إبان الإحتلال أوبعد الإستقلال، لكنها لم

---

(1) - عبد المجيد النجار، تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت، ص : 109.

تكتف بذلك بل عملت على تطوير هذه المؤسسات في وسائلها ومناهجها وبرامج التعليم بها.

وكذلك فعلت في المجال الإجتماعي، حيث حافظت على الهيئات الإجتماعية التي تميزت بها منطقة ميزاب، وعملت على تفعيل آدائها الإجتماعي، و لم تكتف بذلك، بل استغلت أطرا أخرى كان لها أثر مباشر على المجتمع كالجمعيات الثقافية والإجتماعية ومؤسسات الدولة الحديثة.

خامسا : كان لهذه الحركة مرجعية واضحة، تمثلت في نصوص الكتاب والسنة واجتهادات العلماء التي انطلقت منهما، وقد التزمت بهذه المرجعية في تقويمها لواقع مجتمعها حين حكمت على جزء منه بالصلاح وجزء آخر بالفساد، وكذا في تحديدها لخطوات منهجها الإصلاحي سواء في المجال التعليمي والتربوي أو في المجال الإجتماعي.

وكانت هذه المرجعية هي المقياس الذي اعتمدته في قبول أو رفض ماتوصل إليه الفكر البشري في ظلّ هيمنة الحضارة الغربية.

الفهارس

- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأعلام
- فهرس المحتويات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- فهرس المصادر والمراجع -

I- المصـــادر :

- بيوض، إبراهيم بن عمر.

1)- في رحاب القرآن : تفسير سورة الإسراء، تحرير الأستاذ عيسى محمد الشيخ بلحاج ومراجعة د.محمد ناصر، ط1، دار النهضة للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1992.

2)- تفسير سورة الحجرات، مخطوط، تحرير الأستاذ عيسى محمد الشيخ بلحاج، موجود بمكتبته الخاصة، القرارة، الجزائر، ج 28.

3)- تفسير سورة الحشر، مخطوط، تحرير الأستاذ عيسى محمد الشيخ بلحاج، موجود في مكتبته الخاصة، القرارة، الجزائر، ج 31.

4)- دروس في تربية الأبناء، مخطوط، تحرير الأستاذ عيسى الشيخ بلحاج، موجود بمكتبته الخاصة، القرارة،الجزائر.

5)- المجتمع المسجدي، إعداد الأستاذ محمد ناصر بوحجام، ط1، مط العربية، غرداية (الجزائر)، 1989م.

6)- أعمالي في الثورة، جمعه للطبع د.محمد ناصر، ط ؟، جمعية التراث، القرارة (الجزائر)، 1990.

7)- حديث الشيخ الإمام ردا على بعض الشبهات والأوهام، إعداد وتنسيق الشيخ محمد ابراهيم سعيد (كعباش)، الحلقة الأولى، ط ؟، جمعية النهضة غرداية (الجزائر)، 1992.

8)- فتاوى الإمام الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر، ترتيب وتقديم وتخريج بكير محمد الشيخ بلحاج، ج1، ط ؟، مط العربية، غرداية (الجزائر)، 1988م.

9)- فتاوى الإمام الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر، ترتيب وتقديم وتخريج بكير محمد بالحاج، ج2، ط ؟، مط العربية، غرداية (الجزائر)، 1988م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

10)- "ومن يبتغ غير الإسلام دينا"، مقال بمجلة الفكر الإسلامي، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، ع1، س1، 1964.

11)- "أبنائي الأعزاء" مقال، بمجلة الشباب، معهد الحياة، القرارة (الجزائر)، ع64، 1929.

12)- "أبنائي الأعزاء" مقال، بجلة الشباب، معهد الحياة، القرارة (الجزائر)، ع : رمضان 1384هـ.

13)- "واجب الآباء نحو الأبناء"مقال، جريدة وادي ميزاب، س1، 19، 11-02-1930.

14)- "عبرة وذكرى في الأزمة الوزارية الفرنسية الأخيرة"،مقال، جريدة المغرب، ع30، س1، 23-12-1930.

15)- "في الوحدة العربية : الفرقان بين أميري السيف والبيان الباروني باشا وشكيب أرسلان"، مقال، جريدة الأمة، ع157، 02-03-1938.

- **دبوز، محمد علي.**

16)- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، ط1، مط البعث، قسنطينة (الجزائر)، 1974.

17)- أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1340-1921 إلى عام 1395-1975، ج2، ط1، مط البعث، قسنطينة، 1976.

19)- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ط1، مط البعث، قسنطينة، 1978.

20)- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، ط1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1980.

21)- أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1982.

22)- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1، مط التعاونية، [د.م]، 1965.

23)- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط1، مط العربية، الجزائر، 1971.

24)- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ط1، مط الجزائرية، 1969.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-II- المراجـــع :

- ابن عيسى بن ابراهيم، الحاج محمد عمر.

25)- مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب من ناحيته الدينية والسياسية والإجتماعية من سنة 1853م، إلى سنة 1951م،ط ؟، مط النهضة، تونس، 1951.

- ابن نبي، مالك.

26)- وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط ؟، دار الفكر، دمشق،1981.

27)- في مهب المعركة : إرهاصات الثورة، ط ؟، دار الفكر، دمشق، 1981.

28)- ميلاد مجتمع، ط3، دار الفكر، الجزائر، 1986.

- أبو حامد الغزالي.

29)- إحياء علوم الدين، ط ؟، دار المعرفة، [دتا]، ج2.

- أعوشت، بكير.

30)- الامام ابراهيم بيوض وجهاده الاسلامي في الجزائر،ط؟، مط العربية، غرداية (الجزائر). 1987.

31)- وادي ميزاب في ظّل الحضارة الإسلامية : دينيا، تاريخيا، اجتماعيا، ط ؟، مط العربية، غرداية (الجزائر)، 1991.

- الحاج سعيد، يوسف بن بكير.

32)- تاريخ بني مزاب ونضالهم من أجل الحق في التباين : دارسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط ؟، مط العربية، غرداية (الجزائر)، 1992.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الخطيب، أحمد.

33)- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ط ؟، م. و. ك، الجزائر، 1985.

- الطلاي، إبراهيم محمد.

34)- مزاب بلد كفاح : دراسة تاريخية إجتماعية تلقى أضواء على نشأة هذا البلد وحياة ساكنيه، ط ؟، دار البعث، قسنطينة، 1970.

- القرضاوي، يوسف.

35)- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة،[د.نا]، [د. م]، 1990، (سلسلة الصحوة الإسلامية).

- الغزالي، محمد.

36)- من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، ط2، دار الشهاب، باتنة (الجزائر)، [د. ت] .

- النجار، عبد المجيد.

37)- تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت : الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن 6هـ، ط1، [د.نا]، تونس، 1984.

- تركي رابح.

38)- التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، م. و. ن. ت، الجزائر، 1981.

39)- الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط4، م. و. ك. الجزائر، 1984.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

40)- أصول التربية والتعليم، ط2، م.و.ن.ت، الجزائر، 1990م

- جغلول، عبد القادر.

41)- الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، ط1، [د.ن]، بيروت، 1984.

-خليفات، عوض محمد.

42)- النظم الإجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية في مرحلة الـ [د.نا]، عمان، 1982.

Malek Benn

"L'INVITATION DU M'ZAB, Revolution Africaine, N°?74

- سعد الله، أبو القاسم.

43)- الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، ط3، س. و. ن. ت.

44)- الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج3، ط2، دار الغرب، [illegible]

- شريفي، سعيد.

45)- معهد الحياة : نشأته وتطوره، ط1، مط العربية، [illegible]
[illegible] سعيد شريفي (أستاذ بمعهد أصول الدين جامعة الجزائر)، في [illegible]
1993م.

- معمر، علي يحي.

46)- الإباضية : دراسة مركزة في أصولها و[illegible] (مدير مدرسة الحياة، القرارة، وابن الشيخ بيوض) القرارة 1985.

الأستاذ صالح حدبون (مدير داخلية معهد الحياة)، القرارة سبتمبر 1993م.

- ناصر السيد عبد الله محمد (نجار بالقرارة)، القرارة سبتمبر 1993م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ناصر، محمد.

48)- حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، ط ؟، جمعية التراث، القرارة (الجزائر)، 1989.

49)- في رحاب القرآن : الإمام الشيخ إبراهيم بيوض، ط ؟، جمعية التراث، غرداية (الجزائر)، 1989.

- المقـالات :

- ابن نبي، مالك. Malek Bennabi.

"L'INVITATION DU M'ZAB, Revolution Africaine, N°274, Semaine du 20 au 26 Mai 1968, p.p, 23-24.

- المقابلات :

- الشيخ سعيد شريفي، (مدير معهد الحياة، القرارة)، في الجزائر، سبتمبر 1993م.

- الأستاذ بلحاج بن سعيد شريفي (أستاذ بمعهد أصول الدين جامعة الجزائر)، في الجزائر سبتمبر 1993م.

- الشيخ محمد بيوض (مدير مدرسة الحياة، القرارة، وابن الشيخ بيوض) القرارة سبتمبر1993م.

- الأستاذ صالح حدبون (مدير داخلية معهد الحياة)، القرارة سبتمبر 1993م.

- السيد عبد الله حريز (نجار بالقرارة)، القرارة سبتمبر 1993م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية

الرقم التسلسلي	بداية الآية	الصفحة	السورة	رقم الآية
01	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	أ	آل عمران	104
02	كنتم خير أمة أخرجت للناس	ث	آل عمران	110
03	ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر	20	الإسراء	70
04	إن تنصروا الله ينصركم	23	محمد	7
05	وليعبرن الله من يعبره.....	23	الحج	40
06	إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب..	23	الزمر	10
07	وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم	183-37	الأحزاب	36
08	كتاب أنزلناه لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.....	56	إبراهيم	1
09	قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله	69	النمل	65
10	وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة	79	القصص	77
11	يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا	79	التحريم	6
12	والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا	91	الحشر	10
13	واعلموا أن فيكم رسول الله	91	الحجرات	7
14	وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به	91	النساء	83
15	إن الله لا يغير ما بقوم.....	130	الرعد	11
16	إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء.....	138	المائدة	91
17	وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم	138	الأنفال	63
18	إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم.....	139	الحجرات	10
19	وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض	148	الأنفال	75
20	يسألونك ماذا ينفقون.....	149	البقرة	215
21	وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم.....	149	النور	32
22	يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى	151	الحجرات	13
23	الرجال قوامون على النساء.....	187	النساء	34
24	ولهن مثل الذي عليهن.....	188	البقرة	228
25	وننزل من القرآن ما هو شفاء	189	الاسراء	82
26	نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا.....	189	الزخرف	32

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأعلام

-أ-

- أبو اليقظان إبراهيم : 18_75_106
- أرسلان، شكيب : 12_14_40
- أطفيش، امحمد : 6_11_13_24_77_87_92_98
- الإبراهيمي، البشير : 17_66
- الإبريكي، إبراهيم : 6_7_8_13
- الأفغاني، جمال الدين : 40_130
- الثميني، عبد العزيز : 6_77_98
- الجيطالي، إسماعيل : 6
- الخطيب، أحمد : ح
- الشماخي، أحمد بن سعيد : 87
- الشيخ الحاج بكير، محمد : 21
- العسقلاني، ابن حجر : 107
- العنق، بكير : 4_10_12_13_27
- الغزالي، أبو حامد : ا
- الغزالي، محمد :33_182
- القرادي، أيوب ابراهيم : 63
- الكواكبي، عبد الرحمن : 10_14_40
- النجار، عبد المجيد : 193

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ب -

- بن اباض، عبد الله : 14
- بن ابراهيم، عبد الله : 8
- بن الحاج، داود سليمان : 22
- بن الحاج يوسف العطفي، محمد : 5
- بن باديس، عبد الحميد : ج-72_107
- بن حميد السالمي، عبد الله : 6_86_87_88
- بن خدة، بن يوسف : 24_182
- بن صالح الأفضلي، يحي : 77
- بن زيد، جابر : 14
- بن عمارة خبزي، عيسى : 179
- بن عمر، صالح : 11
- بن محمد الشيخ الحاج، عيسى : 20_90
- بن نبي، مالك : ث-ج-64_112_116_132_133_144_180_188
- بن يحي، عمر : 9_10_11_13_16_105
- بوحجام، محمد ناصر : 21

- ت -

- تركي، رابح : ح-101

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ج -

- جوهري، طنطاوي : 10_14

- ح -

- حماني، احمد : 20

- د -

- دبوز، محمد علي : ج-ح-21_22_28_38_88_93_158_159
- دماغ العتروس، العربي : 26

- ر -

- رضا، رشيد : 10_13_34_40_41_92

- س -

- سعد الله، أبو القاسم : ح-77
- سلطاني، عبد اللطيف : 66

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- ش -

- شريفي، سعيد : ح_17_21

- ع -

- عبده، محمد : 10_13_24_40_41_92_130
- علي الجربي، عمر سعيد : 157

- ك -

- كامل، مصطفى : 10

- م -

- معمر، يحي : 147

- ن -

- ناصر، محمد : 21_95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس المحتويـــات

مقدمـــــــة :

الفصل الأول : الشيخ إبراهيم بيوض حياته وموقفه من واقع المجتمع الجزائري :

I- حياة الشيخ بيوض ومعالم شخصيته :

- تمهيـــد : 01

1- أطوار حياته :

أولا : مولده ونشأته : 03

ثانيا : دراسته ومشايخه : 05

ثالثا : أسفاره الأولى : 11

رابعا : شخصيات تأثر بها : 13

خامسا : مذهبه العقدى والفقهي : 14

سادسا : أعماله وآثاره : 16

2- معالم شخصيته :

أولا : ثقة كبيرة بالله : 22

ثانيا : شغف بالعلم وحرية في الفكر : 24

ثالثا : شعور بالمسؤولية : 25

رابعا : شجاعة في قول الحق : 26

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

II - موقف الشيخ بيوض من واقع المجتمع الجزائري :

1- أطرفهم الواقع :

أولا : استيعابه لثقافة مجتمعه : 29
ثانيا : احتكاكه المباشر بالمجتمع : 30
ثالثا : مجلس العزابة ودوره في فهم الواقع : 32
رابعا : وسائل الإعلام : 34
خامسا : دار الجماعة : 35

2- المصادر المرجعية لفهم الواقع وتقويمه :

أولا : الوحـــي : 37
ثانيا : عصر الخلافة الراشدة : 38
ثالثا : كتابات بعض المصلحين : 38
رابع : التجارب الناجحة : 40

3- تقويم الشيخ بيوض لواقع المجتمع الجزائري :

أولا : المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي : 42
ثانيا : المجتمع الجزائري بعد الاستقلال : 53

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني : منهج الإصلاح التعليمي التربوي :

- تمهيـــــد : 63

1- أهداف المنهج التعليمي التربوي :

- أولا : البعد العقدى : 68
- ثانيا : البعد الأصولي المقاصدى : 70
- ثالثا : البعد الاجتماعى : 73

2- مؤسسات العمل التعليمي التربوى :

أولا : مؤسسة الأسرة : 78
ثانيا : مؤسسة المسجد : 81
ثالثا : المؤسسة التعليمية : 96

الفصل الثالث : منهج الاصلاح الاجتماعى :

- تمهيـــــد : 128

1- أهداف المنهج الاجتماعى :

- الهدف الأول : 130
- الهدف الثانى : 131

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- أطر تحقيق أهداف المنهج الاجتماعي :

أولا : المؤسسة التعليمية : 133
ثانيا : مؤسسة المسجد : 135
ثالثا : الهيئات الإجتماعية : 138
رابعا : الجمعيات الحديثة : 158
خامسا : مؤسسات الدولة الحديثة : 166
سادسا : المجال الإقتصادي : 174

3- موقف الشيخ بيوض من بعض القضايا الإجتماعية :

أولا : قضية المرأة : 180
ثانيا : قضية توزيع الثروة : 186

الخاتمـــــــــة : 190

الفهـــــــــارس :
- فهرس المصادر والمراجع : 193
- فهرس الأيات القرآنية : 199
- فهرس الأعلام : 200
- فهرس المحتويات : 204

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية